المملكة العربية السعودية
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
الدراسات العليا
شعبة الأدب والنقد

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
عمادة شؤون المكتبات
قسم المخطوطات

الجانب الفني في قصص القرآن الكريم

٨١٢
ع ٩٤ ب

رسالة أعدها

عمر محمد عمر باحاذق

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
عمادة شؤون المكتبات - قسم المخطوطات
رقم التسجيل العام ٣٥١
الخاص
التاريخ

لنيل درجة الماجستير

باشراف الأستاذ الدكتور

عبد الفتاح السيد محمد الدماصي

الأستاذ المشارك بقسم الدراسات العليا بالجامعة

١٤٠٣هـ
١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقدِّمَة

المقدمـــــــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرســـــلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه الى يوم الدين .

أما بعد : فها هي ذى رسالتي بعنوان " الجانب الفني في قصص القـــــرآن الكريم " المتقدم بها بعون الله تعالى للحصول على درجة الماجستير فـــــي الأدب العربي من الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة .

وفي الواقع ، ان البحوث القرآنية مهما تعددت وكثرت جوانبهـــــا ، فنحن كل يوم في احتياج الى مزيد ومزيد من تلك الدراسات التي تكشف لنـــا الحين بعد الحين سرا من أسرار هذا الكتاب المقدس ، وتعرب لنا عن قـــوة بيانه ، وروعـة اعجازه ، وسمو معانيـــه .

ولا ريث في هذا ، فهو كتاب من عند الله ، لا يأتيه الباطل من بـــين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

والقصص القرآني أعجب به كثير من الباحثين ، حتى كرّسوا جهدهم فـي الغوص عن معانيه ، والوصول الى ما حوله من حكم وعبر ، حتى زخـــــرت المكتبات بطرائف عديدة من هذا اللون القصصي المعجز ، الذى لا يســـــامى وهذا البيان الساحر الذى عجز عنه كل البشر .

ومن الذين بحثوا في هذا المضمار ، الدكتور محمد أحمد خلف اللـــه في كتابه " الفن القصصي في القرآن " ، والمرحوم الشهيد سيد قطب فـــــي كتابه " التصوير الفني في القرآن " ، والأستاذ عبد الحافظ عبد ربـــــه فـــي

كتابه " بحوث في قصص القرآن " ، والأستاذ محمود زهران في كتابه " قصـــه من القـــــرآن " .

الى غير ذلك من مؤلفات وبحوث حول هذا الجانب القصصي في كتـاب الله عز وجل .

وفي الواقع ، ان كل باحث من هؤلاء الباحثين له دور كبير في اجـلاء معالم هذه القصة القرآنية ، وابراز ما احتوت عليه من جمال فني أخّـــــــاذ ، وروعة بيان له أثره البالغ في النفوس .

ولكنني رأيت أن هؤلاء الباحثين وغيرهم - على ما يبدو لي - ربمـــــا أنهم لم يضعوا القصة القرآنية في اطار واحد متكامل ، ثم بعد هذا حاولـــــوا أن يطبقوا عليها المنهج التكاملي ، والأسس الجمالية المطلقة ، حتى يكـــون الحكم عليها حكما شاملا ، قد تناول جميع أطرافها ، وما لها من لمحات فاقـت كل تقنين صاغـه الكتّاب .

آثرت في بحثي هذا أن يكون مبنيا على منهج متكامل ، حتى تنجـــلي مناحيها الفنية ، وتظهر روعتها الابداعية ، وسحرها الذى يأخذ بتلابيـــب القـــــــــلوب .

ومن هذا حاولت ما استطعت أن أدرس كل جزئية من الجزئيات عـــلى حدة ، حتى يكمل البناء الفني في تناسقه ، ويتم البحث بعد الغوص فـــي الأعماق ، والتفتيش على كثير من الخبايـا .

واذا كان النقاد المحدثون رأوا أن مقومات القصة لن يتم بهاؤهـــا ويزهو رونقها الا بمعايير خاصة ، فقد حاولت أن أبحث عن هذه العوامـــل

التي ارتضوها معيارا لنقدهم و منارة تهديهم .

فرأيت أن نظراتهم في الكثير منها كانت ترنو الى هذا القّص القرآنـــي حتى اتخذوا منه نبراسا يضيء لهم معالم الطريق ، ويرسم لهم نظرياتهم الـــتي اتخذوها حيال القصص المثاليـة .

ان القرآن الكريم بقصصه الرائعة كان مددا رائقا لكل باحث ومنقـــب ، وذخيرة لا تنفد لكل من ينشد المعون والمثالية المطلقة .

فمن معينه يرتوون ، ومن أفكاره يقتبسون ، ومن هداه يسترشدون ، ومن سحـــر بيانه وروعة أسلوبه يتأثرون .

ان كانت هناك مدرسة نقدية كم تحاول أن ترفع من شأن القّص ، وتعلي من قدره في اطاره الفني ، فذلك بعد أن تتمثل القصة القرآنية بما لها مـــن أضواء وظلال ، وما حولها من متعة وشوق ، وأسر ، وتلاحم ، وترابط ، وعظمـة بالغـــــة .

لهذا كله آثرت الحديث عن الجوانب الفنية في القصة القرآنية حـــتى أكشف شيئا من جمالها الآسر ، ولأثبت عجز البشرية الذين وان حاولوا المحاكاة والتمثل بهذا الفن ، الا أنهم سرعان ما يحسوا بعجز شامل ، واخفاق واضح . ومن ثم يحسون بالعظمة العلوية ، والقدرة الربانية ، وصدق الحق عز وجـــل وهو القائل ((قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بهذا القـــرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)) .

وقد حاولت في بحثي أن أسير فيه على المنهج التالي : تقسيم الرسالة الى أربعة أبواب ، ويندرج تحت كل باب فصول ، هكذا :

الباب الأول : مقاصد القرآن :

الفصل الأول : العقيدة والتشريع وما يتعلق بهما .

الفصل الثاني : التأسي والاعتبار .

الباب الثاني : التكرار في القصة القرآنية :

الفصل الأول : القصة القرآنية بين التكرار وعدمه .

الفصل الثاني : جزئيات القصة القرآنية الواحدة بين التكرار وعدمه .

الفصل الثالث : الافادة في تكرار القصة القرآنية .

الباب الثالث : ملامح القصة القرآنية :

الفصل الأول : عنصر التشويق .

الفصل الثاني : رسم الشخصية القرآنية وحيويتها .

الفصل الثالث : أحداث القصة القرآنية من حيث ترابطها وواقعيتها .

الفصل الرابع : ما تهدف اليه القصة من قيم ومعالجة انسانية .

الباب الرابع : من روائع التصوير في القصص القرآني :

الفصل الأول : التناسق الفني .

الفصل الثاني : الاصابة في نقل العواطف .

الفصل الثالث : قوة الاحكام والربط .

ومع جهدي التواصل الذي قد أعانني الله عليه ، ومحاولتي تتبـــــع أحداث القصة ، والوقوف على ما حولها من جوانب فنية ، محاولا أن أربط ذلك ببعض المدارس النقدية الحديثة ، مما لم أسبق به - في زعمي ، والله أعـــلم - والعمل على ضرب الأمثلة المتعددة في كثير من جزئيات القصة التي يربطها رباط واحد ، لكي يكون الحكم على القصة حكما عاما .

وكنت آتي كثيرا بالمقدمات والبراهين التي توصلني الى النتائج الحتمية حتى يحس القارئ لها بأنها أمور بدهية لا تحتمل وهما ولا غلطا .

وحاولت ما استطعت أن لا أهـتم بجانب دون جانب .

ومن ثمّ تناول بحثي الشكل والمضمون بما ينطوي تحتهما من مدلولات وملامح كثيرة .

مع جهدي هذا ، الا أنني لا أنكر ما قدمه لي بعض من سبقوني فـــي هذا الفن القصصي من أمثال الدكتور محمد أحمد خلف الله ، والشهيـــد سيد قطب ، فلقد فتحوا لي الطريق ، ومهدوا لي السبيل ، ويسروا لي بعـض الوعر من الطرق ، حتى أضفت الى أفكارهم طرائف عديدة .

وأحيانا كنت أناقش رأي من سبقني في نقاش جدّي بنّاء ، حبا فـــي الوصول الى الحقيقة ، وذلك كمناقشتي لرأي الامام محمد عبده - رحمه اللـــه - حيث زعم بأن القصص جاءت في القرآن لأجل العظة والاعتبار لا لبيان التاريـــخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين ، وانه ليحكى مـــن عقائدهم الحق والباطل .

وقد وافقته في قضية العظة والاعتبار ، وانه يحكي من عقائدهم الصـادق والكاذب ، والنافع والضار ، ولكني لم أوافقه في قضية عدم الحمل على الاعتقـــاد

وكيف ذاك ، والمولى عز وجل يقول ((ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديـــق الذى بين يديـــه)) ؟!!

فما دامت القصة حقا ، وليس فيها افتراء ، فلزاما علينا أن نعتقـــد ونصدق كل جزئية من جزئياتها .

وما من قضية بلاغية أثارها غيرى من الباحثين ، ولها صلة بالاعجـــاز القرآني الذى يرتبط بالقصة القرآنية ارتباطا وثيقا ، الا حاولت ما استطعت أن أناقشها ، مهديا ما أراه من رأى صائب ، وان كان ذاك على حساب مخالفـــة رأى الآخريـــن .

وهكذا كانت قراءتي لمن كتب في القصة القرآنية مع افادتها لي أحيانـــا الاّ أنني لم أقف عندها جامدا ، فقد أناقش بعض قضاياها ، وأحلل كثيرا مـــن جوانبها ، ولربما أنني أصل الى شيء قد لا يتفق مع فكر من سبقوني في هـــذا الجانب ، ومع هذا فلربما انني قد تطرقت لبعض الجوانب الفنية في القصـــة ما لم يطرقه أحد قبلي حسبما أزعم ـ والله أعلم .

وأنا لا أنكر أن كتاب الأستاذ عبد الوهاب النجار ـ رحمه اللـــه ـ " قصص الأنبياء " ، كان رافدة هامة من الروافد التي غذّتني في هذا البحث ، لا أقول من الناحية الفنية ، وانما من الناحية الموضوعية ، حيث انه يطرح علينـــا في كتابه القصة القرآنية في كثير من أطرافها ومعالمها عرضا شيقا جذابا ، حـــتى تنكشف حقيقتها ، وتظهر أسرارها .

بعـــد : واني لا يسعني الا أن أشكر كل من أسهموا في عوني لاتمـــام هذا البحث المتواضع .

وأخصّ بالشكر والعرفان ، الأستاذ الدكتور عبد الفتاح السيد محمد الدماصي - الذى لم يضن عليّ في أى توجيه أو استفسار ، والذى قام بدوره بأمانة واخـــلاص بفساحة صدر ، وتشجيع بالغ ، فكان مشعل هداية ينير لي دياجي ما أشـــــكل عـــليّ .

بعد ، فهذا عمل متواضع ، وأنا على بداية الطريق ، أسأل اللـــــه عز وجل ، أن يجعله فاتحة خير ، وانطلاقة نحو العلم النافع ، والخير العميم ، وأن يجعلني دائما ممن يتبصرون القرآن ، ويقفون على شيء من اعجـــــــاره ، والله الموفـق والهـادى الى ســـواء السبيـــل .

تمهيد

تمهيـــــــــد

حينما أتحدث عن الجانب الفني ، يكون حديثي منصبا على كثير مـــن الجوانب الفنية التي كان مبعثها الابداع لما فيها من روعة أخّاذة ، ومواصفـات لم تكن على مثال سابق .

ومن ثّم يلوح لي أن أوضح قضية الابداع التي انجلت بها الجوانـــب الفنية في القصة القرآنية .

فاذا تعقبنا هذا المعنى في القرآن والسنة وكتب اللغة وكتب الـــتراث وجدنا هذا المعنى يعطينا كثيرا من الملامح التي تفيدنا فيما أردناه مـــن الابداع الفني في القصة القرآنيـــة .

فالقرآن الكريم قد تحدث عن مادة الابداع في أكثر من آيـــة ، ففي سورة الأنعام قوله تعالى ((بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم))(١) ، ومعناه مبدعهما على غير مثال سابق .(٢)

وفي سورة الأحقاف ((قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم ان أتبع الا ما يوحى اليّ وما أنا الا نذير مبين))(٣) .

ومدلولها كما ذهب اليه كثير من المفسرين : " ما أنا بأول رسول ، وقد بعـــث الله قبلي كثيرا من الرسل "(٤) ، فمعنى هذا أن كلمة بدع تفيد المثال الـــذى

---

(١) سورة الأنعام - آية : ١٠١ .
(٢) فتح القدير للشوكاني - الجزء الثاني - ١٤٧ .
(٣) سورة الأحقـــاف - آية : ٩ .
(٤) راجع فتح القدير - الجزء الخامس : ١٥ .

لا يوجد على نمط سابق فهو مثال فريـــد .

وفي سورة الحديد يقول تعالى ((ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم))(١)

أي مبتدعة من عند أنفسهم ، فالعبارة تفيد اختراع الحدث ، لا على مثـــال ســـــابق .(٢)

ومن أمثلة ورود هذه المادة في السنة (تهامة كبديع العسل ، حلـو أوله حلو آخره) ـ شبه تهامة ببديع العسل لطيب هوائها ، وانه لا يتغـــير كما أن العسل لا يتغير ، وهنا نلمس معنى جديدا لكلمة بديع ، وهي الحسن والصفاء والحلاوة والجمال ، كبديع العسل ، وذلك لاستقرار هواء هذه المنطقة فليست بذات حر مفرط ولا قر مؤذ ، بل كلها حلاوة واعتدال .

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قيام رمضان (نعمـــت البدعة هذه) لأنها من أفعال الخير ، لأن فيها صفاء روحي ، وصلة وجدانية بالاله الواحد الأحد ، وخير وجمال ، فهي نعم البدعة .

وأفاد ابن الأثير أنها لا على مثال سابق حيث يقول : ومن أسماء الله تعالى " البديع " ، وهو الخالق المخترع ، لا عن مثال سابق ، فعيل بمعـــنى مفعل أي بديع فهو مبـــدع .(٣)

---

(١) سورة الحديد ـ آية : ٢٧ .

(٢) فتح القدير ـ الجزء الخامس ـ ١٧٨ ، والجلالين : ٢٩٣ .

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ـ الجزء الأول ـ ١٠٦ ـ ١٠٧ هذا وكلمة الابداع وان كانت قد جاءت بمعنى الجمال والحسن ، الا أنه قد ورد لها معنى ثالث مضاد للمعنى الثاني ، وهو وان لم يكن مقصود لنا هنا ، ولكنا نستشف من هذا المعنى معنى وجدانيا جماليا .
جاء في الأثر : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : " اني قد أبدع بي فاحملني " ، أي انقطع بي لكلال راحلتي .
النهاية لابن الأثير ـ ١٠٦ ـ ١٠٧ ==

ومن ورود هذه الكلمة في كتب المعاجم ما ذكره ابن منظور في اللسان :

" بدع الشيء يبدعه بدعا ، وابتدعه أنشأه وبدأه " .

والبديع والبدع الشيء الذى يكون أولا (١) .

وفلان بدع - بكسر أوله مع سكون الثاني - بدع في هذا الأمر أى أول لم يسبقه اليه أحد ، والبديع المحدث العجيب .

((بديع السموات والأرض)) أى خالقها ومبدعها ، فهو سبحانه الخالق المخترع لا عن مثال سابق .

ورجل بدع ، وامرأة بدعة اذا كان غاية في كل شيء ، عالما ، أو شريفا ، أو شجاعا (٢) .

والابداع عند الفلاسفة ايجاد الشيء من عدم فهو أخص من الخلق (٣) .

فاذا انتقلنا الى الأدباء والنقاد لنتعرف على ما قالوه حول هذا المعنى وما يحمله لديهم من تعبير ، وهل هو مستعمل في بيئتهم أم لا ؟ نجد كاتبا أديبا مثل عبد الحميد الكاتب يورد هذه العبارة في احدى رسائله

= وهنا نلمس الجمال الذى ألبس ثوب القبح في اشتداد الراحلة ونشاطها في السير حتى كلّت ، وأن الترث مطلوب في كل شيء ، وأن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى .
فهنا صورة ونموذج حي في تمثل معنى الاناءه والصبر وعدم الاستعجال في كل الأمور .

---

(١) لسان العرب - الجزء التاسع .
(٢) القاموس المحيط - الجزء الثالث .
(٣) المعجم الوسيط - الجزء الأول .

فيقول : " الحمد لله العلي مكانه ، المنير برهانه ، العزيز سلطانه ، الثابتة كلماته ، الشافية آياته ... الى أن يقول : "وقدّرها بحكمة على ما يشاء من عزمه ، مبتدعا لها بانشاء اياها ".(١)

وهو يقصد بالابداع الانشاء والابتكار على غير ما مثال سابق .

وأما الخطيب القزويني فيعرف البديع " بأنه علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة ".(٢)

وابن خلدون يعرف البديع " بأنه النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع التنميق ".(٣)

ومن كلاميهما ما يفيد أنه يرتبط بالحسن والجمال .

ومن كلام النقاد المحدثين ما يفيد أن هذه الكلمة وما يدور حولها تحمل معنى الحسن والاختراع .

يقول الدكتور أحمد بدوى(٤) ، وهو يتحدث عن الابداع : " وهو أن يأتي الشاعر بالمعنى المعروف ، ولكن في أسلوب جديد ، وعبارة لم يسبق اليها ، ويضرب الأمثلة لهذا بقول بشار بن برد : قال بشار :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة ∴ والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا : بمن لا ترى تهذى فقلت لهم ∴ الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

ومما تقدم يستبين لنا أن مادتها تدور حول الحسن والاختراع والجمال الذى لا يكون على مثال سابق .

---

(١) علم البديع - د . عبد الرازق أبو زيد : ١٣ - ١٥ ط ١٩٧٧ م .
(٢) الايضاح - للخطيب القزويني : ٢٤٣ ط ثانية .
(٣) المقدمة لابن خلدون : ٥٥١ ط . الرابعة ١٣٩٨/١٩٧٨م - بيروت .
(٤) أسس النقد الأدبي عند العرب - د . أحمد بدوى : ٣٨٣ طبعة دار نهضة مصر .

أما عن المعنى الذى قد يفهم من كلمة الفن الذى تحوم حوله رسالتنا ، فنجد كتب المعاجم تقول : الفـــنّ - بفتح الأول وتشديد ثانيه - واحـــــد الفنون وهي الأنواع .

والرجل يفـنّن الكلام - بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد الثالث المكسور - أى يشتـق في فن بعد فـــن .(١)

ورجل مفن - بكسر الأول وفتح الثاني - يأتي بالعجائب .

وافتن الرجل - بفتح الأول وسكون الثاني وفتح الثالث وتشديد رابعه - أخـــذ في فنون من القول .

زاد صاحب القاموس : والفنّ الكلام المشـــج .(٢)

زاد صاحب المعجم الوسيط : فيعرف الفن بأنه التطبيق للنظريات العلميـــــة بالوسائل التي تحققها ويكتسب بالدراسة ، وجملة القواعد الخاصة بحرفـــــة أو صناعـــــة .(٣)

وجملة الوسائل التي يستعملها الانسان لاثارة المشاعر والعواطـــــف بخاصة عاطفة الجمال كالتصوير والموسيقى والشعر ، ومهارة يحكمها الـــــذوق والموهبة ، والجمع فنون ، والفنان صاحب الموهبة الفنيـــة .

---

(١) لسان العرب - الجزء السابع عشـــر .
(٢) القاموس المحيط - الجزء الرابـــــع .
(٣) المعجم الوسيط - الجزء الثانـــــي .

فاذا ما أردنا أن نعرف ما جاء في تعريفات الأدباء لهذه المادة نجده كله يدور حول الجمال ، والدقة ، وحسن العرض والأداء ، يقول الدكتور محمود ذهني (١) :

" فعملية الابداع الفني تأتي في المرحلة الأولى ، ذلك أن الانسان خلق فنانا ، فمنذ وجوده الأول اتجه الى مصادر الجمال يتخذ منها عونا على راحته ونشوته الوقتية ، فنشأت الفنون المختلفة في المجتمعات البدائية ، وقامت بدورها خير قيام ، اذ سرعان ما استطاعت أن تحول هذا الانسان البدائي الى انسان راق متحضر " .

أما الدكتور ماهر كامل (٢) فيقول : " ولعل مما يوضح الصلة التي تربط كلا من الفن والجمال ، ذلك التمثيل الذى يذكره الأستاذ جود عند محاولته تفسير الصلة بين الناحية الذاتية ، والناحية الموضوعية في الجمال لقد شبه ذلك الفيلسوف الفن " بالنافذة التي يمكن أن نطل منها على حقيقة الجمال " .

وهكذا نجد الفن يحمل أحد شقي التعريف الذى يحمله معنى الابداع وهو الجمال والحسن والطهر والنقاء ، كما يقول الأستاذ جود : " هو النافذة التي يمكن أن نطل منها على حقيقة الجمال " .

---

(١) تذوق الأدب ـ د . محمود ذهني : ٢٠٩ ـ طبعة مكتبة الأنجلو المصرية .

(٢) الجمال والفن ـ د . ماهر كامل : ١٩ ـ طبعة دار الطباعة الحديثة بمصر ١٩٥٧ م .

ولعله من كل ما تقدم يمكن أن نقول بأننا قد وضعنا أصابعنا على شيء ملموس من ناحية الابداع والفن ، فاذا أدركنا ما يدور حول هذا المعنى سهل علينا بعد ذلك أن ندرك المعنى الذى سوف نتحدث عنه موضوعا لرسالتنا وهو الجمال القصصي القرآني ، وبلوغه الغاية في التعبير وسمو الألفاظ ودقة التراكيب ، ومجيء هذا الأسلوب على غير مثال سابق ، الا أننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن التفسير السابق لمعنى الابداع الفني ، وما يدور حول المادة انما هو تفسير قصد به المقارنة بين أمرين حسيين يقعان في عالم المادة البشرى .

أما موضوع بحثي ، وهو الذى يدور حول الابداع الفني ، فما أقصد به المقارنة بين شيئين ، وانما أرمي من وراء ذلك الى أن القصص القرآني وصل الى قمة الابداع الذى لا ابداع بعده ، وقمة الحسن الذى يتضاءل أمامه كل شيء حادث في الحياة ، فهو لا يقارن بغيره ، ولا يوصف بشيء من باب المقارنة أمام أى انتاج بشرى ، فهو ابداع السمو ، وجمال علوى ، ومعجزة لا يقدر عليها بشر ، فضلا عن أن يحاكيه أى فنان عرف في عالمه المادى بالمبدع والمتقن ، فشتان بين كلام الخالق والمخلوق .

فالأول فيه الابداع المطلق ، والفن القدسي ، والعظمة الالهية .

والثاني مهما سما في عقول البشر فهو ابداع مفتعل ، وجمال نسبي يتلاشى أمام الجمال العلوى ، والتعبير القرآني الرباني .

البَابُ الأول

الباب الأول

مقاصد القرآن

الفصل الأول :

العقيدة ، والتشريع ، وما يتعلق بهما .

الفصل الثاني :

التأسي والاعتبار .

الفصـــــل الأول

العقيدة والتشريع ، وما يتعـــــلق بهمـــا

تناول القرآن الكريم موضوعات عديدة ، وطرق أكثر من جانب بدقـــــة عرض واعجاز واضح ، فمن جوانبه جانب العقيدة والتشريع ، والوعد والوعيـــد ، ووصف أحوال المؤمنين والكافرين يوم القيامة ، والى هذه الجوانب أتحفنـــــا القرآن الكريم بكثير من القصص القرآنية التي تحمل العظة والاعتبار ، فمن المعلوم أن الدين الاسلامي عقيدة وعمل ،

عقيدة : تتضمن الايمان بالله ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

وعمل : وهو تنفيذ شرع الله الحكيم .

ومن لا ايمان عنده ، ولا عقيدة ، تترجح بين جوانبه ، يضيع عمله هباءً منثورا ، ((والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب))(١) .

فالعقيدة والعمل يلتزم بهما المؤمن حتى يجني الثمرة المرجـــــــوة والجزاء الأوفى عند الحق عز وجل .

ومن ثمّ نرى كثيرا من آيات القرآن الكريم تدعونا الى التمسك بالجانبين معـــــا جانب العقيدة ، وجانب العمل .

جانب العقيدة وهو المحور الأساسي الذى تنبني عليه الشرائـــــــع

---

(١) ســورة النــور - آية : ٣٩ .

الاسلامية ، وفي ذلك يقول الحق عز وجل ((آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله))(١) .

ويقول المولى عز وجل ((شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم))(٢) .

ويقول عز من قائل ((ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل))(٣) .

ولكي تثبت العقيدة في نفوس البشرية ، دعاهم الله عز وجل الى النظر والتفكير حتى عد ذلك من جوهر العبادة(٤) .

قال تعالى ((قل انظروا ماذا في السموات والأرض))(٥) .

وقال تعالى ((وفي أنفسكم أفلا تبصرون * وفي السماء رزقكم وما توعدون))(٦) .

فالقرآن الكريم دعانا الى أن نفكر بعقولنا حتى نستلهم عظمة الخالق فتشتعل جذوة العقيدة في القلوب .

ومن ثم نعى القرآن الكريم كل من عطّل نعمة العقل حتى هبط بمستواه الفكري الى الحضيض ، قال تعالى ((ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس

---

(١) سورة البقرة - آية : ٢٨٥ .

(٢) سورة آل عمران - آية : ١٨ .

(٣) سورة الأنعام - آية : ١٠٢ .

(٤) راجع كتاب " اسلامنا " للسيد سابق : ١٧ طبعة بيروت .

(٥) سورة يونس - آية : ١٠١ .

(٦) سورة الذاريات - آية : ٢١ - ٢٢

لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون (١))) .

فالقرآن الكريم يدعو دائما الى النظر في المجالات الكونية ، والتفكير في مخلوقات الله ، حتى ينجلي الصدأ من النفوس ، فترسخ العقيدة الالهية وتضيء الخواطر .

وفي جانب الحث على التمسك بالتشريع الاسلامي ، والأخذ بالمنهج الرباني يقول الله سبحانه ((فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم (٢))) .

ويقول تعالى ((وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ، فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وان كثيرا من الناس لفاسقون (٣))) .

ويقول ((من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا (٤))) .

ويقول ((ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا (٥))) .

الى غير ذلك من الآيات التي تدعو المسلمين الى التمسك بالعقيدة والسير بأسلوب الاسلام ، واتباع شريعة محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة

---

(١) سورة الأعراف - آية : ١٧٩ .
(٢) سورة النساء - آية : ٦٥ .
(٣) سورة المائدة - آية : ٤٩ .
(٤) سورة النساء - آية : ٨٠ .
(٥) سورة النساء - آية : ٦٩ .

والسلام ((ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين))(١) .

فالقرآن الكريم في كثير من آياته يسن لنا التشريعات الصالحة لكل زمان ومكان .

هذه التشريعات التي أشادت بها جميع الأمم والشعوب ، واعترفت بقيمتها وحيويتها وضرورتها ، حيث انها قامت أساسا على رعاية مصالح جميع الأفراد ، فأساسها المصلحة العامة والعدالة المطلقة(٢) .

أما عن الوعد والوعيد ، فكثيرا ما نرى الآيات القرآنية وهي تجعل جزاء وفاقا لمن تمسك بدينه ، وسار على نهج شريعة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

((ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا))(٣) .

((وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون))(٤) .

((فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره))(٥) .

---

(١) سورة الجاثية - آية : ١٨ - ١٩ .
(٢) راجع كتاب " نظرات اسلامية " د . محمد معروف الدواليبي : ٢٦ - ٢٧ طبعة بيروت .
(٣) سورة النساء - آية : ١٢٤ .
(٤) سورة البقرة - آية : ٢٥ .
(٥) سورة الزلزلة - آية : ٧ - ٨ .

أما عن الوعيد الذى أعده الله لمن عصى وخالف وغلبه الشيطان واتبع هواه ، فكثيرا ما نرى الآيات القرآنية التي تنذر هؤلاء المعاندين بالنهاية الوخيمة ، ((يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقي وسعيد * فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد * وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ))(١) .

((ان الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار * كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذّبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب))(٢) .

وكثيرا ما نرى القرآن الكريم يعرض علينا في آياته الحكيمة صورا من مشاهد يوم القيامة ، وهي تصور حال المؤمنين ، وحال الكافرين ، بل وحال المنافقين والعصاة .

ومن ذلك النوع الأول ، قوله تعالى ((ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، قالوا نعم فأذّن مؤذّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين * الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون * وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون * واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع

---

(١) سورة هود - آية : ١٠٥ - ١٠٨ .

(٢) سورة آل عمران - آية : ١٠ - ١١ .

القوم الظالمين * ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون * أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون * ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا ان الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون))(١) .

أما المثال الثاني ((يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم * يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور * فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير))(٢) .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم يصور كثيرا من مشاهد يوم القيامة التي تتجلى فيها صورة المؤمن ، والكافر ، والمنافق ، والعاصي .

فالمؤمن في متعته الخالدة الباقية ، والكافر في شقائه المستمر ، والعاصي بين هذا وذاك .

---

(١) سورة الأعراف - آية : ٤٤ - ٥١ .

(٢) سورة الحديد - آية : ١٢ - ١٥ .

فالقرآن يبشر المؤمنين بالجنة ، وينذر الكافرين بيوم العقاب والحسرة ((وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون)) (١) .

وكما يعلق بعض الباحثين (٢) على هذه الآية : لقد أمر الله نبيه أن ينذر الكافرين بيوم الحسرة ويخوفهم منه اذ قضي الأمر بفناء الدنيا ، وزوال التكليف ، وقد ظهرت لهم الحجج وهم في غفلة منها وهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر .

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى ((اذ قضي الأمر)) فقال : حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح ، فيذبح والفريقان ينظران فيزداد أهل الجنة فرحا على فرح ، وأهل النار غمّا على غمّ ، وهم في غفلة من ذلك " اليوم ((وهم لا يؤمنون)) بذلك اليوم .

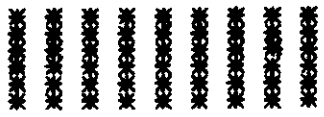

---

(١) سورة مريم - آية : ٣٩ .

(٢) راجع كتاب " مع الايمان في رحاب القرآن " د . محمد محمد خليفة : ٤٥٧ الطبعة الأولى - مطبعة النهضة المصرية .

الفصل الثاني

التأسي والاعتبار

ورحمة بعباد الله عز وجل كان القرآن الكريم ، لكي يحمل الناس على أن يتمسكوا بدينهم ، ويستجيبوا لنداء ربهم ، ويصدقوا ما جاء به الوحي ، ضرب لهم الكثير من الأمثلة القصصية القرآنية ، حتى يعتبر المعتبرون ، ويتأسى المتأسون ، ففي ضرب الأمثلة بالأحداث الماضية ما يحمل الانسان على التأمل الثاقب ، والرجوع الى الوراء ، ومن ثم يختار لنفسه الطريق الأمثل ، حتى لا يقع فيما وقع فيه غيره ممن عطلوا نعمة العقل ، وأغفلوا الطريق الموصل الى الهداية والرشاد .

لقد كان القصّ القرآني مصباحا مضيئا ، كثيرا ما يوجه البشرية ، ويهدد حيرتهم ، ويهديهم الى الطريق المستقيم ، وكما سنتحدث في الفصل الرابع من الباب الثالث ، من أن القصّ القرآني ، كان يهدف الى معالجات انسانية ، وغرس القيم الأصيلة في النفوس .

وأحب أن أشير الى أن هذا القصّ القرآني قد تعددت جوانبه ، واختلفت أحداثه .

فهناك قصّ يحدد علاقة الأنبياء والرسل بأممهم ((ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك))(١) .

وهناك قصّ قرآني كان الغرض منه أساسا بيان حال أهل الصلاح وأهل الفساد .

---

(١) سورة غافر - آية : ٧٨ .

وهناك قصّ قرآني سيطرت عليه تصوير النوازع الانسانية الى غـــير ذلك من ألوان القصّ القرآني الطريفة المثيرة .

أما عن النوع الأول ، وهو الكثرة الغالبة في القرآن الكريـــــــــم ، فكثيرا ما رأينا القرآن الكريم يعرض علينا هذا اللون بأسلوب قصصي جذاب ، كما سيتبين ذلك في الفصول التالية .

فأنبياء الله ورسله لا نحصيهم عدّا ، ولا نعرف أسماؤهم على الحقيقـــة اللهم الا ما تحدث عنهم القرآن الكريم مبينا موقفهم مع أممهم ، وما لاقوه مـــن عنت وجهد في سبيل نشر الدعوة الالهية .

وقد نلمح في تلك القصص ما حبا الله به هؤلاء الأنبياء من نعـــــم وفضل ، وما أسدى عليهم من نصر وتأييد ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فالقرآن الكريم طالعنا بقصة نبي الله نوح ، وصالح ، وهود، وشعيب ، ولوط ، وأبو الأنبياء ابراهيم ، واسماعيل ، واسحاق ، ويعقوب ، ويوســـف ، واخوته ، وموسى ، وعيسى ، وأيوب ، وداود ، وسليمان ، وكثيرا ما نـــــرى السورة القرآنية وهي تذخر بأحداث هؤلاء الأنبياء مع أممهم من مثل سورة الأعراف وهود، ففي سورة الأعراف بدأ الله سبحانه بذكر قصة نوح من الآية (٥٩) ، ثم هود من الآية (٦٥) ، ثم صالح من الآية (٧٣) ، ولوط من الآية (٨٠) ، وقصة شعيب من الآية (٨٥) ، وموسى مع فرعون من الآية (١٠٣) .

وفي سورة هود بدأ الله بقصة نوح من الآية (٢٥ - ٤٩) ، ثم ذكـــر هود (٥٠ - ٦٠) ، فصالح من الآية (٦١ - ٦٨) ، ثم ذكر ابراهـــــيم ولوط من الآية (٦٩ - ٨٣) ، ثم شعيب من الآية (٨٤ - ٩٥) ، ثم ذكـــر

موسى من (٩٦ - ٩٩) .

أما عن سورة القصص فلقد أطنبت في ذكر قصة موسى عليه السلام فتتبعت أحداثه من يوم مولده ، وفي نهاية السورة ذكرت قصة قارون الذى كان من قوم موسى .

أما عن سورة مريم مع أنها استرسلت في الحديث عن قصة مريم من الآية (١٦ - ٣٥) ، فقد تعرضت لقصة ابراهيم من الآية (٤١ - ٥٠) ، ثم أشارت اشارات خاطفة الى قصص موسى ، واسماعيل ، وادريس .

أما عن سورة طه فلقد كان لها استقلال بقصة موسى من مطلع السورة حتى الآية (٩٨) ، ثم ذكر من الآية (١١٥) قصة آدم حتى الآية (١٢٣)

وهكذا نرى أن القرآن الكريم أعطى اهتماما بالغا في سرد أحداث الأمم الغابرة مع الأنبياء والمرسلين .

أما عن النوع الثاني وهو ما كان الغرض منه ضرب أمثلة لبيان حال أهل الصلاح وأهل الفساد ، فمن ذلك قصة أهل الكهف التي تكشف عن هؤلاء الفتية الذين فروا من الظلم الى البارىء عز وجل ، طالبين لهم الرحمة ، وأن يهيء لهم سبيل الرشاد والفلاح ، وكما يقول الله سبحانه في سورة الكهف من الآية (١٠) ((اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا))(١) .

ومن الأمثلة التي تصور حال أهل الفساد ما ورد في تلك السورة من قول الله عز وجل ((واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب

---

(١) سورة الكهف - آية : ١٠ .

وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا * كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا * وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا * ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا * وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا ..... وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا ، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا))(١) .

وكذا في سورة القلم ، قال تعالى ((انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين * ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم * .... فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون * قالوا يا ويلنا ان كنا طاغين * عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها انا الى ربنا راغبون * كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون))(٢) .

وكذا قصة سبأ ، قال تعالى ((لقد كان لسبا في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور * فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور))(٣) .

فهذه القصص تصور لنا حال أهل الفساد .

---

(١) سورة الكهف - آية : ٣٢ - ٤٣ .

(٢) سورة القلم - آية : ١٧ - ٣٣ .

(٣) سورة سبأ - آية : ١٥ - ١٧ .

أما عن النوع الثالث وهو ما كان الغرض منه تصوير النوازع الانسانيـــة . فيتجلى ذلك في قصة أبي البشرية آدم عليه السلام ، الذى يصور لنا ضعف البشر الذى هو عرضة للنسيان ، ومن الممكن أن يأتي بأمور لا تتفق مع اجلال اللـــه سبحانه حيث أن آدم نسي وصية ربه حتى أكل من الشجرة التي نهي عـــن الأكـــل منهـا .

ومن ذلك قصة يوسف عليه السلام مع اخوته ، فهي تصور لنا الطبـــع البشرى الذى قد توجد فيه لمسات الحقد ، وحب التشفي ، والانتقام ، والمكـر والخديعة ، كما تصور لنا نوازع المرأة الشيطانية التي كثيرا ما تنزلق في المهالك والشهوات ، وتستجيب لدواعي الهوى .

كما تعرب لنا قصة ابني آدم بالحق، عما جبل عليه ابن آدم من حب البطـــش والانتقام ، وسفك الدماء ، حيث وقعت منه جريمة القتل ، وكما يقول الحق عز وجل ((واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك ، قال انما يتقبل اللـــه من المتقين * لئن بسطـــت الىّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك ، اني أخاف اللـــــه رب العالمين * اني أريد أن تبوأ باثمي واثمك فتكون من أصحاب النـــــار وذلك جزاء الظالمين * فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين (١))).

---

(١) سورة المائدة - آية : ٢٧ - ٣٠

وهكذا نلمح أن القصص القرآني قد تعددت جوانبه ، واختلفت مراميه .

وعلى هذا فهو كالعقد المنتظم ، يكمل بعضه بعضا في تقويم الانسان وتهذيبه ، وخير سبيل للتأسي والاعتبار .

وفي الحقيقة ، لن تتجلى هذه الحقائق كاملة بما حولها من أسرار معنوية ، وغايات نبيلة ، وأهداف فكرية ، الا بحديثي في الأبواب التالية ان شاء الله تعالى .

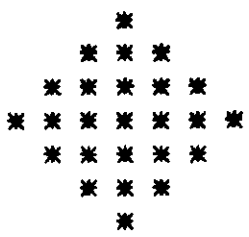

البَابُ الثانى

الباب الثاني

التكرار في القصة القرآنية

الفصل الأول :

القصة القرآنية بين التكرار وعدمه .

الفصل الثاني :

جزئيات القصة القرآنية الواحدة بين التكرار وعدمه .

الفصل الثالث :

الافادة في تكرار القصة القرآنية .

الفصـــل الأول

القصة القرآنية بين التكرار وعدمه

سبق أن قلنا في الفصل الثاني من الباب الأول أن القرآن الكريـــم لم يقص علينا أحداث جميع الأنبياء والرسل مع أممهم ، بل حكى لنا قصـــص البعض دون الآخر ، كما أفادت ذلك الآية الكريمة ((ورسلا قد قصصناهـــم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما))(١) .

وقوله ((ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك و منهم من لم نقصص عليك ، وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله ، فاذا جاء أمر اللـــه قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون))(٢) .

هذا ويلاحظ بأن هناك قصصا في القرآن قد كررت ، وقصصا لم تكرر ، ولعل سر عدم تكرار هذه القصص أنها سيقت لاخبار النبي صلى الله عليه وسلم بأمر يجهله ، وعلم النبي يثبت من أول وهلة فلا داعي للتكرار .

وهذه القصص اما أنها سيقت لاعلام النبي صلى الله عليه وسلم بما في الطبائع البشرية من حرص على الشر ، ومن هذا قصة يوسف عليه السلام مـــع اخوته ، وكيف رموه في الجب ، ونجاته منه ، والتحاقه بالعزيز ، ومراودة امـــرأة العزيز له ، ثم خروجه من السجن بعد تعبير الرؤيا وتوليه أمر الخزانـــة ، واجتماعه مع اخوته عن طريق المسيرة ، ثم بأهله أجمعين ، وفي هذا يتضح لنا

---

(١) سورة النساء - آية : ١٦٤ .

(٢) سورة غافر - آية : ٧٨ .

النوازع التي تراود بعض النفوس ، وما يمكن أن يؤدى اليه الحسد من نتائج وخيمة ، ثم انتصار الخير على الشر ، وأن للباطل صولة ثم يضمحل ((انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين))(١) .

ومن هذا الاخبار اخبار النبي صلى الله عليه وسلم بأن تمكين الله للانسان في الأرض يتطلب الأخذ بالأسباب ، فاذا أتى الله الانسان القوة على شيء فينبغي أن يستعين بالأسباب ، اضافة الى ما أتاه الله من قوة فعمل الأسباب أمر مطلوب لعمار الأرض ، فذو القرنين رجل مكّن الله له في الأرض بالملك وآتاه من كل شيء سببا ، أى أعطاه الأسباب التي تمكنه من أن يفعل ما يريد ، فماذا فعل ؟ لقد أضاف اليها أسبابا من عنده ، وهذا ينفي قضية التواكل والتكاسل عن العمل ، فاذا مكنني الله بأن أعطاني أرضا ، فيجب أن أضيف اليها بأن أزرع هذه الأرض لتنتج الثمار ، فاذا تركتها بورا فأنا لا أعمل بشريعة الله في الأرض .(٢)

---

(١) سورة يوسف - آية : ٩٠ .

نكتة : يروى أن يوسف عليه السلام لما قال ((رب السجن أحب الىّ)) ابتلي به ، والا لجعل الله له مخرجا غيره .

وأما مسألة ((وهمّ بها)) باعتباره بشر فان له شهوة وميل طبيعي الى النساء كان من شأنه أن يهم بها ((لولا أن رأى برهان ربه)) .

وانتفى همه بها لأنه رأى برهان ربه ، وهذه الآية فيها برهان على براءة يوسف ، كيف لا ، وهو الكريم بن الكريم بن الكريم .

(٢) معجزة القرآن الكريم - الشيخ محمد متولي الشعراوى : ٩٠ - الجزء الثاني .

وهكذا فان ذا القرنين حينما آتاه الله الملك لم يكتف بالجلوس على أريكته ، بل أتبع سببا بالذهاب الى المشرق والمغرب لبسط حكم الله فيهما . ((انا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا * فأتبع سببا))(١) . وحينما طلب منه أهل المغرب أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدا ، أراد أن يعلمهم الاعتماد على النفس مع الاستعانة بالأسباب الأخرى ، وقبل هذا الاستعانة بالله سبحانه ((قال ما مكنني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما))(٢) ، وهكذا فالقصة كلها عظات ودروس وأخبار يعلم الله بها نبيه وعباده المؤمنين .

وقد يكون الاخبار لاثبات قدرة الله عز وجل الذى يحيى الموتى ، والقادر على البعث والمعاد حتى تلوح عظمة الله في خلد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

من ذلك قصة ابراهيم مع النمرود حينما ألقه حجرا ، وأفحمه بالحجة ، ولكن النمرود أخذته العزة بالاثم ، فكابر وجادل بالباطل وقال : أنا أحيي من أشاء بالعفو عنه ، فينعم بالحياة بعد أن تمثل له شبح الموت ، وأنا كذلك أميت من أشاء بأمري وأقضي عليه بحكمي ، فسرعان ما تزهق روحه ، ويحرم حياته .

فأجابه ابراهيم أن الله سخر الشمس وجعل لها نظاما لا تحيد عنه فهو يأتي بها من المشرق ، فان كنت كما تدعي قديرا ، وكما زعمت الهيا ،

---

(١) سورة الكهف - آية : ٨٤ - ٨٥ .

(٢) سورة الكهف - آية : ٩٥ .

فغير هذا النظام الذى جرت به سنة الله ، واقتضته ارادته ، وأت بها من المغرب .

فبهت الذى كفر ، اذ بان ضلاله ، وظهر كذبه ، ووضح بهتانه (١) .

وهكذا اتضح من هذا بيان العظمة والقدرة الخارقة للمولى عز وجل في احياء الموتى ، والتصرف في ناموس الحياة ، وانه الاله المستحق للعبادة ، القادر على كل شيء .

((قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين)) (٢) .

ان النص القرآني السابق الذى يذكر صراحة ادعاء الملك للألوهية هو فتح علمي للقرآن ، ففي متحف أشمول بانجلترا أسماء الأسر التي حكمت بابل بعد الطوفان ، وقد جاء في الألواح التي حفظت وعثر عليها في الحفريات

---

(١) قصص القرآن - لمحمد أحمد جاد المولى : ٤٣ - طبعة بيروت ١٣٩٨ هـ .

" انما حاج ابراهيم النمرود وطالبه بتغيير مجرى الشمس بعد أن أحضر رجلين أحدهما يستحق القتل فعفى عنه ، فقال : أحييته والثاني لا يستحق فقتله ، فقال : أنه ، فذلك معنى الاحياء والاماتة ، في نظره ، من هنا لجأ الخليل الى الآيات الكونية ، فهذه الشمس تهدو كل يوم من المشرق ، فان كنت الها فأت بها من المغرب ، وفي هذا قدرة خارقة على عظمة الخالق ، وتحكمه في الأشياء وتسخيرها ، فلما علم النمرود عجزه وانقطاعه بهت ، والله لا يهدى القوم الظالمين " .

راجع : ابن كثير - المجلد الأول : ٣١٣ .

(٢) سورة البقرة - آية : ٢٥٨ .

هناك أن هؤلاء الملوك قد هبطوا من السماء على الأرض لحكمها بعد أن طهرها الله ، وعاقبها من الفساد ، فهم أرباب سماويون يحب عبادتهم على الرعايا ، ومعلوم أن ابراهيم عاش في أحد ملوك بابل .

ان هذا ولا ريب ، فتح علمي للقرآن ، اذ لم يكن معروفا في البيئة التي عاش فيها محمد صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرنا ، بأن ابراهيم عاش في بيئة يدعي ملوكها الألوهية ، وهذا دليل واضح على أن القرآن وحي الهي (١) .

والذى مر على قرية ، وهو نبي الله عزير ، كما يذكر ذلك المؤرخون " فقد مر على بيت المقدس بعد أن هدمها بختنصر ، فاذا هي خربة زاوية ، رسوم دارسة ، وأطلال عافية ، وعظام نخرة ، وأجساد بالية ، فأخذه العجب من اندثار معالم القرية !! فنزل عن حماره ، وألقى بالسلتين الى جواره ، وربط حماره ، وأسند ظهره الى جدار حتى يجمع نفسه ، ويسترجع قوته وفكره ، ثم طاب له المكان واستراح الى النسيم ، وأطلق العنان لعقله وفكره ، يفكر في هذه ، وكيف تنشر ؟ وتلك الأجساد وأنى تبعث ؟ بعد أن أصبحت أديما للأرض ، وترابا يجود عليها كل أسحم هطّال ، ثم استحال هذا التفكير الى سهوم ووجوم ، ثم أغمضت عيناه ، وتخاذلت ركبتاه ، ودخل في نوم مشتمل ، وكأنه لحق بمن في القبور (٢) .

---

(١) اليهود في القرآن ـ لعفيف عبد الفتاح طبارة : ١١٦ ـ ١١٧ الطبعة الثانية .

(٢) راجع : قصص القرآن ـ لمحمد أحمد جاد المولى : ١٨١ .

ومرت مائة عام ومرت خلالها أطفال ، وفنيت أعمار ، وأمحت شعوب وتقوضت صروح ، وعزير ملقى مكانه جسد بلا روح ، وعظامه ممزقة الأوصال حتى أراد الله عز وجل أن يفصل في أمره ، فجمع عظامه ، وسوى خلقه ، ونفخ فيه من روحه ، فاذا هو قائم مكتمل الخلق ، وراح يفتش عن حماره ، وجاءه الملك يسأله كم لبثت يا عزير ، قال : لبثت يوما أو بعض يوم ، قال : بل لبثت مائة عام " .

وفي هذا أعظم دليل على البعث والنشور والحياة من القبور ، ودليل خارق على قدرة الله عز وجل ((فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير))(١) .

والأخبار عن نهاية الظالم كما في يأجوج ومأجوج ، حينما عاثوا في الأرض الفساد ، وأخافوا العباد ، وقد كانوا قوما حمرا قصارا ، مساكنهم الأغوار أكثر معايشهم من السمك ، لأحدهما أذنان يفرش أحدهما ، ويلبس الأخرى(٢) .

وقد عاث هؤلاء الفساد ، وأثخنوا في الأرض ، وقد أراد الله سبحانه أن يضع حدا لفسادهم ، وأن ينصر من حولهم من المستضعفين ، فسخر لهم ذا القرنين الذي علمهم كيفية مجابهة الباطل بالتعاون على سحقه وأن المشاركة مطلوبة حتى تستمر الدفعة ، ويتم العمل نفسه ، فاذا اشتركوا تعلموا ، واذا تعلموا تقدموا ، واستطاعوا أن يحموا أنفسهم ، وأن يضيفوا الى ذاتيتهم أشياء لم تكن موجودة ، ونتيجة عملهم واجتهادهم استطاعوا اقامة

---

(١) سورة البقرة ـ آية : ٢٥٩ . عمرت بيت المقدس بعد موته بسبعين عاما .

(٢) راجع : ابن كثير ـ المجلد الثالث : ١٠٣ .

السد بينهم وبين هؤلاء الجبارين ، وبذلك دفعوا الظلم عن أنفسهم وتعلموا شيئا جديدا يحميهم .(١)

وهكذا كان في قصة هؤلاء دروسا تستفاد ، أن الظالم مهما استبد في ظلمه فان الله سبحانه سيكسر من شوكته ويبدده ، وأن الظلم له عاقبة وخيمة وأن المظلوم منصور بنصر الله له ، والذى يهيىء له أسباب النجاة ، وأن التعاون من أهم أسباب التغلب على الصعاب ، ثم اتساع ملكوت الله سبحانه .

وقصة موسى مع الرجل الصالح وفيها دليل باهر على مدى القدرة الخارقة التي تنم عن علم غزير يتمتع به هذا الرجل ، وأن العلم بحر لا يدرك مداه ، وأن الانسان مهما أوتي من العلم فانه يتقاصر أمام علم الله الذى وسع الأشياء ، وأن فوق كل ذى علم عليم .

فموسى حينما سئل : أى الناس أعلم ؟ قال : أنا ، فعتب الله عليه(٢) اذ لم يرد العلم اليه ، فأوحى الله اليه أن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : يا رب كيف لي به ؟ قال تأخذ حوتا فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم .(٣)

---

(١) معجزة القرآن للشيخ محمد متولي الشعراوى : ٩٨ .
يقول ابن الأثير : الصحيح أنهم نوع من الترك ، لهم شوكة ، وفيهم شر ، وهم كثيرون ، وكانوا يفسدون فيما يجاورهم من الأرض ويخربون ما قدروا عليه من البلاد ، ويؤذون من يقرب منهم " .
راجع : الكامل لابن الأثير ـ المجلد الأول : ١٦١ ـ مطبعة دار الكتاب العربي .

(٢) فتح القدير للشوكاني ـ الجزء الثالث : ٢٩٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ـ المجلد الثالث : ٩٢ .

((فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا * قال أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت . . . . قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا . . .)) (١) . وهكذا يتضح لنا بهذا الاخبار مدى اتساع علم الله الذى وسع الأشياء ، والنهي عن الاعتزاء دون رد أول الأشياء الى بارئها ، وأن موسى حينما استعمل في الحكم أخطأ ، فالنفس البشرية مهما أوتيت من الكمال ، فالنقص لازم لها ، وهذا لا ينافي مقام النبوة فالاجتهاد قابل للخطأ والصواب .

أما القصص التي كررت في القرآن حيث انها جاءت في أكثر من موضع فهي قصص بعض الأنبياء والمرسلين ، وموقفهم من أقوامهم حينما قاموا بنشر الدعوة و تبليغ رسالة السماء ، ولعل العلة الظاهرة في هذا التكرار هو تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته ، وحمله على أن يصبر على ايذاء قومه ، وكما يقول الحق عز وجل ((فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون)) (٢) .

---

(١) سورة الكهف - آية : ٦٢ - ٦٤ .
" اسم الرجل الصالح (الخضر) كما دلت عليه الآثار ، وموسى هو ابن عمران عليه السلام ، و فتاه يوشع بن نون عليه السلام " .
راجع : ابن كثير - المجلد الثالث : ٩٢ ، والكامل : ٩٠ .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ودد نا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما) .

(٢) سورة الأحقاف - آية : ٣٥ .

لقد صادف الرسول صلى الله عليه وسلم ألوانا من الأذى ، وكان له أعداؤه أعداء الدين ، وتربصوا به الدوائر ، فتارة يتهمونه بأنه ليس رسولا ، وتارة يتهمونه بأنه شاعر ، وتارة بأنه كاهن[1] ، وتارة يسبونه سبا عنيفا ، وتارة يقذفونه بالحجارة و يرمونه بالأوساخ والقاذورات ، وتارة يصدون عن دينه ، وتارة يسخرون منه ، ومن دينه ، وقد كان كل همهم القضاء عليه وعلى أصحابه فكان ذلك ردا تاريخيا على بعض دعاة القومية الذين زعموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم انما كان يحمل في رسالته آمال العرب وطامحهم حينذاك ، وهو زعم ترده وقائع التاريخ .

ولعل من أبرز ألوان الأذى التي تعرض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ما صادفه من زعماء المشركين في مكة ، يروى أن أبا جهل حمل حجرا يريد أن يشج به رأسه الشريفة ، فلما دنا منه وهو ساجد ، رجع منهزما منتقعا لونه مرعبا ، قد يبست يداه على حجره ، فقامت اليه رجالات قريش وسألوه ما بك يا أبا الحكم ؟ فقال : لا والله ما دنوت منه حتى رأيت فحلا[2] ما رأيت مثل هامته ، ولا مثل قصرته[3] ، ولا أنيابه ، فحل قط ،

---

(١) يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي : " قالوا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ساحر ، فاذا كان ساحرا فلماذا لم يسحركم أنتم حتى تتهموه ؟ ، ان المسحور لا يخضع للساحر بارادته ، ولا يأتي ليقول له سأصدق هذا السحر . . . وأكذب هذا السحر ! انما المسحور مسلوب الارادة أمام الساحر ، فكونكم تقولون انه ساحر وأنتم تؤمنون به دليل على أنكم كاذبون " .

راجع : معجزة القرآن : ١٢ الطبعة الأولى .

(٢) سيرة ابن هشام ـ الجزء الأول : ٣١٨ ـ مطبعة دار الفكر .

(٣) القصرة : أهل العنق .

وحينما خرج صلى الله عليه وسلم الى الطائف قابله أهلها بالأذى ، وردوا دعوته وأغروا به سفهاءهم[١] وصبيانهم حتى سال الدم من قدمه الشريفة وهو في كل هذا يقول : (اللهم ان لم يكن بك علي غضب فلا أبالي) .

ويوم الهجرة ليس بخاف علينا اجتماعهم في دار الندوة ، والذي صورته الآية الكريمة ((واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين))[٢] .

واذ قد وصل بهم الحال الى ما وصل اليه ، فما أحوج النبي صلى الله عليه وسلم في كل موقف من تلك المواقف الى تسليته ، وتقوية عزمه ، وتذكيره بالصبر على أذى قومه .

فان موسى صنع به قومه ما صنعوا ، وفرعون طغى وبغى عليه ، ومع ذلك صبر حتى ظفر ، ونوح عليه السلام صادف من قومه ما صادف حتى قال ((رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا * فلم يزدهم دعائي الا فرارا * واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا * ثم اني دعوتهم جهارا * ثم اني أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا * فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا))[٣] .

وحتى قالوا له ((يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين))[٤] .

---

(١) السيرة النبوية ـ للدكتور مصطفى السباعي : ٦٧ ـ الطبعة الأولى .
(٢) سورة الأنفال ـ آية : ٣٠ .
(٣) سورة نوح ـ آية : ٥ ـ ١٠ .
(٤) سورة هود ـ آية : ٣٢ .

وهود عانى ما عاناه من قومه حتى رموه بالسفه والجنون ، ومع ذلك لم يقنط في دعوته ، حتى قالوا له ((يا هود ما جئتنا ببينة و ما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء)) (١) .

و ثمود كفرت بصالح بعد أن جاءهم بالآية الدالة على صدقه ، وهي الناقة فعقروها وكذبوا نبي الله واستهزأوا به و بمن معه ، فجاءهم بالعذاب ذلك أن الله ينصر رسله ، و يحيق مكره على القوم الظالمين ((فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب)) (٢) .

ومثل ذلك لوط ، واستمروا ما هم فيه من ضلال وفساد ، أنهم كانوا قوم سوء فاسقين ، فأخذهم الله بعذاب بئيس ((فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد)) (٣) .

من هنا كان الموقف باستمرار فيه تذكير من الله عز وجل لنبيه بصنيع المعاندين مع الرسل ، حتى تهدأ نفسه ، ويطمئن فؤاده ، ويقوى على هذا العناد والشر الشديد .

ولذا فان المولى عز وجل لا يأتي بكوكبة من الأنبياء في سورة الا أشار الى أن المغزى من هذا هو التثبيت والمواساة حتى قال تعالى في سورة هود ((وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه

---

(١) سورة هود - آية : ٥٣ - ٥٤ .
(٢) سورة هود - آية : ٦٥ .
(٣) سورة هود - آية : ٨٢ - ٨٣ .

الحق و موعظة وذكرى للمؤمنين))[١] .

ولما كانت المكابرة من قومه ، والعناد من المشركين ، مستمرا طوال حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث ان استكبارهم لم ينقطع ، وعنادهم لم يسكن ، كان من لطف الله عز وجل أن ينزل الوحي من السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكرار أحداث الأنبياء مع قومهم ، وهذا يدوم الرسول على دعوته ، ويصبر على ما يصادفه ((فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا * واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا * ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا))[٢] .

فرق كبير بين قصة تحكي ليعلم الرسول أمرا كان يجهله ، ويدرك نبأ لم يخطر على باله ، حتى تتسع مداركه ، وتنمو معارفه ، ومن ثم يكون كاشفا لكثير من الطبائع البشرية ، والغرائز الانسانية ، والرغبات المكبوتة في بني آدم .

كما أنه يدرك مدى العظمة الخارقة ، والقدرة العلوية عندما يسمع قصصا تمثل هذا السلطان الالهي .

فرق كبير بين هذا الأمر الذى ما أحوج الرسول الى معرفته ، وهو قائد الأمة ، وموجه البشرية ، ومنير السبيل لهداية الناس ، فما أحوجه الى هذه المعاني التي تكشف له عن الحقائق الكونية ، والنفوس البشرية .

فرق كبير بين هذا الأمر الذى تكفي فيه اللمحة الخاطفة ، والقصة الواحدة ، حتى تستنير جوانبه فتتكامل مقارفه .

---

(١) سورة هود - آية : ١٢٠ .

(٢) سورة الانسان - آية : ٢٤ - ٢٦ .

فرق بين هذا ، وبين القصة التي تحكي ، لأن المقام يقتضي تكرارها والأحداث التي تحيط بالرسول تتناسب مع اعادتها ، فان الرسول عليه الصلاة والسلام في كل لحظة يحتاج الى رعاية الهية حيث ان قومه لم يسكتوا عنه برهة ، فالصراع دائم ، والحقد متحرك ، والخواطر تنبيء عن شر متدفق ، ونوايا خبيثة ، فكان تكرار القصص القرآنية مواساة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعزية له في كل موقف من المواقف ، وهذا عامل مهم يقوى نجاح الدعوة الاسلامية ، حتى تنهض خفّاقة ، وهي تحقق مأربها السامي ، وغاياتها الطيبة .

ومن الممكن أن يكون هذا التكرار مبعثه التذكر والوصول الى العظة البالغة كما يفهم من قول الحق ((ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون)) ((وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا)) .

هذا وقد كانت العرب تحب التكرار في الكلام ، يقول الباقلاني : ومن البديع عندهم التكرار ، كقول الشاعر :

هلا سألت جموع كندة .·. يوم ولوا أين أينا (١) ؟

وهذا التكرار في القصة القرآنية ليس تكرارا مطلقا ، وانما هو تكرار نسبي ، بمعنى أن الغرض الديني هو الذى يملي اعادة القصة ، ولكنها في هذه الاعادة تلبس أسلوبا جديدا ، وتخرج اخراجا جديدا ، يناسب السياق الذى وردت فيه ، وتهدف الى هدف خاص لم يذكر في مكان آخر ، حتى لكأننا أمام قصة جديدة لم نسمع بها من قبل "(٢) .

---

(١) اعجاز القرآن للباقلاني : ١٠٦ ـ الطبعة الثالثة .

(٢) التعبير الفني في القرآن ـ د . بكرى شيخ أمين : ٢٢٠ ـ الطبعة الثالثة .

كما سنشير الى ذلك تفصيليا في الفصل الثالث من هذا البـــــاب ـ ان شاء الله تعالى ـ كما ينبغي أن ننبه الى أن التكرار في القرآن ليس قاصرا على القصة ، بل نجد القرآن الكريم يميل الى التكرار في أسلوبه ، كما فـــــي قوله تعالى ((فان مع العسر يسرا * ان مع العسر يسرا)) (١) .

وكالتكرار في قوله تعالى ((قل يا أيها الكافرون)) (٢) .

ثم انك تجد في هذا التكرار ما فيه من تساوق النغم ، وتجـــــاوب الكلمات ، وتآخي الحروف ، فلا خلخلة ، ولا اضطراب ، ولا ثقـل . . . . . ولكن تماضد و تساند واتساق و تعانق بين الحروف والحروف ، والكلمـــات والكلمـــــات (٣) .

* * * * * * *
* * * * *
* * *
*

---

(١) سورة الانشـــراح ـ آية : ٥ ـ ٦ .

(٢) سورة الكافـــرون ـ آية : ١ .

(٣) من قضايا القرآن الكريم ـ لعبد الكريم الخطيب : ١١٣ .

الفصل الثاني

القصة القرآنية الواحدة بين التكرار وعدمه

م تحتوى على أكثر من فكرة ، فهي تضم عناصر متعددة لموضوعات كثيرة ، ولكننا نلاحظ أن بعض عناصر القصة يدور مع القصة في تكرارها ، فكلما تكررت كلما ضمت جزئية من جزئياتها ، وهناك بعض القصص القرآنية التي لا تتكرر عناصرها ، فقد لا تذكر فكرة من أفكار القصة الواحدة الا مرة واحدة ، حتى لو تكررت القصة وذكرت في أكثر من سورة في القرآن .

ومن أمثلة الفكرة التي ما ذكرت الا مرة واحدة ، حدث موقف نوح مع ابنه وقت الطوفان ، وطلبه من ربه النجاة لابنه ، قال تعالى ((وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوى الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين)) (١) .

فحدث نوح مع ابنه موقف فردى سيق لاعلام النبي صلى الله عليه وسلم بما حدث من حوار لنوح مع ابنه وهو في معزل ، ولم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم من الظروف والملابسات ما كان لنوح ، فلم يكن له ابن قد بلغ هذا السن لأن أبناءه الذكور ماتوا أطفالا ، وليس هناك طوفان سيعيشه .

من هنا كان سياق هذه الحادثة لمجرد الاخبار فلا داعي لتكرارها .

---

(١) سورة هود - آية : ٤٢ - ٤٣ .
لم يرد موقف نوح مع ابنه الا في سورة هود مع ورود القصة في سورة الأعراف ، يونس ، الأنبياء ، المؤمنون ، الشعراء ، العنكبوت ، الذاريات ، النجم ، القمر ، نوح .

ومحاورة ابراهيم لأبيه وردت مرة واحدة بتفصيل في سورة مريم وان وردت في غيرها فهي من باب الاشارة المعبرة ، قال تعالى ((واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا * اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا .... * قال أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا * قال سلام عليك سأستغفر لك ربي انه كان بي حفيا (١))) .

ولعل العلة التي من أجلها لم تكرر هذه الجزئية ، أنه ليس للرسول صلى الله عليه وسلم أب سيحاوره .

ومن ثمّ فالموضوع للاخبار ، وهذا تكفي فيه المرة الواحدة .

والرؤيا المنامية التي كانت من الخليل عليه السلام عن ابنه اسماعيل وردت مرة واحدة في سورة الصافات ، قال تعالى ((قال يا بني اني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن يا ابراهيم * قد صدقت الرؤيا ، انا كذلك نجزي المحسنين (٢))) .

فلما بلغ معه السعي رأى ابراهيم الرؤيا ثلاث ليال (٣) متتابعات ، فقيل له أوف بنذرك ، فلما أخبر ابنه بالرؤيا ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ، وأشحذ شفرتك حتى تريحني ، فاذا أضجعتني فكبني لوجهي حتى لا تدركك رحمة فتحول بينك وبين أمر الله ، ثم أدخل ابراهيم الشفرة فقلبها الله لقفاها

---

(١) سورة مريم - آية : ٤١ - ٤٧ .
(٢) سورة الصافات - آية : ١٠٢ - ١٠٥ .
(٣) فتح القدير للامام الشوكاني : ٤٠٣ - ٤٠٥ - ٤٠٧ المجلد الرابع .

ونودى " قد صدقت الرؤيا " ، " ان هذا لهو البلاء المبين " (١) .

وهكذا ، فهذه أحداث خاصة وشخصية ، من هنا فهي لمجرد الاخبار ، ولذا لم تتكرر في القرآن .

وقصة نبي الله صالح عليه السلام والرهط الذين أجمعوا أمرهم على تبييته في عقر داره ليلا ، لم ترد الا في موضع واحد في سورة النمل ، قال تعالى ((وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون * قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وانا لصادقون * ومكروا مكرا ، ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين (٢))) .

---

(١) وجه البلاء :

١ - أنه ابنه البكر .

٢ - وحيده في ذلك الوقت .

٣ - رزقه على كبر .

٤ - كونه القائم بعملية الذبح ، فالعملية شاقة ، والبلاء مبين .

وقد فدى اسماعيل عليه السلام بذبح عظيم ، كبش رعى في الجنة أربعين خريفا ، كما فدى عبد الله أبو النبي صلى الله عليه وسلم بمائة من الابل ، من هنا قال النبي صلى الله عليه وسلم (أنا ابن الذبيحين) .

قال قتادة : " رؤيا الأنبياء حق اذا رأوا شيئا فعلوه " .

راجع : فتح القدير : ٤٠٥ - ٤٠٧ المجلد الرابع .

(٢) سورة النمل - آية : ٤٨ - ٥١ .

يروى أنه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه ، فقالوا : زعم صالح أنه يفرغ منا الى ثلاث ، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث ، فخرجوا الى الشعب وقالوا اذا جاء يصلي قتلناه ، ثم رجعنا الى أهله فقتلناهم ، فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب ، فلم يدر قومهم أين هم ، ولم يدروا ما فعل بقومهم ، وعذب الله كلا منهم في مكانه ، ونجى صالحا ومن معه . (١)

وهكذا لم يتكرر هذا الموضوع في القرآن ، لأن نبينا عليه الصلاة والسلام لم تكن له ملابسات ما كان لصالح ، فان صالحا عليه السلام تشاءم منه

---

(١) الكشاف للزمخشري : ١٥٣ ـ المجلد الثالث .
وانظر كيف أن الكذب رذيلة ومكروه بالفطرة ، فهؤلاء الكفرة لم يرضوا لأنفسهم بالكذب حتى تحملوا لأنفسهم سوغا في قتل صالح عليه السلام وهو الجمع بين قتله وقتل أهله ، فاذا سئلوا عن أحدهما فأجابوا بالنفي كانوا صادقين في زعمهم ، وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة " . الكشاف : ١٥٢ الجزء الثالث .
وقيل : جاءوا بالليل شاهري سيوفهم ، وقد أرسل الله الملائكة مل دار صالح فدمغوهم بالحجارة ، يرون الحجارة ولا يرون راميا .
الكشاف : ١٥٣ ـ الجزء الثالث .
وقيل : انهم كانوا قوما قتلوا أبناءهم خشية أن يكون عاقر الناقة منهم ثم ندموا فأقسموا ليقتلن صالحا وهو ذاهب الى مسجده ، فكمنوا له في غار على طريقه ، فلما دخلوا الغار سقطت عليهم صخرة فقتلتهم ، فانطلق رجال ممن عرف الحال الى الغار فرأوهم هلكى ، فعادوا يصيحون أن صالحا أمرهم بقتل أولادهم ثم قتلهم " .
الكامل لابن الأثير : ٥١ ـ الجزء الأول .
ومعنى كلمة بيّت : والبيات مباغتة العدو ليلا (وبيّت الأمر دبره ليلا) القاموس المحيط .

قومه الكفرة ، وتطيروا برسالته ، لأنها كانت سببا في قتلهم لأبنائهم ، وعقرهم الناقة ، وتوعدهم بالعذاب وهو واقع بهم ، وهذا لم يحدث للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن القصد من وراء هذه القصة سوى الاعلام .

وموقف موسى من بنتي شعيب وزواجه من أحدهما لم يرد الا في سورة القصص ، قال تعالى ((قال اني أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدني ان شاء الله من الصالحين * قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ ، والله على ما نقول وكيل))[1] .

وانظر الى تمام الحكمة والحنكة التي تحلى بها شيخ مدين ، فقد أراد أن يجرب هذا الشاب[2] قبل أن يعقد له بابنته حتى اذا اطمأن اليه زوجه ، وحكمة سيدنا موسى عليه السلام ، فقد أراد أن يحتفظ بحق الخيار لنفسه ، لأنه ربما سئم من طول المدة ((قال أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي))

---

(١) سورة القصص - آية : ٢٧ - ٢٨ .

(٢) قصص النبيين لأبي الحسن الندوى : ١٨٢ - ١٨٣ القسم الأول .
يرى الحسن البصرى أن الشيخ هو شعيب النبي عليه السلام ، ويرى آخرون أنه شعيب آخر .
راجع : قصص القرآن - لجاد المولى : ١١٥ .
ويروى أن شعيبا سأل ابنته : يا بنية كيف عرفت (قوته) ؟ قالت : رفع الحجر عن البئر ، ولا يرفعه الا عشرة رجال ، (وأمانته) ؟ قالت : قال لي امشي خلفي وانعتي لي الطريق ، فاني أكره أن تصيب الريح ثوبك فتصف لي جسدك .

ثم ما تحلى به كلا الشخصين ، الأول في عرض ابنته ، وهو منتهى السود والحب ، والرغبة في حفظ العرض ، والثاني في تلبية الدعوة ، وفي هذا منتهى حسن الخلق والأدب ، فما جزاء من رغب فيك الا أن تحرص عليه ، وقد دفع الشيخ الى ذلك ما تحلى به موسى من دين وخلق وأمانة وقوة ((يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين)) .

ومثل هذه الحادثة ذاتية فردية خاصة ، قصد بها الاخبار ، ومن هنا لم تتكرر ولم ترد الا في سورة القصص .

ونبأ الخصم اذ تسوروا المحراب ، قال تعالى ((وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب * اذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط * ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزّني في الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب * فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب (((١) .

---

(١) سورة ص - آية : ٢١ - ٢٥ .

وهذا يوحي بالقصة التي تقول : " ان داود عليه السلام خطب المرأة التي خطبها أوريا ، فزوجت منه لجلالته ، فاغتم لذلك أوريا " .

فتح القدير - الجزء الرابع : ٤٢٧ .

والمرأة هي (سابغ بنت شائع) والرجل هو (أوريا بن حنان) .

راجع : قصص القرآن لجاد المولى : ١٦٢ .

تسوروا : نزلوا عليه من فوق المحراب .

فهذه الجزئية لم ترد الا في موضع في القرآن ، والسر في ذلك أن نبي الله داود عليه السلام كانت له ظروفه الخاصة من تسور الملائكة عليه المحراب في صورة خصم ، وقصة النعاج ، وقضائه بينهم ، وهذه الملابسات لم تكن لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان يكتفي بورودها مرة واحدة للاعلام .

وسليمان مع الهدهد ((وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين * لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين)) (١) .

ومع ملكة سبأ بلقيس ((قالت يا أيها الملأ اني ألقي الي كتاب كريم * انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا علي وآتوني مسلمين)) (٢) .

وحديث العصا ((فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة

= لا تشطط : لا تمل .

الخلطاء : الشركاء .

مآب : مرجع في الآخرة .

والسجدة = هل السجدة في هذه الحادثة سجدة لازمة ؟

الواقع انها ليست من عزائم السجود .

" والنبي صلى الله عليه وسلم سجدها وقال : سجدها داود ونسجدها شكرا " . فتح القدير - الجزء الرابع : ٤٢٧ .

---

(١) سورة النمل - آية : ٢٠ - ٢١ .

(٢) سورة النمل - آية : ٢٩ - ٣١ .

الأرض تأكل منسأته ، فلما خـرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيـــب ما لبثوا في العذاب المهين (١) .

كل جزئية من جزئيات هذه القصص لم ترد مكررة في القرآن ، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن له ملابسات نبي الله سليمان عليه السلام . فالنبي صلى الله عليه وسلم عبد رسول ، وسليمان عبد وملك رسول .

((قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى ، انك أنـــت الوهـــاب)) (٢) .

ومن ثم سخر الله له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، ومن جملة الأشـياء التي سخرت له الطير ومنهم الهدهد .وأما قصة سليمان مع بلقيس فهي حدث خاص ، وأمر ذاتي ، من هنا لم يكن هناك داع لتكرار مثل هذه الأحـداث التي يتعين العلم بها من أول وهلة .

وأما حديث العصا ، " فقد كان سليمان يتجرد للعبادة في بيـت المقدس السنة والسنتين ، والشهر والشهرين ، وأقل وأكثر ، يدخل طعامه وشرابه ، فأدخله في المرة التي توفي فيها ، فبينما هو قائم يصلي متوكئـا على عصاه أدركه أجله فمات ، ولا تعلم به الشياطين ولا الجن وهم في ذلك يعملون خوفا منه ، فأكلت الأرضة عصاه فانكسرت ، فسقط فعلموا أنه مـات ، وعلم الناس أن الجن لا يعلمون الغيب ، ولو علموا الغيب ما لبثـوا في

---

(١) سورة سبأ - آية : ١٤ .

(٢) سورة ص - آية : ٣٥ .

المذاب المهين (١))) .

وهكذا فلم يكن هناك داع الى تكرار مثل هذا الموضع لا نتفاء ملابساته فلم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم عصا يتوكأ عليها ، ومن يحمل بين يديه ويخشى ان تهاون في عمله أن يوقع به عكس نبي الله سليمان عليه السلام فكان الاعلام به يتعين لأول وهلة .

---

(١) يعلق المحققون بقولهم : يفهم من هذا أن سليمان عليه السلام قد وقف سنة متكئا على العصى ، وهذا كلام لا تحصيل له .
والمعقول أنه مات ودفن ولا تعلم الجن شأنه لا نشغالهم بالأعمال فلما رأت الجن عصاه وقد أكلتها دابة الأرض علموا أنها لم تستعمل ، وعدم استعمالها دليل على موت صاحبها " .
وأنا أرد هذا القول بأن سياق الآية يناقضة ، ثم ما الغريب في ذلك ؟ فان أجساد الأنبياء محفوظة للحديث : (أن الله قد حرم على الأرض أجساد الأنبياء) .
والأرجح ما قاله ابن الأثير بدليل أن الآية الكريمة تقول ((فلما خر)) أى سقط ، فقد كان معتمدا عليها .
دابة الأرض : هي الأرضة العثة .
المنسأة : هي العصا بلغة الحبشة أو هي مأخوذة من نسأت الغنم أى حركتها .
راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ الجزء الأول : ١٣٦ ـ الطبعة الثانية . وفتح القدير للشوكاني ـ الجزء الرابع : ٣١٧ .
((قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى)) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ان عفريتا من الجن جعل يتفلت على البارحة ليقطع علي صلاتي ، وأن الله أمكنني منه ، فلقد هممت أن أربطه الى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا فتنظروا اليه كلكم ، فذكرت قول أخي سليمان ((وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى)) فرده الله خاسئا) .
فتح القدير ـ الجزء الرابع : ٤٣٥ .

وموقف أيوب مع زوجته ، قال تعالى ((واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب * اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب * ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب * وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ، انا وجدناه صابرا ، نعم العبد انه أواب))(١) .

ذلك أن أيوب عليه السلام أصابه البلاء بامتحان الله حيث سلط الله عليه ابليسا لحكمة فأفسد حرثه ، وأهلك الله أبناءه ، ورماه بالمرض حتى مقته أهل قريته ، وظل في البلاء ما يقرب من سبع سنين ، ولم يبق معه سوى زوجته التي كانت تعاوده حاملة الطعام والشراب ، فقابلها ابليس اللعين فقال لها : ان سجدت لي عافيت زوجك ، فقالت : حتى أستشيره ، فأشار عليها بأن هذا ابليس اللعين ، وانه ان عوفي ليضربنها مائة سوط(٢) ، فلما خشي على ذهاب لسانه ((قال رب اني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين)) .

فأوحى اليه ربه ((أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب * ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب)) حينئذ أوحى الله اليه أن يأخذ عرجونا فيه مائة شمراخ ضعيفة فضربها به مرة واحدة .

---

(١) سورة ص - آية : ٤١ - ٤٤ .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير - المجلد الأول : ٧٤ - ٧٥ - الطبعة الثانية .

الركض : ضرب الأرض بالرجل .

الضغث : عثكال النخل بشماريخه .

الحنث : الاثم ، ويطلق على فعل ما حلف على تركه .

وفي هذا أعظم دليل على أن المؤمن مبتلى ، وعلى قدر البلاء يكون الجزاء .

قال تعالى ((وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب)) .

وهكذا قصّ المولى علينا قصة عبد من عباده ، ونبيا من أنبيائه أصابه البلاء ، فصبر ، فعافاه الله سبحانه ، فان للصبر عاقبة محمودة الأثر ، والصبر من الايمان ، بمنزلة الرأس من الجسد ، ولما كان مثل هذا حدث خاص وقع لنبي الله أيوب عليه السلام ، وهي أمور شخصية تخص ذات الشخص ولا تعني سواه ، فهو المصاب ، وقد عافاه الله ، وهي ملابسات ربما أنها لم تحدث لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لم يكن هناك داع للتكرار .

وكفالة زكريا لمريم وتربيتها أحسن تربية مع رزق الله الواسع لها ((اذ قالت امرأة عمران رب اني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني انك أنت السميع العليم * فلما وضعتها قالت رب اني وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى * واني سميتها مريم ، واني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم * فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا ، قالت هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب))(١) .

---

(١) سورة آل عمران - آية : ٣٥ - ٣٧ .
وانظر الى النكتة في سؤال زكريا ((أنى لك هذا)) ؟ هكذا يكون الكفيل والوصي ، يتحرى عن كل شيء ، ثم بماذا ردت السيدة الجليلة قالت : هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب .
أدب جم ، وجواب لطيف حسن ، فانظر الى هذه الذرية الصالحة .
وهكذا استحقت هذه السيدة أن تحمل كلمة الله ، وتحافظ عليها حتى تضعه مثلا باهرا على قدرة الله عز وجل ((انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)) .

فهذه الجزئية لم ترد الا في سورة آل عمران ، فالهدف الخاص منها بيان قدرة الله عز وجل التي تجعل من العدم المحض خيرا مطلقا ، ووجودا طيبا حيث أن الفاكهة والرزق كان يأتيها ليلا ونهارا ، وصيفا وشتاء ، من حيث لا تحتسب ، واثبات قدرة الله عز وجل انجلت من أول وهلة ، فالأمر لا يقتضي التكرار .

والسيدة مريم واتيانها المخاض بعد أن تمثل لها الملك بشرا سويا فحملت بعيسى ، وما ترتب على ولادتها من أمر الله بأن تهز النخلة ، واستهزاء قومها بها ((فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا)) ، ((قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا (١))) .

---

(١) سورة مريم - آية : ٢٣ ، ٢٧ .

فأجاءها : أجاء منقول من جاء ، الا أن استعماله قد تغير بعد النقل الى الاجاء .

وجذع النخلة : اما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة ، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس .

أو من باب تعريف الجنس ، أى جذع هذه الشجرة خاصة ، كان الله تعالى أرشدها الى النخلة ليطعمها منها الرطب الذى هو خرسة النفساء الموافقة لها .

نسيا منسيا : ما من حقه أن يطرح وينسى .

فريّا : أى بديعا .

وانظر الى النكتة في نذرها الصوم ، وهو أن عيسى عليه السلام سيكفيها الكلام بما يرى ساحتها ، والثاني كراهة مجادلة السفهاء ومناظتهم .

الكشاف : ٥٠٦ المجلد الثاني .

ولما كان حمل السيدة مريم بالمسيح عليه السلام ، والمخاض به ، واتهامها ، وتكلم المسيح لتبرئتها ، أمورا مقصورة على ذات المسيح عليه السلام ، أراد البارئ عز وجل أن يطلع عليها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأن يبصره بحقيقة أخيه المسيح عليه السلام ، ومعجزة مولده ورسالته .

فمريم عليها السلام ليست رسولا من الرسل ليتأسى بها النبي صلى الله عليه وسلم .

ولم تكن للنبي ملابسات عيسى ، فهو لم يتكلم في المهد ، ولم تأت به أمه قومها تحمله ، فهي حوادث فردية سيقت للانباء والاخبار .

والواقع أن كل قصة من القصص لها عناصرها وجزئياتها ، من هذه قصة موسى عليه السلام التي تضمنت الكثير من الجوانب من مثل ميلاده وتربيته ، الفترة بين رجولته ونبوته ، بعثته ، موقفه مع فرعون وطريقة اثبات حجته أمام فرعون وقومه عن طريق السحر .

ولكننا نجد من هذه الجوانب وهو موقف موسى مع فرعون ، وطريقة اثبات حجته تكررت هذه الجزئية في أكثر من موضع في تكرار هذه القصة .

وردت في سورة الشعراء : ((قال للملأحوله ان هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون * قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحار عليم . . . قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون * فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون * فألقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون)) (١) .

---

(١) سورة الشعراء - آية : ٣٤ - ٣٧ ، ٤٣ - ٤٥ .

كما وردت في سورة الأعراف : ((قال الملأ من قوم فرعون ان هـــذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون * قالوا أرجه وأخـــاه وأرسل في المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم * .... قالوا يا موسى اما أن تلقي واما أن نكون نحن الملقين * قال ألقوا ، فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم * وأوحينا الى موسى أن ألق عصـــاك فاذا هي تلقف ما يأفكون (١))) .

وفي سورة طه : ((قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى * فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانـــا سوى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى * .... قالـــوا يا موسى اما أن تلقي واما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا ، فـــاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خيفـة موسى * قلنا لا تخف انك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقف ما صنعـــوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى (٢))) .

وقصة نوح اشتملت على العناصر الآتية : أسلوبه في الدعوة ، وموقـف قومه منه ، وموقف من قومه وابنه ، والنهاية الحاسمة .

---

(١) سورة الأعراف ـ آية : ١٠٩ ـ ١١٢ ، ١١٥ ـ ١١٧ .

(٢) سورة طـه ـ آية : ٥٧ ـ ٥٩ ، ٦٥ ـ ٦٩ .

أرجه : قرئ أرجئه ، وأرجه بالهمز والتخفيف وهما لغتان ، ويقال : أرجأته وأرجيته اذا أخرته أى أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة .

راجع : الكشاف : ١١٢ المجلد الثالث .

ولكننا نجد جزئية موقف قومه منه ، ونهايتهم قد تكررت في أكثر من موضع في القرآن الكريم ، وردت في سورة الأعراف : قال تعالى ((لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قال الملأ من قومه انا لنراك في ضلال مبين * .... فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين)) (١) .

وفي سورة هود : ((ولقد أرسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين * أن لا تعبدوا الا الله اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين * .... وأوحي الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون)) (٢) .

فأجزاء القصة التي تصور توجيه الرسول لقومه وما صادفه من عناد مرير حتى كانت النهاية الحاسمة ، نرى أنها عنصر هام في تكرار القصة الواحدة حتى وردت في مواضع كثيرة من السور القرآنية ، ففي سورة هود يقول الحق عز وجل ((قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * ... ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ)) (٣) .

---

(١) سورة الأعراف - آية : ٥٩ - ٦٠ ، ٦٤ .
(٢) سورة هود - آية : ٢٥ - ٢٧ ، ٣٦ - ٣٧ .
(٣) سورة هود - آية : ٥٣ - ٥٨ .

وفي سورة الشعراء : ((قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * ..... فكذبوه فأهلكناهم ، ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين)) (١) .

وفي سورة الأحقاف : ((قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين * قال انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ، ولكني أراكم قوما تجهلون * فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم ، كذلك نجزي القوم المجرمين)) (٢) .

((كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر * انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر)) (٣) .

وفي قصة صالح يقول الله سبحانه ((ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب * فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب)) (٤) .

وفي سورة الشعراء : ((قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم * فعقروها فأصبحوا نادمين)) (٥) .

---

(١) سورة الشعراء - آية : ١٣٦ ، ١٣٩ .

(٢) سورة الأحقاف - آية : ٢٢ - ٢٥ .

(٣) سورة القمر - آية : ١٨ - ٢٠ .

(٤) سورة هود - آية : ٦٤ - ٦٥ .

(٥) سورة الشعراء - آية : ١٥٥ - ١٥٧ .

وفي سورة القمر : ((انا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر * ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر * فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابي ونذر)) (١) .

وفي قصة شعيب : ((فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين)) (٢) .

وفي سورة هود : ((ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين)) (٣) .

وفي سورة الحجر : ((وان كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم وانهما لبإمام مبين)) (٤) .

وفي سورة النجم : ((والمؤتفكة أهوى * فغشاها ما غشى)) (٥) .

وفي سورة الحاقة : ((وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة)) (٦) .

وهكذا بعد أن استعرضنا هذه الكوكبة من الأنبياء ، وموقفهم مع قومهم ، وموقف قومهم منهم ، نجد أن معظم هذه الجزئيات التي تكررت في قصصهم لا يقصد بها سوى تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتسليته ، وأن غيره من الرسل تعرض للايذاء والتكذيب والعناد ، وطالبهم قومهم بالمعجزات الدالة على صدقهم ، وقد جاءوا بها ، وأثبتوا صدقهم ، ولكن قومهم ازدروا بهم ودحضوا حججهم ، وحاولوا النيل منهم ، وطمس معالم صدقهم وهراهينهم

---

(١) سورة القمر ـ آية : ٢٧ ـ ٣٠ .

(٢) سورة الأعراف ـ آية : ٩١ .

(٣) سورة هود ـ آية : ٩٤ .

(٤) سورة الحجر ـ آية : ٧٨ ـ ٧٩ .

(٥) سورة النجم ـ آية : ٥٣ ـ ٥٤ .

(٦) سورة الحاقة ـ آية : ٩ .

فاصبر يا محمد كما صبروا واثبت واعلم بأن النهاية في صالح الرسل ومن تبعهم فالله سبحانه ينصر رسله بالغيب ويرفع راية الحق خفاقة ، ويثبت المؤمنين الصابرين المحتسبين ، ويحيق المكر والعذاب بالكافرين الجاحدين .

((انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (١))) .

واذا كان الأمر يقتضي دفع شبهة ، ورد الأباطيل الواجفة ، كان التكرار لازما في القصة القرآنية ، ومن ذلك الحديث عن معجزات عيسى كثيرا عند دوران قصته في القرآن ، قال تعالى ((ورسولا الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحي الموتى باذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين (٢))) .

وقال تعالى ((فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا * قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا * وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا * والسلام عليّ يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا (٣))) .

وتكرار مثل هذه المعجزات حتى يثبت المولى عز وجل أن معجزة عيسى لم تتحقق الا بالقدرة الالهية ، فهو يحي الموتى ، ويبرىء الأكمه والأبرص باذن الله تعالى .

---

(١) سورة غافر - آية : ٥١ .

(٢) سورة آل عمران - آية : ٤٩ .

(٣) سورة مريم - آية : ٢٩ - ٣٣ .

فالتكرار لازم ، حيث ان النصارى المعاندين كانوا يعلنون المرة بعد الأخرى ، أنه ما دام يحي الموتى ، وما دام أنه لا أب له معروف فهو اله .

والقرآن الكريم كثيرا ما يدحض كيد المعاندين وشبههم ويفحم دعوى المبطلين ، فالتكرار بسبب ادعاءاتهم المتكررة وأباطيلهم التي فاقت الحد .

{!}

الفصل الثالث

الافادة في تكرار القصة القرآنية

قلنا فيما سبق بأن كثيرا من جزئيات القصة القرآنية قد دار مع دوران القصة في تكرارها في السور القرآنية ، ولكن في جمال عرض ، واجلاء للمعاني في قوة وبيان .

ولعل ذلك راجع الى تنوع أسلوب القصة ، فقد كانت تارة تميل في جزئية من جزئياتها الى الاطناب ، وقد كانت تميل تارة أخرى الى الايجاز واذا أطنبت في حدث من أحداث القصة ، وأوجزت في الآخر في سورة مثلا ، نرى العكس في سورة أخرى .

ومن ذلك قصة موسى وردت في سورة طه ، والشعراء ، والقصص وغيرها ، ولكنها وردت في سورة طه وقد فصّل موقف موسى مع السحرة قبل الالقاء ، هكذا قال تعالى ((ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى * فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النجوى * قالوا ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى * فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى (١))) الخ .

أما ظفر موسى ونهاية فرعون المؤسفة ، فنجد أنه قد أوجز ايجازا واضحا في هذه السورة ، قال تعالى ((ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا ، لا تخاف دركا ولا تخشى *

---

(١) سورة طه - آية : ٦١ - ٦٤ .

فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ما غشيهم * وأضل فرعون قومه وما هدى))[1] .

أما في سورة الشعراء ، فنجد العكس ، فموقف موسى مع السحرة قبل الالقاء موجزا جدا ، هكذا ((قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون))[2] .

أما ظفر موسى بالنجاة ونهاية فرعون ، فقد جاءت باطناب ، قال تعالى ((وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون * فأرسل فرعون في المدائن حاشرين * ان هؤلاء لشرذمة قليلون * وانهم لنا لغائظون * وانا لجميع حاذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني اسرائيل * فأتبعوهم مشرقين * فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون * قال كلا ان معي ربي سيهدين * فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثمّ الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثمّ أغرقنا الآخرين * ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وان ربك لهو العزيز الرحيم))[3] .

فما السر في ذلك ؟ .

ولعل السر في ذلك الذى من أجله فصّل موضوع السحرة قبل الالقاء في سورة طه في حوارهم مع موسى ، وأوجز في موضوع نهاية فرعون على النقيض منها في سورة الشعراء ، ان سورة طه سيقت أساسا لتسلية النبي صلى الله

---

(١) سورة طه - آية : ٧٧ - ٧٩ .

(٢) سورة الشعراء - آية : ٤٣ .

(٣) سورة الشعراء - آية : ٥٢ - ٦٨ .

عليه وسلم ، ولذا جاء في مطلعها ((طـه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى)) وقال فيها ((وهل أتاك حديث موسى (١))) .

من هنا كان في حكاية ما يتعلق بنبي الله موسى عليه السلام من ولادته ، ووضعه في التابوت ، والقاءه في اليم ، ثم رجوعه لأمه ، ثم قتله للقبطي ، ثم هربه الى مدين ، ثم بعثته بعد ذلك الى عدو اللدود فرعون الذى فر من تعسفه وجوره ، ما يذهب بعض الوجد من نفس النبي صلى الله عليه وسلم ويسليه .

من هنا كان في الاسترسال في شرح موقف موسى مع السحرة ، وكيف ألقى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون يحتاج الى اطناب .

أما في موضوع نهاية فرعون فيكفي شرح حاله وأنه قد نزل به الهلاك وحلّت عليه اللعنات ، وفي هذا كفاية .

أما في سورة الشعراء فانها قد سيقت للتثبيت ، ولذا جاء في مطلعها ((لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين (٢))) .

بما أن السورة قد سيقت أساسا لهذا المطلب ، لذا ساق المولى عز وجل فيها أخبار العديد من الأنبياء ، كقصة نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وكل ذلك ليأخذ النبي صلى الله عليه وسلم عبرا من هؤلاء الرسل وكيف صبروا على أذى قومهم بالرغم من تعسفهم عليهم " فاثبت يا محمد كما ثبتوا ، واصبر كما صبروا " .

---

(١) سورة طـه - آية : ١ - ٢ ، ٩ .

(٢) سورة الشعراء - آية : ٣ .

أتبنون بكل ريع آيـة تعبثون ؟

وتتخذ ون مصانع لعلكم تخلد ون ؟

واذا بطشتم بطشـتم جبارين ؟

كما نلحظ كمال الا تصال في التفصيل بعد اجمـال[1] في قوله تعالى ((أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين)) .

ولعل السر الذى أوجز فيه في سورة الأحقاف في جانب دعوة الرسـول لقومه ، وطى النقيض في سورة الشعراء ، ان سورة الأحقاف قد سيقت لتثبيـت النبي صلى الله عليه وسلم ، ولذا أطنبت السورة في جانب نهاية القوم وما حـل بهم ، حتى قال البارىء جل في علاه ((فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل)) .

وفي سورة البقرة ، في قصة ابراهيم ، تعرض لموضوع الأصنام اشـارة خاطفة هكذا ((وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود[2])) ، فانك تلمس معنى الطهارة ، وهي ازالة الأدران والأنجاس ، ومن ضمنها الأصنام من خلال السطور .

وفي سورة ابراهيم اشارة صريحة الى ذلك ، قال تعالى ((واذ قـال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنّي أن نعبد الأصنام * رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ، ومن عصاني فانك غفـور رحيم[3])) .

وفي سورة البقرة اشارة عابرة الى عبادة الأصنام ، هكذا ((وعهدنـا

---

(١) وهذا ما يسمى بكمال الا تصال في علم البلاغة ، وذلك أن تنزل الجملة الثانية منزلة بدل البعض من متبوعه ، ومقتضى الابدال هنا كـون الأولى غير وافية بتمام المراد بخلاف الثانية ، فجملة ((أمدكم بأنعـام وبنين)) أوفى بتأديته من قوله تعالى ((أمدكم بما تعلمون)) لدلالته عليها بالتفصيل .
الايضـاح للقزوينـي : ١٥٢ .

(٢) سورة البقرة - آيـة : ١٢٥ .

(٣) سورة ابراهيم - آيـة : ٣٥ - ٣٦ .

لهذا الغرض ، بدليل عنوان السورة ، ولذلك استرسل البارئ عز وجل في ذكر مناسك الحج ، وعلى النقيض سورة البقرة ، فلم تسق أساسا لهذا الغرض لذا لم يتحدث عنها البارئ عز وجل باستفاضة على لسان الخليل عليه السلام .

وقد تعرض كثير من جزئيات القصة في القرآن الكريم بصورة مختلفة في الأسلوب ، ولكن المؤدى واحد : من ذلك قوله تعالى في قصة نوح في محمل الدعوة ، وهو الجانب الأول من جوانب قصص الأنبياء مع أممهم ((لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم)) (١) .

وقوله تعالى ((ولقد أرسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين * أن لا تعبدوا الا الله اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم)) (٢) .

وقوله تعالى ((ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون)) (٣) .

فهي كلها تدعو الناس الى عبادة الله وترك عبادة ما عداه وان اختلفت في شيء من التعبير الذى مؤداه واحد ، اذ في قوله تعالى في الآية الثانية الا الله معنى القصر الذى يفيد انه لا معبود بحق الا الله ، وهي ما تضمنته الآية الأولى والثالثة بمنطوقها ما لكم من اليه غيره ، والتعبير بعظيم وأليم وأفلا تتقون مع الاختلاف الواضح في المنطوق ، الا أن مدلولات العبارات

---

(١) سورة الأعراف - آية : ٥٩ .
(٢) " هود - آية : ٢٥ - ٢٦ .
(٣) " المؤمنون - آية : ٢٣ .

متفق ، لأن العذاب اذا اتصف بأنه يؤلم صاحبه ويوجعه فهو عذاب عظيم ليس هينا ، فهو آثاره عظم وكبر ، ومن ثمّ يجب أن يتقي الله كل انسان ويخاف عذابه الموصوف بأنه عظيم وأليم .

وهكذا نلمس اختلافا في شيء من العبارة والأسلوب ، ولكن مؤداهما واحد ، حتى يتذوق كل قارىء الآية حسبما اتجاهه النفسي ، وتفسيره الباطني ، فيكون وقع الآية على القارىء والسامع أشد .

وفي قصة لوط ((ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب * وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي ، أليس منكم رجل رشيد * قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد * قال لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد * قالوا يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك انه مصيبها ما أصابهم ، ان موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد)) (١) .

وقال تعالى في سورة الحجر ((فلما جاء آل لوط المرسلون * قال انكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وآتيناك بالحق وانا لصادقون * فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون * وقضينا اليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين *

---

(١) سورة هود - آية : ٧٧ - ٨٣ .

وجاء أهل المدينة يستبشرون * قال ان هؤلاء ضيفي فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تخزون * قالوا أولم ننهك عن العالمين * قال هؤلاء بناتي ان كنتم فاعلين * لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون * فأخذتهم الصيحة مشرقين * فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل * ان في ذلك لآيات للمتوسمين * وانها لبسبيل مقيم * ان في ذلك لآية للمؤمنين)) (١) .

فما السر وراء هذا التكرار ، وتلون الأسلوب والمؤدى واحد ؟ .

والواقع أن نبي الله لوط عليه السلام في سورة هود لا يعلم بأن ضيفه من الملائكة بدليل قوله لهم ((لو أن لي بكم قوى أو آوى الى ركن شديد)) ، من هنا ضاق بهم ذرعا ، وبدت عليه ملامح الحيرة والارتباك .

والقرآن الكريم قصد في هذا الى ابراز عواطف لوط عليه السلام تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، كما تبرز في السورة صور العطف والحنان والحرص على هدايتهم ((قال يا قوم)) ((هؤلاء بناتي هن أطهر لكم)) .

أما في سورة الحجر فنبي الله لوط عليه السلام يعرف بأن ضيفه من الملائكة لأنهم أبانوا له عن أنفسهم من بداية الأمر ((قال انكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وآتيناك بالحق وانا لصادقون * .... وجاء أهل المدينة يستبشرون)) .

من هنا كان خطاب لوط عليه السلام موجها الى قومه بهذا الأسلوب " هؤلاء بناتي فلا تفضحون " ، ولم يقل " يا قوم " ، " ولا أطهر " ... وكأنه يئس من هدايتهم .

---

(١) سورة الحجر - آية : ٦١ - ٧٧ .

وقصد القرآن في هذه القصة الى بيان ما ينزل بالمكذبين من عذاب ، من هنا حرص القرآن على أن يجعل الملائكة تعلن عن نفسها وتخبر لوطا بما سيحل بالقوم ، وهو ما يتلاءم مع حالة النبي صلى الله عليه وسلم .

ولقد فطن كثير(١) من الباحثين الى أن عرض المعنى الواحد بأساليب مختلفة ، وطرق متعددة ، يدل دلالة قاطعة على أن بلاغة القرآن في أعلى مراتبها حيث انه من خصائص البلاغة ابراز المعنى الواحد في صور مختلفة .

على أن تكرار أحداث القصة بهذا الأسلوب المتمايز عن الآخر ، يجعل القارىء والسامع لا يمل من التكرار ، بل على العكس من ذلك يجدد في نفسه معاني أخرى ربما أنها لم تحصل له من قبل فيما عرض من أسلوب سابق .

على أن القرآن تحدى به العرب ، فكان دليلا على الاعجاز وايراد المعنى الواحد في صور متعددة ، وقد عجزت العرب عن الاتيان بمثله يكون أبلغ في التحدى وأبعد في الاعجاز .

على أن هذا التكرار طريق من طرق تأكيد المعنى في النفس واستقرارها في خواطر القارىء والسامع ، فكل قصة من القصص القرآنية التي قد تكررت اتحدت أهدافها ، واتفقت غاياتها ، ومن ذلك قصة موسى مع فرعون ، فهي وان تكررت في مواضع كثيرة من القرآن ، الا أنها تشير الى غاية واحدة حيث انها تمثل الصراع بين الحق والباطل ، وعلى هذا فان التكرار

---

(١) راجع : مباحث في علوم القرآن ـ للشيخ مناع القطان : ٣٠٨ ـ الطبعة الثالثة .

يشبب هذا الصراع ، ويؤكد نهاية الظلم ، وبذلك ترسخ هذه الغاية في النفس فتكون أدعى الى التصديق والامتثال .

وقد أشار بعض النقاد[1] المحدثين الى أن التكرار للشيء الواحد كما ورد في سورة الرحمن تكرار آية ((فبأى آلاء ربكما تكذبان)) احدى وثلاثين مرة فيها ونين الصوت المكرر الذى يدعو القارىء والسامع لكي يتمثل في ضميره نعم ربه الدنيوية والأخروية ، حتى يستنقذ نفسه من العذاب الأليم ، وينال ما يجد ربه من الثواب والنعيم .

ومعنى ذلك أن الدكتور شوقي ضيف على ما أرى ، يرى أن تكرار القصة القرآنية فيها ايقاظ الهمم ، وذفع العقول والنفوس الى التأمل والتدبر ففرق كبير بين الشيء الذى يحكى مرة وبين الشيء الذى يكثر تكراره ، ففي الثاني استشعار أقوى من الأول ، وتعليم للانسان تقوى فيه الدلالة والمحاكاة .

على أن الأمر العظيم[2] الذى له بال خطير يستاهل التكرار ، أما الشيء العارض فان تكراره قد يكون ثقيلا على السمع ، بغيضا الى النفس ، فانه لا يستاهل المعاودة ، أما الأشياء الجسيمة ذات البال كقصص الأنبياء التي كلها عبرة وعظة وأحداث من أنباء الغيب ، فما أحوج البشرية الى معرفتها والوصول الى مراميها ، وعلى هذا فتكرارها أمر يطابق مقتضى الحال

---

(١) سورة الرحمن : عرض ودراسة ، د . شوقي ضيف : ٣٣ دار المعارف بمصر .

(٢) فنون البلاغة بين القرآن وكلام العرب ـ د . فتحي عبد القادر : ٣٦ الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ .

اذ أن الطبيعة البشرية تميل الى أن يعاد الشيء الذى يحن الانسان اليه ويرغب في معرفته ، وخصوصا أن هذه الأمور مرتبطة تماما بالعقيدة وبالسلوك الاسلامي الصحيح .

على أنه من الواضح أن هذا التكرار في القصص القرآني فيه شيء من التباين والتنوع في طريقة العرض ، كما لاحظ ذلك الطبرى (١) حينما أورد نصوصا في التشابه القصصي - الجزء السادس ص ١٠٧ - : " فالمتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرار ، فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني ، وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني " .

ويرى الزركشي في كتابه (٢) البرهان في علوم القرآن :

" أن التكرار القرآني هو أسلوب من أساليب البيان العربي ، وأن القرآن جرى على هذا على ما في أساليب العرب من التكرار في مواقف التأكيد والتقرير ... الخ ، والقرآن ان سلك هذا المسلك المألوف في التكرار ، الا أنه خرج به عن ما كان يلحقه عادة من قلق النظم ، واضطراب الأسلوب ، وضعف الترابط بين أجزاء الكلام " .

ويرى أبو بكر الباقلاني (٣) في كتابه اعجاز القرآن ، أن من أسباب تكرار القصص القرآني أن اعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى

---

(١) راجع الفن القصصي في القرآن - د . محمد أحمد خلف الله : ٢١٧ ، طبعة ١٩٥١ م .

(٢) راجع : اعجاز القرآن - لعبد الكريم الخطيب ، : ٤٠٧ الطبعة الأولى طبعة ١٩٧٤ م .
وراجع : البرهان في علوم القرآن - الصفحة التاسعة الجزء الثالث .

(٣) اعجاز القرآن للباقلاني : ٤١٧ .

واحدا من الأمر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة ، وتبين فيه البلاغة " .

ومن هذا كله يستبين لنا أن التكرار في القصة القرآنية يفصح عن روعة القرآن ، وكمال اعجازه ، وقوة عرضه ، وان هذا التكرار أمر يطلبه المعنى ومقتضى الحال يدعو اليه ، ومن ثمّ كان التكرار في القصة القرآنية حسن كله تقبله النفوس .

ومعنى ذلك أن ابن سنان الخفاجي يرى فيه الجمال المطلق والغاية العظمى ، كما يفهم من عبارته " التكرار منه ما يستحسن ومنه ما يستقبح ، فالتكرار لا يكون قبيحا الا اذا كان المعنى المقصود لا يتم الا به "(١) .

ومن تنوع الأسلوب مراعاة مقتضى الحال ، وذلك اذا كان الموقف يقتضي اللمحة الخاطفة : والاشارة العابرة ، كما في مقام الامتنان اذا كان الهدف من القص بيان أن الجزاء من جنس العمل ، نرى أن القصة القرآنية تميل الى الايجاز والاشارة الخاطفة تذكيرا للنبي صلى الله عليه وسلم بتلك المنن التي منّ الله بها على رسله ، من ذلك قوله تعالى ((واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا))(٢) فليس الهدف هنا القص ، وانما الهدف بيان رضاء الله عن عبده ورسوله لاخلاصه ، فاجتباه ووهب له الرسالة واصطفاه نبيا ، وحباه بكلماته ، وزاده بركة بجعل أخاه هارون نبيا .

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي - د . عبد الرازق أبو زيد : ١٣٨ طبعة ١٩٧٦ م .

(٢) سورة مريم - آية : ٥١ - ٥٢ .

وقال تعالى ((واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعـــد وكان رسولا نبيا * وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا *))(١) .

وكما عرفنا فليس الهدف هنا القصّ ، وانما بيان رضاء الله سبحانه ومنته عـــلى عبده ورسوله اسماعيل ، جزاء صدقه ، وأمر أهله بالصلاة والزكاة ، فاجتباه ربه وأكرمه بالنبوة والرسالة ، وزاده برضاه عنه ، وهكذا فالجزاء من جنس العمل .

وقال تعالى ((واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيـــــا * ورفعناه مكانا عليـــا *))(٢) ، فكان صديقا ، وهي أرفع درجات التصديـــق والايمان ، وكان نبيا ، حصّنه الله وعصمه ((ورفعناه مكانا عليا)) وهـــــي السماء الرابعة - قول لأنس رضي الله عنه .

أو الجنة لا شيء أعلى منها - قول للحسن رضي الله عنه .

كل ذلك منّة منه سبحانه وكرما وتذكيرا للنبي صلى الله عليه وسلم بتلك المـــنن الجســـــام .

وقال تعالى ((ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانـت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين))(٣) ، فلوط عليه السلام آتاه اللـــه حكما ، وهو ما يجب فعله ، وعلما وهي النبوة ، ونجاه الله من القرية الـــتي تعمل الخبائث ، وأدخله الجنة مستقر رحمتـــه ، ومستودع مغفرته ، انه كـــان من الصالحـــين .

---

(١) سورة مريـــم - آية : ٥٤ - ٥٥ .

(٢) سورة مريـــم - آية : ٥٦ - ٥٧ .

(٣) سورة الأنبيـــاء - آية : ٧٤ .

((وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين *))(١) . كتب الله النجاة ليونس من الظلمات كرد فعل لتسبيحه وتوبته واستغفاره ، فجزاه الله النجاة لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، والجزاء من جنس العمل .

ومن تنوع الأسلوب اضافة معنى جديد :

والشيء الذى يلفت النظر فعلا في القصص القرآني أنها اذا تعرضت لمعنى من المعاني في موضع ، ثم تحدثت عن القصة في موضع آخر ، فانها لا تذكر ذلك المعنى فحسب ، بل تأتي بمعنى جديد لم يكن قد ذكر في

---

(١) سورة الأنبياء - آية : ٨٧ - ٨٨ .
ذكر الزمخشرى في الكشاف أن الظلمات التي عاشها يونس عليه السلام هي ظلمة الليل ، والبحر ، وبطن الحوت ، اضافة الى أن الحوت قد ابتلعه حوت أكبر منه .
أقول : وظلمة المعصية ، فضلا عن بطن الحوت ، فهو قبر متحرك ولذا يضرب به المثل ، فيقال : ما القبر الذى سار بصاحبه - ويعنون به حوت يونس عليه السلام - .
ويتساءل الزمخشرى في تفسيره كيف يكون نبي ويظن أن لن يقدر عليه ؟ .
ويجيب : ان يونس كان يعلم قدرة الله عليه ، ولكن كان يجهل القضاء والقدر على معنى " أن الله سبحانه لن يعمل فيه قدرته لأنه نبي " .
راجع : الكشاف - الجزء الثاني : ٥٨٢ .

القصة من قبل في الموضع الأول ، وهذه سمة غالبة على القصص القرآني ، فقصة ابراهيم جاءت في سورة البقرة في اطار الحديث عن موضوع رفع البيت ، قال تعالى ((واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم)) (١) .

وفي سورة ابراهيم حديث عن موضوع اسكان ذرية ابراهيم ، قال تعالى ((واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام * رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم * ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)) (٢) .

وفي سورة الأنعام حديث عن موضوع تأمل ابراهيم لملكوت السماء والأرض قال تعالى ((وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الأفلين * فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم اني برىء مما تشركون * اني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين *)) (٣) .

---

(١) سورة البقرة - آية : ١٢٧ .

(٢) سورة ابراهيم - آية : ٣٥ - ٣٧ .

(٣) سورة الأنعام - آية : ٧٥ - ٧٩ .

وفي سورة مريم نجده عن جانب محاورة ابراهيم لأبيه ((واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا * اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا * .... قال أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا * قال سلام عليك سأستغفر لك ربي انه كان بي حفيا))(١) .

وفي سورة الأنبياء حديث عن جانب تحطيم الأصنام ، قال تعالى ((وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون * قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم * قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون * قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون))(٢) .

وفي سورة الشعراء حديث عن موضوع اسناد الخلق والرزق الى المتصرف سبحانه ((الذى خلقني فهو يهدين * والذى هو يطعمني ويسقين * واذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتني ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين *))(٣) .

وفي سورة الصافات حديث عن الرؤيا المنامية ((فبشرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعي قال يا بني اني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين * فلما أسلما

---

(١) سورة مريم - آية : ٤١ - ٤٢ ، ٤٦ - ٤٧ .
(٢) سورة الأنبياء - آية : ٥٧ - ٦٣ .
(٣) سورة الشعراء - آية : ٧٨ - ٨٢ .

وتله للجبين * ونادينا ه أن يا ابراهيم * قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين *))[1] .

وهكذا نجد أن كل سورة قد أضافت معنى جديدا لم يطرق في سورة أخرى بحيث لو تضامت جميع الجزئيات في القصة في مختلف السور التي ذكرت فيها لأعطتنا صورة مكبرة لجزئيات تفرقت في مواطنها لتسير على حسب مقتضى الحال .

ولقد أعجب النقاد قديما ، ومنهم ابن سنان[2] الخفاجي ، بالتكرار على شريطة أن يكون فيه ثراء معنى واضافة جديد ، وهذا ينطبق تماما على التكرار القرآني كما لمسنا في غير موضع بأن التكرار يعطي معنى جديدا ويضيف شيئا لم يحك في قصة سابقة ، فالتكرار يشير الى أمور قد تطلبها النفس ويبحث عنها القارئ للقصة ، حيث ان هناك بعض المعاني المجملة ، فيأتي التكرار ليوضح ما أجمل من المعاني ، وما أوجز من الأفكار ، وبهذا لا يكون التكرار في القرآن عبثا ، وانما هو عادف لزيادة الايضاح ، وبسط ما استعصى فهمه ، وصعب مراده .

---

(١) سورة الصافات - آية : ١٠١ - ١٠٥ .

(٢) راجع : سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي : ١١٤ - ١١٩ ، طبعة ١٣٧٢ هـ - مطبعة محمد علي صبيح بميدان الأزهر - مصر .

ومن تنوع الأسلوب أن القرآن يفسر نفسه من خلال قصصه :

ففي قصة لوط عليه السلام ورد قوله تعالى ((فأخذتهم الصيحة مشرقين [١])) ، وقوله ((الا آل لوط نجيناهم بسحر [٢])) ، ((ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر [٣])) .

فقد فسر المقصود بالاشراق ، والسحر ، والاصباح في الآيات المتقدمة قوله تعالى ((ان موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب [٤])) ، فتحدد وقت العذاب وهو الصباح .

وقوله تعالى في قرية لوط سدوم ((وانها لبسبيل مقيم [٥])) فسرتها ((وانكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون [٦])) ، فقد كانت عير قريش تمر بهذه المنطقة ، وهي البحر الميت ، في تجارتها في رحلتي الشتاء والصيف لو كانوا يعقلون !! .

وقوله تعالى ((لا تخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين [٧])) فسرتها ((فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين [٨])) ، وهو بيت لوط عليه السلام ، عدا امرأته ، والا فالقرية كلها فاجرة .

---

(١) سورة الحجر - آية : ٧٣ .
(٢) سورة القمر - آية : ٣٤ .
(٣) " " - " : ٣٨ .
(٤) " هود - " : ٨١ .
(٥) " الحجر - " : ٧٦ .
(٦) " الصافات - آية : ١٣٧ - ١٣٨ .
(٧) " العنكبوت - " : ٣٣ .
(٨) " الذاريات - " : ٣٥ - ٣٦ .

((قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وانك لتعلم ما نريـــد))[١]

فسرها ((ولوطا اذ قال لقومه أتأتـــون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون))[٢].

وفي قصة شعيب عليه السلام ((وان كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم وانهما لبامام مبين *))[٣] فسرتها ((والى مدين أخاهم شعيبـــا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيـــل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحهـــــا ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين))[٤].

فاذن الظلم الذى أتاه أصحاب الأيكة هو التطفيف في المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم والافساد في الأرض بعد اصلاحها ، والكفر ، وهـــل بعد الكفر ذنب ؟ .

وقوله تعالى ((قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين))[٥].

جاء في سورة هود تعليل وتفسير للتحامل على شعيب والعزم عـــلى اخراجه ((قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ، انك لأنت الحليم الرشيد ... قالوا يا شعيب ما نفقـــه

---

(١) سورة هود - آيـــة : ٧٩ .
(٢) سورة الأعراف - آية : ٨٠ - ٨١ .
(٣) سورة الحجر - آية : ٧٨ - ٧٩ .
(٤) سورة الأعراف - آيـة : ٨٥ .
(٥) سورة الأعراف - آيـة : ٨٨ .

كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز))[1] ، فهنا قد ظهر الدافع الذى حملهم على مهاجمة شعيب ومن تبعه ، والاصرار على اخراجه من قريتهم ، لأنه منعهم من التطفيف ، وأمرهم بايفاء المكيل والموزون .

وفي قصة هود عليه السلام ، قوله تعالى ((ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء))[2] فسرتها ((انا لنراك في سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين))[3] فقد رموه بالسفاهة وهي الجنون ، وعادوا مرة أخرى يؤكدون هذا المعنى فلو لم تتقدم آية السفاهة في سورة الأعراف ، من أين كان لنا أن نصرف بما اعتراه بعض آلهتهم على حسب زعمهم في سورة هود .

ومن ذلك موقف قومه منه ، وموقفه من قومه ، ففي سورة الأعراف ((قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك في سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين))[4] .

وفي سورة هود ((قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين))[5] .

ففسروا المقصود بالسفاهة وهى النزغ والجنون بعدم مجيئه لهم ببينة دالة على صدقه .

وقد رد عليهم هود عليه السلام في سورة الأعراف بقوله ((قال يا قوم

---

(١) سورة هود - آية : ٨٧ ، ٩١ .
" ذكر الثورى بانه كان ضعيف البصر وكان يسمى خطيب الأنبياء " .
راجع : ابن كثير : ٢٥٧ الجزء الثاني .
بعزيز : ليس لك عندنا معزة وليس ما يجعلنا نتمسك بك .
(٢) سورة هود - آية : ٥٤ . (٣) سورة الأعراف - آية : ٦٦ .
(٤) سورة الأعراف - آية : ٦٦ . (٥) سورة هود - آية : ٥٣ .

ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين * أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون (١) .

وفي سورة هود ((قال اني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون * اني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم)) (٢) .

ففي السورة الأولى أثبت لنفسه الرسالة ونفى عنها السفاهة ، وفي الثانية أوكل أمره الى الله في نجاح دعوته ، وأكد المعنى الذى قصد اليه في الأولى ، وهو نفي السفاهة بقوله ((فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون)) .

وفي قصة ابراهيم قال تعالى ((قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم * فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين)) (٣) .

فسرها قوله تعالى ((فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار ، ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون)) (٤) .

وقوله تعالى ((ولقد أرسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون)) (٥) .

فسرها في سورة العنكبوت ((ووهبنا له اسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته

---

(١) سورة الأعراف - آية : ٦٧ - ٦٩ .
(٢) سورة هود - آية : ٥٤ - ٥٦ .
(٣) سورة الصافات - آية : ٩٧ - ٩٨ .
(٤) سورة العنكبوت - آية : ٢٤ .
(٥) سورة الحديد - آية : ٢٦ .

النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين (١) .

ففي الآية الأولى اخبار من المولى عز وجل بارسال نوح وابراهيم وجعل في ذريتهما النبوة والكتاب ، جاءت الآية الثانية فأوضحت هذه الذرية والنبوة فيهما والكتاب ((ووهبنا له اسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا)) (٢) .

ومن ذرية يعقوب يوسف واخوته الأسباط ، ثم موسى وهو من سبط لاوى بن يعقوب ، ومن ذريته عيسى ، ولوط بن هاران ابن أخي ابراهيم واسماعيل بن ابراهيم وهو جد المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى ((قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انّا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده الا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير)) (٣) .

((ربنا اغفر لي ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب)) (٤) .

((واغفر لأبي انه كان من الضالين)) (٥) .

---

(١) سورة العنكبوت ـ آية : ٢٧ .

(٢) سورة مريم ـ آية : ٤٩ .
يقول ابن كثير أما الخليل عليه السلام فلم يبعث الله عز وجل نبيا الا من ذريته ، وابراهيم من ذرية نوح ، فان المولى عز وجل لما أغرق أهل الأرض الا من آمن وهم الذين صحبوه في السفينة ، جعل الله ذريته هم الباقين ، فالناس كلهم من ذريته " .
راجع : ابن كثير ـ المجلد الثاني : ١٥٤ .

(٣) سورة الممتحنة ـ آية : ٤ .

(٤) سورة ابراهيم ـ آية : ٤١ .

(٥) سورة الشعراء ـ آية : ٨٦ .

((قال سلام عليك سأستغفر لك ربي انه كان بي حفيا)) (١) .

كل هذه الآيات تثير سؤالا ، كيف يستغفر لأبيه وهو يعلم أنه كافر ، والكافر لا يجوز الاستغفار له ، والترحم عليه ، وهذا السؤال انما يدور بخلد من قرأ الآيات من غير استقصاء ، ويزداد حيرة حين يسمع قول الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بشأن المنافقين ((استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لا يهدى القوم الفاسقين)) (٢) .

ولكن تزول الحيرة ويذهب الاستفهام أبا ديد حين يسمع قوله تعالى ((وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه ، فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ، ان ابراهيم لأواه حليم)) (٣) .

فقد فسرت هذه الآية الاشكال ، وأزالت الابهام الوارد في الآيات المتقدمة ، فما القصص القرآني في تكراره الا مفسرا وشارحا لبعضه البعض .

وهكذا نرى أن القصة ما تكرر الا لفائدة خلت عنها في موضع آخر ، فكان التكرار أمرا يطلبه المعنى ويقتضيه الموقف القرآني .

ولعل ما ذكره الزركشي (٤) يؤكد هذا المعنى الذى وصلت اليه فيقول :

---

(١) سورة مريم - آية : ٤٧ .

(٢) سورة التوبة - آية : ٨٠ .

(٣) سورة التوبة - آية : ١١٤ .

(٤) راجع : البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٢٥ - ٢٦ ، المجلد الثالث - الطبعة الثانية - الناشر : دار المعرفة - بيروت .

ذكر الله موسى في القرآن في مائة وعشرين موضعا ، ونوحا في خمسة وعشرين موضعا ، وذلك لأن التكرار القرآني انما يكون من أجل أن تحدث الفائدة في موضع خلت عنه في الموضع الآخر ، ويذكر أن القصة القرآنية اذا كررت زاد فيها شيء ، فالله حينما ذكر الحية في عصا موسى ، ذكرها في موضع آخر ثعبان ، وهكذا كانت أسرار التكرار في القصة القرآنية تلوح لكثير من الباحثين الذين تعمقوا في فهم القرآن الكريم ، والوصول الى أهدافه السامية .

ومن تنوع الأسلوب اختلاف القصة في عرضها :

فتارة تقدم نهاية من نهايات القصة على عنصر البداية أو على النقطة الأولى من نقاط القصة ، وذلك لبيان أن هذا العنصر المقدم هو محور الحديث والركن الأساسي في القصة ، من ذلك قصة موسى عليه السلام وردت في سورة طه ، والقصص ، والشعراء ، وغيرها ، ولكنها في سورة طه قدّم فيها ذكر النهاية ، ثم بدأ الباري سبحانه في سرد بقية القصة ((وهل أتاك حديث موسى * اذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى * فلما آتاها نودى يا موسى * اني أنا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى * .... ولقد منّا عليك مرة أخرى * اذ أوحينا الى أمك ما يوحى * أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له * وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني)) (١) .

وتارة يبدأ القصة من بدايتها هكذا ((وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادّوه اليك وجاعلوه من المرسلين * فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين * وقالت امرأة فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون * وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون)) (٢) .

---

(١) سورة طه - آية : ٩ - ١٢ ، ٣٧ - ٣٩ .
(٢) سورة القصص - آية : ٧ - ١١ .

ثم تحدث بعد ذلك عن بعثة موسى فقال ((فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله))[١] ، وذلك لأن سورة طه مطلعها يدل على أن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانزال القرآن عليه من الأهمية بمكان ، فهي سر الحديث ومناط الاعتزاز ، كما هو واضح في قوله تعالى ((طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى))[٢] ، فمن التوافق بمكان أن يبدأ القصة ببعثة موسى ومناداته حتى يتلاءم الكلام القرآني ، ولو لم تكن هي بداية الحدث القصصي بترتيبه الزمني .

أما في سورة القصص ، فمن المناسب أن تعرض القصة الموسوية مرتبة أحداثها ترتيبا زمنيا ، حيث ان عنوان السورة يوحي بأنها ما كانت الا لتخبر عن نبأ من الأنباء له ما له من العبرة البالغة ، والمدلولات التي من ورائها الأسرار الكامنة في هذه الرعاية الالهية التي ظللت موسى عليه السلام ، حتى منّ الله عليه بهباته ، وأفاض عليه من واسع عطائه ، في الوقت الذى دحر فيه أهل الصلف والطغيان .

لقد أجلت السورة القصة الموسوية من بدايتها الى نهايتها ، حتى تم التسلسل الفكرى بين أحداثها ، وبذلك انكشفت جوانبها ، ولاحت جزئياتها متناسقة محكمة .

ولقد أبان الحق عز وجل في مطلع السورة عن الغاية من تلاوة تلك الأحداث ، فقال عز من قائل ((طسم * تلك آيات الكتاب المبين * نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون))[٣] .

---

(١) سورة القصص - آية : ٢٩ .
(٢) سورة طه - آية : ١ - ٢ .
(٣) سورة القصص - آية : ١ - ٣ .

وقصة آدم عليه السلام فيها تقديم ذكر العاقبة ((ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما))[١] ، ثم يستمر عرض السورة هكذا ((واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى * فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى * ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وانك لا تظمؤا فيها ولا تضحى * فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى * فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى))[٢] .

وذلك على النقيض مما ورد في سورة الأعراف ((ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين * فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين))[٣] .

---

(١) سورة طه - آية : ١١٥ .

(٢) سورة طه - آية : ١١٦ - ١٢٢ .

(٣) سورة الأعراف - آية : ١٩ - ٢٣ .

وقصة آدم كما جاءت على طريق الحوار كما في سورة الأعراف ((ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين * قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين * قال أنظرني الى يوم يبعثون * قال انك من المنظرين * قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين * قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين))(١) .

فقد وردت عن طريق السرد مع شيء من التفصيل ، كما في سورة البقرة ((واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني أعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون * واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين))(٢).

---

(١) سورة الأعراف - آية : ١١ - ١٨ .

(٢) سورة البقرة - آية : ٣٠ - ٣٤ .

الباب الثالث

الباب الثالث

ملامح القصة القرآنية

الفصل الأول :

عنصر التشويق .

الفصل الثاني :

رسم الشخصية القرآنية وحيويتها .

الفصل الثالث :

أحداث القصة القرآنية من حيث ترابطها وواقعيتها .

الفصل الرابع :

ما تهدف اليه القصة من قيم ومعالجة انسانية .

* * * * * *
* * * *
* *

الفصـــل الأول

عنصـــــر التشـــــويق

هذا ومن خصائص القصة الفنية القرآنية تنوع طريق المفاجأة وذلك اما :

١ - بأن يكتم السر عن البطل والنظاره حتى يكشف لهم في آن واحد .

٢ - واما بأن يكتم السر عن أبطال القصة في حين يكشف للنظاره .

٣ - واما بأن يكشف بعض السر للنظاره وهو خاف عن البطل في موضـــع ، وخاف عن النظاره وعن البطل في موضع آخر في القصة الواحدة .

٤ - واما أن لا يكون هناك سر بل يفاجأ البطل والنظاره بالموضوع دفعـــة واحدة من غير ترقب وانتظار .

فمن الأول وهو ما جاء خاف فيه السر عن البطل والنظاره حتى يكشف لهم معـا قصة موسى عليه السلام ، بعد أن غادر مدين مع أهله ، وكانت ليلة شاتيـــة مطيرة ، فقدح موسى زنده فأصلد ، هنالك حانت التفاتة منه الى الأفق فأبصر نارا تتراءى فأسرع اليها قائلا لأهله امكثوا ((اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى))[١] .

ويفزع موسى الى النار فيجدها تمتد نورا في شجرة عناب ، وهنا يعتريه الذهول نورا يمتد ويرتفع الى العنان بدون أن يكون له دخان .[٢]

---

(١) سورة طـــه - آيـة : ١٠ .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير - المجلد الأول : ١٠٠ - الطبعـــة الثانيـــة .

وهنا يبدأ السر في التجلي لموسى عليه السلام وللنظارة حين نسمع مع موسى تلك المناداة من رب العزة والجلال ((اني أنا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى * ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى))(١) .

فالسر الذى استكان في النار قد خفي علينا كما خفي على بطل القصة كليم الله حتى تجلى في ملك الملوك ، وكانت ليلة من أسعد ليالي العمر لكليم الله ، حيث تشرف بمخاطبة البارئ عز وجل ، وحيث تشرف بالنبوة والرسالة .

واما أن يكتم السر عن أبطال القصة في حين يكشف للنظارة فمثاله : قصة الخليل عليه السلام في تحطيمه للأصنام ، فانها معلومة للسامعين ، بينما أبطال القصة الحقيقيين يجهلونها ، قال تعالى على لسان خليله ((وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون))(٢) ، فقد علمنا الفاعل بينما قوم ابراهيم يجهلونه ((قالوا من فعل هذا بالهتنا انه لمن الظالمين)) فهم يجهلونه . .

وأصحاب الجنة ((اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين * ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم)) ، فبينما نحن نعلم هذا كان أصحاب الجنة يجهلونه .

---

(١) سورة طه - آية : ١٢ - ١٦ .
(٢) سورة الأنبياء - آية : ٥٧ - ٥٨ .

((فتنادوا مصبحين * أن اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين * فانطلقوا وهم يتخافتون * ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين * وغدوا على حرد قادرين)) [١] ، وقد ظللنا نحن النظاره ، نسخر منهم وهم يتنادون ويتخافتون ، والجنة خاوية كالصريم حتى انكشف لهم السر أخيرا بعد أن شبعنا تهكما وسخرية ((قالوا انا لضالون بل نحن محرومون)) ! وذلك جزاء من يحرم المساكين [٢] .

ومنه في مقام العظة والاعتبار قصة الذى مر على قرية ((أو كالذى مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، قال أنى يحي هذه الله بعد موتها)) ؟ ! ((فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت)) ؟ .

فبينما نحن نعلم مدة موته ، كان يجهل ذلك حتى قال ((لبثت يوما أو بعض يوم)) يظن نفسه نائما ((قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس ، وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير)) [٣] .

---

(١) سورة القلم - آية : ٢١ - ٢٥ .

(٢) راجع التصوير الفني في القرآن - لسيد قطب - الطبعة السادسة ص ١٥١ .
وأما صاحب القرية ، فقد ذكر ابن كثير في تفسيره بأنه عزير ، والرواية لعلي بن أبي طالب .
لم يتسنه : لم يتغير .
ننشزها : نحييها .
راجع : تفسير ابن كثير - المجلد الأول : ٣١٤ .

(٣) سورة البقرة - آية : ٢٥٩ .

وأهل الكهف وقيامهم بعد ثلاثمائة سنة وتسع ، وعودتهم الى المدينة لشراء الطعام وهم لا يعرفون حقيقة أمرهم فلقد ظنوا أنهم ناموا لحظة من اللحظات ، أما السامعين للقصة فمعروف عندهم أنهم ناموا ثلاثمائة وازدادوا تسعا ، وعلى ذلك فالوضع في المدينة قد تغير وتبدل ، قال تعالى ((أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا * اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا * فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا * ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا * نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى))(١).

وأما ما كشف فيه بعض السر للنظاره :

فمثاله عرش بلقيس الذى جيء به في غضة عين ، وعرفنا نحن انه بين يدى سليمان ، في حين أن بلقيس ظلت تجهل ما نعلم ، فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو !

فهذه مفاجأة عرفنا نحن سرها سلفا ، ولكن المفاجأة الصرح الممرد من قوارير ، ظلت خافية علينا وعليها حتى فوجئنا بسرها معا ، حينما ((قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، قال انه صرح ممرد من قوارير))(٢) !

وقصة موسى عليه السلام وتربيته في بيت فرعون فهو معلوم للنظاره مجهول لأم موسى لأنها وضعته في التابوت ولا تعلم أين يستقر ، بينما قد

---

(١) سورة الكهف - آية : ٩ - ١٣ .

(٢) سورة النمل - آية : ٤٤ .

علمنا سير التابوت الى بيت فرعون ((فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عـــــدوا وحزنـــــا))[١] .

ولم تعلم أم موسى به الا بعد أن ذهبت أخته تقصه ، وبعد أن حرّم اللـــه عليه المراضع تحقيقا لما وعد الله به أم موسى .

أما حقيقة الرد فذاك أمر خاف علينا نحن النظاره ، وعلى البطـــل التي هي أم موسى على معنى كيف سيرجع اليها هل سيرجع في التـــابوت ؟ أم على يد شخص يحمله ؟ ، وهل سيعود شابا أم شيخا ؟ وهل عودته فـــي وقت قريب أم بعيد ؟ .

لأن الرب أخبرها بعودته ولكن على أى شاكلة ، فهذا ما تجهله هي ونحـــن قال تعالى ((انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين))[٢] .

ثم عاد اليها عن طريق المراضع بعد أن امتنع عن قبول أى ثدى حـــتى دلتهم أخته على أمه ((فرددناه الى أمه كي تقر عينها ولا تحزن))[٣] .

وأما أن لا يكون هناك سر ، بل يفاجأ البطل والنظارة بالموضوع دفعة بدون سرية فمثاله : قصة نبي الله يونس حينما ركب في السفينة واستهم أهلها لم يكن يدر بخلده ولا النظارة أن السهم سيقع عليه ومن ثم فوجئنا واياه بذلـــك ((فساهم فكان من المدحضين))[٤] .

---

(١) سورة القصص ـ آية : ٨ .

(٢) سورة القصص ـ آية : ٧ .

(٣) سورة القصص ـ آية : ١٣ .

(٤) سورة الصافات ـ آية : ١٤١ .

ونبأ الخصم اذ تسوروا المحراب فلم يكن داود ليعلم أن هؤلاء الخصم ملكين كريمين جاءا لمعاتبته ، وكذا النظارة مما هو ظاهر الآيات الكريمات ((وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب * اذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط * ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزني في الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم))(١) .

ثم اتضح الموقف وانجلى الأمر فتبين أن هؤلاء رسل ربه ما جاءوا الا ليقرروا حقيقة من الحقائق كانت غائبة عنه ، وما كان لنبي من أنبياء الله أن يقع فيها ((وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب * ففغرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب)) .

وفاجآت قصة السيدة مريم البتول حين اتخذت من دون أهلها حجابا فتفاجأ بالروح الأمين في هيئة رجل فتقول اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا ، نعم اننا عرفنا قبلها بلحظة أنه الروح ، ولكن الموقف لم يطل فقد أخبرها بذلك قائلا ((انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا)) !

وقد فوجئنا كذلك معها اذ جاءها المخاض الى جذع النخلة ((قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا * فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا))(٢) .

---

(١) سورة ـ ص ـ آية : ٢١ ـ ٢٥ .
(٢) سورة مريم ـ آية : ٢٣ ـ ٢٤ .

وقصة ابني آدم ((اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك)) فيتوعده بالقتل ولكنه يعرض عنه مفوضا أمره الى الله ((لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك)) .

ونفاجأ بقابيل وهو يقتل أخاه هابيل ((فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين)) ، ونفاجأ مرة أخرى بالغراب وهو يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه ((قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخي فأصبح من النادمين))[1] .

وفي موقف موسى مع السحرة ((قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون)) ! ونفاجأ مع موسى بالسحرة ((يلقون حبالهم وعصيهم فاذا هي يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى)) .

ونفاجأ مرة أخرى بموسى يلقي عصاه ((فاذا هي تلقف ما يأفكون)) .

وثالثة بالسحرة يلقون سجدا ((فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى))[2] .

والهدهد في مملكة سليمان فقد تفقده سليمان يوما فلم يجده ، فأقسم ليوقعن به أو يأتي بعذر واضح مقبول ((وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين * لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين)) .

ويظهر الهدهد فجأة ليقول في لهجة المنتصر مخاطبا نبي الله سليمان

---

(١) سورة المائدة - آية : ٢٧ - ٣١ .

(٢) سورة طه - آية : ٧٠ .

عليه السلام ((أحطت بما لم تحط به)) ويتجلى هذا الاكتشاف في امـــرأة تملك أرضا بجوار سليمان ، وتعبد الشمس ((وجئتك من سبأ بنبأ يقـــين * اني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون)) (١) .

ومن السمات البارزة في القصص القرآني أنها مشعل تشويق ، ومنـارة تعطش حتى لمسنا فيها طرائف متعددة من ألوان اثارة السامع والقارىء .

فتارة نرى أن العقدة حينما يشتد أوارها حتى تحار النفس فـــي حقيقتها يأتي الحل الذى يزيل معجمها ، ويدفع خفاياها .

وهناك ما تتوالى فيها العقد على أن تحل كل جزئية منها أولا بأول ، وقد نرى عكس ذلك ، فنرى توالي العقد وتشابكها على أن تؤجل حلولها الـى نهاية سردها فتأتي مجتمعة دفعة واحدة وذلك كقصة موسى مع العبد الصالح في سورة الكهف ، جاءت فيها العقد مجتمعة ، وجاءت عقب ذلك حلولهـــا دفعة واحدة ، فموسى يلتقي مع العبد الصالح ويركبان السفينة فيقوم الرجـــل الصالح بخرقها ، وتعترى الدهشة موسى والسامعون لماذا أقدم الرجل عـلى هذا العمل ؟ وهل يعقل ما يفعل ؟ والسفينة سوف تغرق ؟ ! ((أخرقتهـا لتغرق أهلها لقد جئت شيئا امرا)) (٢) ؟

ثم يقتل الغلام ، وهذا أمر أشد اثارة من الأول !

((أقتلت نفسا زكية بغير نفس ، لقد جئت شيئا نكرا)) (٣) ؟ .

---

(١) سورة النمـــل - آية : ٢٢ - ٢٤ .
(٢) سورة الكهـــف - آيـة : ٧١ .
(٣) سورة الكهـــف - آيـة : ٧٤ .

وفي اصلاح الجدار ((لو شئت لاتخذت عليه أجرا [١])) ؟ !

ان موسى والسامعين في منتهى الشوق لمعرفة حل هذه العقد الثلاث ، ويأتي الحل : ((أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا)) [٢] .

((وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا)) [٣] .

((وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ، ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا)) [٤] .

---

(١) سورة الكهف - آية : ٧٧ .

(٢) سورة الكهف - آية : ٧٩ .

القصة في سورة الكهف يقال : ان الرجل الصالح قال لموسى : يا موسى لا تلوم فتلام ، لحتني على خرق السفينة وخشيت على أهلها الغرق ونسيت حين وضعتك أمك في التابوت وألقتك في اليم ولم تخش عليك الغرق ؟ !

(٣) سورة الكهف - آية : ٨٠ .

لحتني على قتل الغلام ونسيت حين قتلت القبطي ؟ ! وأصبحت في المدينة خائفا تترقب ؟ !

(٤) سورة الكهف - آية : ٨٢ .

ولحتني على اصلاح الجدار ونسيت حين سقيت لابنتي شعيب بدون أجر يا موسى ، لا تلوم فتلام .

وأما القصة التي يأتي فيها الحل عقب العقدة ، وتتوالى فيها العقد يعقبها الحلول ، فقصة موسى منذ ولادته (١) الى حين بعثته ، اذ تشتمل على العقد التالية : ١ - وضعه في التابوت ٢ - قتل النفس ٣ - سقيه لابنتي شعيب ٤ - موقفه من السحرة ٥ - النهاية العامة للقصة ، وكل عقدة يعقبها حل فهي تحل أولا بأول .

فأما العقدة الأولى فحينما تؤمر أمه بوضعه في التابوت وقذفه في اليم ويبدو الابهام في طريقة الرد ؟ كيف سيكون ؟ ومتى ؟ وأين ؟ .

ويظل المتفرجون في حيرة من كل هذا ، وفجأة يظهر التابوت على الساحل أمام بيت فرعون ((فالتقطه آل فرعون)) .

وماذا سيكون مصيره ؟ هل سيقتله ؟ أم يبقيه ؟ وقالت امرأة فرعون ((قرت عين لي ولك لا تقتلوه)) .

وفي قتله للقبطي وهو من شيعة فرعون ((فوكزه موسى فقضى عليه)) .

يا ترى ماذا سيصنع فرعون بموسى ؟ وما سيصنع موسى ؟

أما من جانب فرعون فالملأ يأتمرون به ، وأما من جانب موسى فقد فرّ الى مدين ((فخرج منها خائفا يترقب)) .

ولما توجه تلقاء مدين وقدّم خدماته لابنتي شعيب فسقى لهما ثم تولى الى الظل ما هي نوع المكافأة التي سيقدمانها له ؟

((فجاءته احداهما تمشي على استحياء قالت ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ... قال اني أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين (٢))) .

---

(١) راجع سورة القصص .

(٢) سورة القصص - آية : ٢٥ - ٢٧ .

ويرحل بأهله بعد انقضاء الأجل ويلتقي برب العزة والجلال من جانب الطور ، ويبعثه الى فرعون الذى فرّ منه ((اذهبا الى فرعون انه طغى)) .

فماذا يا ترى سيقابله فرعون ؟ وهل سيؤاخذه بقتل النفس ؟ وماذا سيواجه دعوته ويرد عليه ؟ .

((قال ألم نربك فينا وليدا ؟ ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ * وفعلت فعلتك التي فعلت ؟))(١) .

وهكذا نجد فرعون قد امتن على موسى وأنّبه على قتل النفس ، ولكنه لم يوقع به ، بل ظل يطارحه ((وما رب العالمين)) ؟ . . . الخ .

ويلتقي موسى بالسحرة في يوم مشهود ((يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى))(٢) .

فهل يا ترى ماذا سيجرى بين موسى والسحرة والكل يتوقع الغلب لنفسه ؟

ويقول السحرة ((اما أن تلقي واما أن نكون أول من ألقى))(٣) .

قال ((بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى))(٤) .

ويلقي موسى عصاه ((فاذا هي تلقف ما يأفكون)) .

ونلتقي أخيرا بالنهاية العامة للقصة ، وهو ما مصير موسى وفرعون ؟

فنجد الخاتمة نجاة موسى وغرق فرعون وجنوده ((فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين))(٥) .

---

(١) سورة الشعراء - آية ١٨ - ١٩ .

(٢) قال ابن عباس : كان يوم الزينة هو يوم عاشوراء .
وقال السدى : كان يوم عيدهم .
راجع : مختصر تفسير ابن كثير - للشيخ محمد علي الصابوني - المجلد الثاني : ٤٨٤ ، طبعة ١٣٩٣ هـ ، الطبعة الأولى ، مطبعة دار القرآن الكريم .

(٣) سورة طه - آية : ٦٥ .

(٤) سورة طه - آية : ٦٦ .

(٥) سورة القصص - آية : ٤٠ .

وأما القصة التي تقوم على عقدة يعقبها حلها ، وذلك بالنسبة للقارىء هو ماذا سيكون موقف أصحاب الجنة في سورة القلم ((وقد أصبحت كالصريم)) ؟ والجواب انهم سيصعقون ، ثم يثوبون الى رشدهم فيعترفون بظلمهم في حرمان المساكين فيقولون ((انا لضالون * بل نحن محرومون)) .

ومن هذا قصة السيدة مريم (١) ، فالعقدة التي تقوم عليها القصة هي عقـــــدة حملها حينما مسها الملك .

هنا يحار القارىء ، هل نتيجة هذا المس الحمل الطبيعي ؟

واذا كان الحمل طبيعيا ، هل سيأخذ النظام الكوني المألوف ؟

واذا وضعت كما يضع سائر البشر ، ما يكون موقفها ازاء قومها ؟

وما هي نهاية هذا المولود الذى سيكون ؟

كل هذه التساؤلات تحيط بالقارىء وهو لا يعرف لها حـــــــلا الا أن يعرض عليه المولى عز وجل أنباءها .

فلقد أخبر تعالـــى بحملها فقال ((فحملتـــه)) .

وأخبر باتيانها المخاض ((فأجاءها المخاض)) .

وأخبر بولادتها ((فناداها من تحتها)) .

وتحدث عن المولود الذى كانت ولادته عجبا ، وطفولته عجبا ، وأحداثـــــه عجبا ، ومستقبله عجبا .

---

(١) راجع سورة مريم القصة .

وبهذا كله حلت الألغاز ، وفكت الطلاسم ، فسكنت العقول ، وهدأت النفوس ، وانتهت التساؤلات .

هذا وعنصر التشويق اذا كان يتمثل في جانب عقدة وحلها ، فان له جانبا آخر هو جانب العرض ، والقرآن حينما عرض علينا موقف زليخا الذى فيه انحدار لغريزتها ، وضعف لشخصيتها ، صوره لنا بعنصر شوق ، وبعبارة تجذب النفوس لأحداث القصة ، وكل ذلك في عبارة وقورة ، ولفظ بعيد عن خدش الحياء ، وفي الوقت ذاته نرى أن هذا الحدث وان صوّر الواقع كاملا ، ورسم الحدث بتمامه ، الا أنه لا يوسي بقوة صاحبه وتباهيه بما صنع ، وانما ينم عن ندم وحسرة وارتباك نفسي ، وفي تصويره لانحدار غريزة زليخا :

١ - غلقت الأبواب .

٢ - قالت هيت لك .

٣ - دعوتها للنساء اللائي لمنها على صنيعها مع يوسف ((وقالت نسوة في المدينة ، امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ....)) .

((فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن واعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا (١))) .

---

(١) راجع سورة يوسف .

هيت لك : أى هلم لك - بالحورانية - ومعناها : تعال .

انظر : مختصر تفسير ابن كثير - للصابوني - ٢٤٥ - المجلد الثاني .

وفي آدم ، وفي تصوير انحدار غريزته وهبوط بشريته :

١ - فأزلهما الشيطان عنها .

٢ - فوسوس لهما الشيطان .

٣ - فنسي آدم ربه فغـــوى .

انه تصوير وان دلّ على الانزلاق والانحدار للغرائز البشرية التي تصـــرف الانسان عن طاعة الله ، وتبعده عن جانب الحق .

الا أننا نحس بأن هذا التصوير ليس فيـه ما يدل على أن صاحبه قد صنع أمرا خارقا ، أو ارتكب فعلا قد يتباهى به أمام مجتمعه ، وانما هـي أحداث تشف عن نفس كثيـرة ، لأنها انحدرت في الهاويـة ، وسارت فـي مسالك الهوى ، ومن ثمّ رأينا آدم عليه السلام يلوذ بتوبته ((ثم اجتبـاه ربه فتاب عليه وهدى))(١) .

وبهذا نرى أن القرآن الكريم كانت قصته مشوقة تمام التشـــويق ، لما رآه كثير من النقـاد المحدثين الذين رأوا في مظاهر التشويـــق أن لا تكون عقدتـه مفتعلة ، وأن تتسق المقدمة مع النتيجـة ، وأن لا تكون العقدة كاللغـز الذى يحار في فكـه ، وهو ما يطلق عليه بالعقدة الضادة بل ان العقدة في القصة القرآنية مهما استغلق هدفها ، فسرعان ما يحـكي القرآن الحل لها ، ويأتي بالنتائج المحققـة التي من ورائها العظـــة والعبرة ، فليس في القصـة القرآنيـة ما يسمى بالعقـدة الضـــادة

---

(١) سورة طـه - آيـة : ١٢٢ .

وهو ما يعمد اليه بعض مؤلفي[1] القصة الحديثة ، بوصول العقدة الى أوج الطلاسم ، ظنا منهم أن ذلك يزيد من تشويق القارئ .

بل ان القرآن الكريم في قصصه كان جذابا في تشويقه من غير اغلاق محكم ، واخفاء مستعص على الأذهان ، قد يطول حله ، ويضيق النفس طويلا في الوصول الى مراميه ، بل كان القرآن مشوقا بدون هذه التعمية التي لا تفيد الاّ فساد المعنى .

فالقرآن الكريم حوادثه وان أدت الى خلق العقدة ، فاننا نلاحظ أنها كانت بطريقة منطقية طبيعية يتقبلها العقل ، ويألفها الوجدان .

ولعل قصة[2] يوسف عليه السلام ، وهي أحسن القصص تصور لنا عن طريق العرض المشوق ، ألوان الاثارة من خلال الرؤيا التي رآها يوسف ((يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين)) ثم مراودة الأخوة أباهم ليدفع اليهم أخاهم ((أرسله معنا غدا يرتع ويلعب)) ثم قذفه في البئر وادعاء أن الذئب قد أكله ((يا أبانا انّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب)) ، هنا تبدو النفس مشدودة الى معرفة مصير يوسف ؟ وما الذى سيحدث له بعد ذلك ؟ هل سيخرج أم لا ؟ ،

---

(١) راجع : القرآن والقصة الحديثة ـ لمحمد كامل حسن : ٣٠ .

(٢) راجع : سورة يوسف .

ويلتقطه السيارة (١) ، فيا ترى هل سيستخدمونه ، أم ماذا ستصنع به السيارة ؟ ويباع بثمن بخس ، وأين ؟ في مصر ! بعيد أشد البعد عن موطنه الأصلي فلسطين ، ويباع لمن ؟ للعزيز (٢) !

الا ثارة تشتد في معرفة مصير يوسف في هذا البيت الشامخ الوجيه ، وكيف سيتأقلم مع أسلوب الحياة هناك ، وتعلونا مظاهر الا رتياح حين نسمع العزيز يقول لا مرأته ((أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا)) .

ونتساءل ، هل ستكرم امرأة العزيز مثواه ؟ أم تنظر له نظرة الدخيل ؟ ، ونتشوق الى معرفة معيشته هناك ؟

ونفاجأ بمراودة امرأة العزيز له ((وراودته التي هو في بيتها عن نفسه))

ونتشوق الى معرفة موقف يوسف معها ؟ هل سيصعق من هذه الفاجأة ؟ أم يخضع لا رادتها ، لا سيما وهي وليمة نعمته ، ويعيش معها ، وليس هو مظنة للتهمة ، لأن عيشه معها عاد كابن لها ، فالشكوك لا تتطرق اليه ، ويأتي الرد على هذه التساؤلات في تعوذ يوسف من هذه الفعلة ((قال معاذ الله ، انه ربي أحسن مثواى ، انه لا يفلح الظالمون)) (٣) .

---

(١) السيارة : المارة من المسافرين ،

مختصر تفسير ابن كثير - المجلد الثاني : ٢٤١ .

(٢) العزيز : الوزير .

مختصر تفسير ابن كثير للصابوني - المجلد الثاني : ٢٤٨ .

(٣) سورة يوسف - آية : ٢٣ .

وهنا نتشوق أيضا الى معرفة ردها ، هل ستوقع به ؟ أم تحاول تلافي الموقف ، وترجو من يوسف أن لا يخبر زوجها بالأمر ؟ ولكن الموقف يزداد توترا ويتفاقم حدة ، بعد أن نفاجأ بالزوج العزيز ، يدخل في نفس اللحظة التي كان يوسف يركض موليا الأدبار ، وهنا يصيبنا الذهول العميق حين نسمع امرأة العزيز ترمي يوسف بتهمة الخيانة ((قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا))(١) .

ونتشوق الى معرفة موقف العزيز من يوسف ، لا شك بأنه موقف حرج للغاية ، فيوسف يريد من العزيز أن يحسن الظن به وهو مظلوم ، والعزيز يا ترى يصدق من ، ويكذب من ؟ .

ويحل اللغز ، وتتبدد الحيرة حين شهد شاهد من أهلها ((ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين * فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم))(٢) .

وينتقل يوسف الى السجن بعد هذه التهمة المنكرة ، وكانت حالة يوسف عند دخوله السجن مزيجا من الفرح والحزن ، الفرح لأنه ابتعد عن بيت المكر والخديعة ، والحزن لأنه سجن ظلما ، والسمعة السيئة لمن لا يعلم حقيقة الحال ، لكن السجن كان فاتحة خير له ، ورب محنة ضمنها منحة

---

(١) سورة يوسف - آية : ٢٥ .

(٢) ،، ،، - آية : ٢٦ - ٢٨ .

وفي السجن يلتقي بفتيـــان[١] ، سألاه عن رؤياهما ((قال أحدهما اني أراني أعصر خمرا ، وقال الآخر اني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منـــه نبئنا بتأويله)) ويعبر لهما الرؤيا ((أما أحدكما فيسقي ربه خمرا ، وأمـــا الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضي الأمر الذى فيه تستفتيان)) .

ونتشوق الى معرفة سر تعبير هذه الرؤيا لنجد القرآن يباغتنـــــا بالحـل ((وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك)) .

وتستثيرنا هذه العبارة ، ونستشعر قرب خروج يوسف من السجن ، ولكننـــا نفاجأ بأن الساقي قد نسي ((فأنساه الشيطان ذكر ربـه)) .

ويرى الملك رؤياه ، ويعجز المعبرون عن تفسيرها ، ونجد تعبيرهـا عند يوسف على يد الساقي ، وهنا تتوالى المفاجآت في سلسلة من الترابـط

---

(١) الفتيان : اسم أحدهما بنـو ، وكان رئيس السقاة .
والآخر طحـب، وكان رئيس الخبازين .
وكانا قد دخلا السجن بتهمة التآمر على الملك ، وقد عبّر يوســـف رؤياهما بأن أحدهما وهو رئيس السقاة سيبرأ من تهمته ، وأما الآخر فسيذهب ضحيتها ، وقد كان والملك من الأجانـب الذيـــن غزوا مصر ، والذين أطلق عليهم اسم " الهكسوس " أى المـــلوك الرعـــاة .
فبعض المؤرخين يعتبرهم عربا ، والبعض الآخر يعتبرهم فينيقيين .
راجع : اليهود في القرآن ـ لعفيـف عبد الفتـاح طبـارة : ١٥٦ ـ ١٦٠ ـ الطبعة الثامنـة .

والاتساق ، أولها في خروجه من السجن ، وثانيها في اعتراف زليخا ، وثالثها في توليه أمر الخزانة ((وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين)) .

((قالت امرأة العزيز الآن حصحص (١) الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين * ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين)) .

((قال اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم)) .

ويمين وزيرا للخزانة ، وأصبح مسئولا عن صرف الميرة والطعام في زمن القحط ، وهنا تتبادر عدة تساؤلات مشوقة .

هل أخوة يوسف سيذهبون اليه لاحضار الميرة كسائر الناس أم لا ؟

ونفاجأ بهم في ضمن القادمين ((وجاء أخوة يوسف))

وبعد أن عرفنا قدومهم ، فيا ترى هل سيعرفهم يوسف بعد هذه الغيبة الطويلة أم لا ؟ وهم بالتالي هل سيعرفونه ؟ وعلى افتراض أن يوسف

---

(١) حصحص : ظهر وبرز ، على أن من العجيب حقا في اعتراف زليخا أنها جاءت بالبراءة ليوسف ، وهي نفسها التي نسبت اليه الفحش ظلما وعدوانا .
ولعل اعترافها " صحوة ضمير " أو أنها خشيت ان بقيت مصممة على انكارها أن تشهد عليها النسوة بما اعترفت لهن سابقا بما جرى معها ومع يوسف حين قالت لهن ((فذلكن الذى لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره به ليسجنن وليكونا من الصاغرين)) .

عرفهم ، فما هو موقفه حينـــذاك ، وهنا تأتي الردود على هذه التساؤلات من كتاب اللـــه .

((فعرفهم وهم له منكرون))[1] .

((ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين)) .

واذ طلب يوسف احضار أخيه بنيامين ، فيا ترى هل سيستجيب يعقـــوب لهذا ، أم لا ، وخصوصا انهم خانوا أباهم من قبل حينما طلبوا يوسف ؟ .

هنا تفاجئنـــا نصوص القرآن بالاجابات المشوقة ((قال هل آمنكـم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فالله خير حافظا وهو أرحـــــم الراحمـــين)) .

لقد تردد يعقوب في البداية ، لكنه وافق في النهاية ، ولعـــل موافقة يعقوب كانت نتيجة تلك الاشارة الخاطفة[2] ((قال لن أرسله معـــكم

---

(١) ((فعرفهم وهم له منكرون)) حيث كان في أبهة الملك ، ويتكـــلم اللهجة المصرية ، وقد غيّر الملك اسمه الى " صفنـــات فمينـــع " بمعنى طعام الحياة .
اليهود في القرآن / طبـــارة / ١٦٧ .

(٢) قلنا : الاشارة الخاطفة ، لأن جملة ((ائتوني بأخ لكم من أبيكم)) متى نقلت لأبيهم أوقعته في استغراب وجعلته يظن أن لهـــذا الرجل المصري المتولي على خزائن مصر مغزى في هذا الطـــلب والاّ فمن عرفه أن لهم أخا من أبيهم ؟ وما هي علاقته بـــه ؟ وما هي الأسباب التي تدفعه لهذا الطلب ؟ .
فكان هذا الطلب ما هو الا برقية خاطفة من يوسف لأبيه ، أو لغـز لا يحله الا يعقوب ، يضاف الى ذلك تجهيز يوسف أخوته

حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به الا أن يحاط بكم فلما أتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل)) .

ويصل بنيامين الى وزير الخزانة ، فماذا سيكون موقفه مع أخيه هل سيعرفه أم لا ؟ ، وهل سيبقى في كنف أخيه ؟ وكيف الطريقة لاستبقائه ؟ وما الذى سيصنعه يوسف معه ؟ .

والقرآن الكريم يفاجئنا بكل هذه التساؤلات في اجابات مثيرة جدا ، قال تعالى ((ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه قال اني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون)) .

اذن فقد فرح يوسف بأخيه وأطلعه بنفسه ، ثم أظهر يوسف لأخيه رغبته في استبقائه عنده كتمهيد لاحضار والديه الى مصر ، وأن الطريقة التي ارتآها هي نسبة السرقة(١) اليه وأخذه رقيقا ليكون بجانبه ، فقبل بنيامين .

وتشتد الاثارة في كيفية العمل ، وما هي الطريقة التي ستتصرف بها يوسف لنسبة السرقة لأخيه ، ويأتي الحل ((فلما جهزهم بجهازهم

= بما يلزم لهم في سفرهم وزيادة الكيل لهم بدون ثمن ، فيعقوب فهم هذه الرموز ، وأن ابنه يوسف يحضر بدليل قوله لأولاده عند زيارتهم لمصر للمرة الثالثة ((يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه)) .

راجع : اليهود في القرآن : ١٦٧ .

---

(١) وكانت سنة آل يعقوب أن يأخذوا السارق بسرقته .

تفسير الجلالين : ٣٢٠ .

جعل السقاية في رحل أخيه ، ثم أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون * قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون * قالوا نفقد صواع(١) الملك . . . قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين * قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وجد في رحله(٢) فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين)) .

ويوسف على علم بأنهم سيقولون ذلك ، لأن شرعة بني اسرائيل تجعل السارق في مقابل سرقته .

ثم تهدو تساؤلات جديدة وعديدة ، كيف يصنع اخوة يوسف ؟ هل سيعودون بدون بنيامين ؟ وما موقف الأب حينما يعودون له ؟ وهل سيعودون مرة أخرى للمطالبة ببنيامين وتقديم فداء له ؟ وما موقف يوسف منه اذا عادوا ؟ .

ويطالعنا القرآن بالاجابات المثيرة لهذه التساؤلات ((فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا))

((قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا انه هو العليم الحكيم)) .

---

(١) الصواع : كان من فضة يشربون فيه ، وكان للعباس مثله في الجاهلية .

(٢) الرحل : المتاع .

راجع : مختصر تفسير ابن كثير للصابوني : ٢٥٥ - ٢٥٧ ، المجلد الثاني .

((فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة[1] ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزى المتصدقين)) .

فهم لم يعودوا لطلب بنيامين ، ولم يأتوا حتى بسيرته ، وهنا يرق يوسف للحال التي وصل اليها أهله ، ويرى بأن وقت الافصاح عن نفسه قد حان فيقول ((هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون)) .

كلمات تعيد اليهم ذكريات مضت واندثرت في مخيلاتهم ، وهنا يتجهون الى رشدهم ويقولون في غمرة الاندهاش ، وفي تساؤل ممزوج بالفرح والحزن ، يقولون ((ائنك لأنت يوسف)) ؟ !

ويرد عليهم ((أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين)) .

وهنا يلجون الى تحمل عذر يسوغ لهم فعلتهم ، ويدفع الخجل عنهم ، ويرى ساحتهم ، قالوا ((تالله لقد آثرك الله علينا)) والاعتراف بالحق فضيلة ((وان كنا لخاطئين)) .

ويلجأ يوسف الى التخفيف من حدة الموقف وتوتره ، فيقول في تعبير يشف عن نفس مهذبة ((لا تثريب[2] عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين)) .

---

(١) مزجاة : مدفوعة يدفعها كل من رآها لردائتها وكانت دراهم زيوفا أو غيرها .

(٢) لا تثريب : لا تأنيب ولا عتب .

ثم نتشوق الى معرفة لقاء يوسف بأبويه ، هل سيعود لهمـــا ؟

واذا عاد ما هي الطريقة التي يعود بها ؟

هل يعود في موكب ملوكي رهيب أم لا ؟

واذا اتضح الحق وعرف أبوه ما فعل باخوته ما يكون موقفه منهم حينئذاك ؟

ويفاجئنـــا القرآن الكريم بالاجابات التالية :

((اذهبوا بقميصـــي(١) هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وآتوني بأهلكـــم أجمعـــين)) .

((فلما أن جاء البشـــير(٢) ألقاه على وجهه فارتـــد(٣) بصيرا قال ألم أقل لكم اني أعلم من الله ما لا تعلمون)) .

---

(١) والقميص : هو قميص ابراهيم الذى لبسه حين ألقي في النار كـان في عنقه حين ألقي في الجب ، وهو من الجنة ، وقيل : ان فيـــه ريحها ، ولا يلقى على مبتلي الا عوفي باذن الله .

راجع : تفسير الجلالين : ٣٢٣ .

(٢) المبشر : هو يهوذا ، وكان قد حمل قميص الدم سابقا فأحـــب أن يفرحه الآن .

(٣) وارتد بصيرا : ذاك لأنه ابيضت عيناه من الحزن حيث تنشأ عـــن الحزن العميق حالة نفسية يزداد بسببها الضغط على العينـــين وتحدث الجلوكوما أو ما يسمى عرفا "بالمياه الزرقاء" فيزول صفـــاء القرنية وبريقها ، ويضعف البصر شيئا فشيئا حتى يزول نهائيـــا وتبدو العين بيضاء .

فانظر كيف وصف القرآن الكريم حالة يعقوب بما يؤيده العـــلم وما ذاك الا لأنه وحي الهي لا من صنع البشر .

راجع : اليهود في القرآن : ١٧٥ .

((قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين * قال سوف أستغفر لكم ربي انه هو الغفور الرحيم)) .

ويتجهز الأب والأخوة في الرحيل الى مصر ، وهناك كان لقاء الأحبة ، لقاء لا يوصف ((فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين)) .

وبعد أن انتهت القصة بحار العقل في ربط الرؤيا المنامية الأولى ليوسف حيث قال ((يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين)) .

فتبين صدق الرؤيا بسجود أخوته وكان عددهم أحد عشر أخا ورفع أبويه على العرش وهما الشمس والقمر ((وخروا له سجدا (١) ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربي حقا)) .

---

(١) سجدا : سجود انحناء لا وضع جبهة ، وكانت تحيتهم في ذلك الزمان .

أبويه : أمه وأبوه ، ولكن من عمي أم يوسف التي حضرت الى مصر قيل عمي : " راحيل " ، ولكن ورد في سفر التكوين أن راحيل ماتت وعمر يوسف عشر سنين .

وقيل : المراد من أمه التي حضرت لمصر " بلهه " جارية أمه ومربيته حال حياة أمه وبعد وفاتها ، والمربية تدعى أما لقيامها مقام الأم .

ثم انظر الى الفطنة في القول ، فقد قدم ذكر منة الله عليه باخراجه من السجن مع كونها تالية لمنة الخروج من البئر ، ولم يذكر سببها الا ضمنا ((من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي)) ليفصح عن حرصه على الطهارة والنقاء ، اذ في خروجه من السجن استبان أنه برىء من أى ريبة ، وما اختلقته امرأة العزيز كان محض افتراء ((وقد أحسن بي اذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي ان ربي لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم (١))) .

كل ذلك في تفصيل مثير ، وارتباط وتشابك قائم على حلقات مثيرة ، عقدة تلو الأخرى ، وحلولها في تمانق وارتباط ، فلو لم يلق في البئر لما وصل الى بيت العزيز ، ولولا مراودة امرأة العزيز له لما دخل السجن ، ولولا السجن لما وصل الى الوزارة ، ولولا الوزارة لما التقى باخوته ، ولولا التقاؤهم لما توصل الى تفسير اللغز المنسي يوسف . . . الذى اتهم بأكل الذئب له ، ثم تعبير الرؤيا التي وردت في بداية السورة ، كل هذا في تكامل وتزاوج واتساق .

* * * * * *
* * * * * *
* * * * * *

---

(١) سورة يوسف ـ آية : ١٠٠ .

الفصـــل الثـــاني

رسم الشخصية القرآنية وحيويتهـــا

واذا كان الحكم على الشخصية يتم من خلال التعرف على تصرفاتهـا وعاداتها ، فان التتبع للقصص القرآني يستطيع أن يتعرف ويحكم علـــى شخصياته من خلال أحداثها ، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره .

وبتحليلنا لشخصية خليل الرحمن ، وجدنا أنها شخصية تمتـــاز بالحلم والاناة والحكمة ، وذلك من خلال محاوراته لأبيه ((يا أبت لا تعبد الشيطـــان)) .

((يا أبت اني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن (١))) .

وبالعقل والذكاء ، وذلك لتأمله في ملكوت الله سبحانه :

((فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ... (٢))) .

وفي محاجته للنمروذ ، قال ((ربي الذي يحيي ويميت)) .

وفي طلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ... (٣)

وبالاذعان والتسليم لأمر الله سبحانه ، بدليل مسارعته الى ذبح ابنـــه وحيده من خلال الرؤيا ، وهذا أمر يشق على النفوس ((قال يا بني اني أرى في المنام أني أذبحك (٤))) .

---

(١) سورة مريم - آية : ٤٥ .
(٢) سورة الأنعام - آية : ٧٦ .
(٣) سورة البقرة - آية : ٢٥٨ - ٢٦٠ .
(٤) سورة الصافات - آية : ١٠٢ .

وبالثقة التامة بمولاه ، وتفويض الأمر اليه ، بدليل اسكان ذريته بواد غير ذى زرع .

وشخصية الكليم موسى عليه السلام تمتاز بالقوة ، ولعلها من أظهر صفاته بدليل أنه حينما استغاثه ((الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه))(١) .

تصور أنها الضربة القاضية منتهى القوة والفتوة .

وبالأمانة والعفة بدليل قوله تعالى على لسان بنت شعيب ((قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين))(٢) .

كما أنه لا يأنف من تقديم يد العون والمساعدة لكل معوز ((فسقى لهما ثم تولى الى الظل)) .

وبالذكاء والفطنة بدليل أنه حينما تلقى الأمر بالذهاب لدعوة فرعون ((قال رب اني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون))(٣) ، كيف أدعوهم وأنا قاتل منهم نفس ؟ !

---

(١) سورة القصص - آية : ١٥ .

(٢) " " - " : ٢٦ .

(٣) " " - " : ٣٣ .

يذكر المفسرون : أنها حينما جاءته لتدعوه الى بيت أبيها فانه أمرها بأن تسير خلفه ، فاذا ضل الطريق تقذف حجرا أمامه الى الجهة المطلوبة لئلا يراها ولئلا يسمع صوتها ، ثم هي اذا سارت أمامه قد تنكشف من فعل الريح ، وهكذا حافظ عليها حتى أوصلها الى بيت أبيها دون أن يصدر منه ما يمس الشرف أو الكرامة .

راجع : تفسير ابن كثير - المجلد الثالث : ٣٨٥ .

ثم احساسه بعدم القدرة على توجيه الدعوة كما ينبغي لعـــــدم فصاحة لسانه ، فقال ((وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معـــي ردءا يصدقني)) ثم هو كالمساعد المعاون ردءا يصدقني .

وشدة الانفعال في الحق بدليل أخذه بلحية أخيه ، قال تعالى ((ولمـا سكت عن موسى الغضب[١])) .

وحب الاستطلاع ((قال رب أرني أنظر اليك[٢])) .

وشخصية نوح تمتاز بالصبر بدليل أنه مكث في قومه ألف سنة الا خمسين عاما ، ومع هذا لم يؤمن به الا القليل ((ومن آمن وما آمن معه الا قليل[٣])) .

وقوة الارادة ، فهو بالرغم من تكذيب قومه له واستهزائهم بدعوته وسخريتهـم منه وهو يصنع الفلك الا أنه ظل يدعوهم الى عبادة الله ((ويصنع الفـــلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه[٤])) ، حتى كان يقول له بعضهم قـــد صرت نجارا بعد النبـوة !

وهالا نابة والخشوع والتسليم لأمر الله ، فحينما أمره ربه ألا يخاطبـه في القوم الظالمين ، وفاته ذلك فخاطبه في شأن ابنه عاد فاعتذر عـن ذلك فقال ((والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين[٥])) .

---

(١) سـورة الأعـراف - آيـة : ١٥٤ .
(٢) " " - " : ١٤٣ .
(٣) " هـود - " : ٤٠ .
(٤) " " - " : ٣٨ .
(٥) " " - " : ٤٧ .

أخيرا يطالعنا نوح بشخصية المتئس من قومه بعد طول مكث فيهم ((وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا))(١) .

حتى قال له البارئ عز وجل ((فلا تبتئس بما كانوا يفعلون))(٢) .

وشخصية السيدة مريم بنت عمران فقد كانت عفيفة ، بدليل موقفها من الملك ((قالت اني أعوذ بالرحمن منك))(٣) .

وحينما جاءها المخاض تمنت الموت حتى لا تظهر بهذا المظهر الذى قد لا يقبله مجتمع من المجتمعات ، وهذا يدل على حيائها ووقارها وسمتها ((قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا))(٤) .

أما شخصية يوسف فتكشف عن نفس مؤمنة صابرة على تحمل اللأواء بدليل أنه حينما رماه اخوته في الجب صبر واحتسب وعلم أنه أمر مقدور له . وحينما راودته التي هو في بيتها ، وغلقت الأبواب ، ظهرت قوة الايمان قال ((معاذ الله)) ، ثم بعد أن ثبتت براءته قال قولته التي تدل على عظمة الايمان ورسوخه ((ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين * وما أبرئ نفسي ان النفس لأمارة بالسوء))(٥) ، قمة التواضع

---

(١) سورة نوح - آية : ٢٦ - ٢٧ .
(٢) " هود - " : ٣٦ .
(٣) " مريم - " : ١٨ .
(٤) " " - " : ٢٣ .
(٥) " يوسف - " : ٥٢ - ٥٣ .

وخفض الجناح لبارئه ، وهكذا فحسنات الأبرار سيئات المقربين .

والعلم مع الأمانة ، وذلك في تعبير الرؤيا ((لا يأتيكما طعـــام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربـي))[١] ، وعمـا شرط في ذوى المناصب الرفيعـة .

والأمانة في حفظ العهد مع العزيز فلم يخنه في عرضه حاشاه وذلك مع توفر الأسباب الداعية لذلك ((ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين))[٢] ، فكانت أمانته مع علمه سببا في قبول الملـك طلبه في ولاية الخزانـة ((اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم))[٣] .

ثم الدربـة وسعة الحيلة ، وفرط الذكاء ، حيث استطاع أن يعمل الوسيلة الناجحة لاحضار أخيه الشقيق بنيامين حينما ذهب اخوته لطلب الميرة ، وحيلته في أنه خاطبهم بأنه يحسن المكيال ، ويكرم الضيوف ((ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين))[٤] .

وأراد أن يرغبهم في العودة اليه والرجوع لأخذ الميرة مرة بعد مرة فقال لهم ((فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون))[٥] .

---

(١) سورة يوسف - آية : ٣٧ .
(٢) سورة يوسف - آية : ٥٢ .
(٣) سورة يوسف - آية : ٥٥ .
(٤) سورة يوسف - آية : ٥٩ .
(٥) سورة يوسف - آية : ٦٠ .

انها كلها حيل خطها يوسف الصديق بأمر من ربه حتى تعمل أخوته على أن يعود اليه بنيامين ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، ولذلك كان ردهم دالا على ذلك حيث قالوا ((سنراود عنه أباه وانا لفاعلون))[١] على معنى اننا سنجتهد في طلبه ونحتال في انتزاعه من يد أبيه .

ومن حيله الدالة على قوة الفطانة والحكمة الرصينة في استبقائه أخيه بنيامين بوضع صواع الملك في رحله ليأخذه في مقابله ، وهي شريعة بني اسرائيل حيث انهم يأخذون السارق في مقابل سرقته ((فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون * قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون * قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم * . . . قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين))[٢]

ولما بدأ بتفتيش الرحل فتش جميع الأوعية وآخر وعاء أخيه ، بل تردد في تفتيشه ، حتى قال له الأخوة لا بد من أن تفتشه ((فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه))[٣] .

فنجحت الحيلة حيث انه استبقى بنيامين لا قسرا ، وانما بحكم تطبيق الشريعة التي كانت سائدة حينئذاك .

---

(١) سورة يوسف - آية : ٦١ .

(٢) سورة يوسف - آية : ٧٠ - ٧٢ ، ٧٤ - ٧٥ .

(٣) سورة يوسف - آية : ٧٦ .

ثم الحنين حيث أخذه الشوق والحنين لرؤية أخيه الشقيق بنيامين بعد أن رأى اخوته جميعا ((ائتوني بأخ لكم من أبيكم))(١) .

والشفافية والطهر مع الروحانية الصادقة والالهامات الربانية والتجليات الالهية ، حيث انه حينما رأى اخوته عرفهم ((وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون))(٢) .

فرق بين شخصية يوسف وشخصية اخوته ، فبصيرة يوسف فيها اشراقة ، وأنوار متلألئة حتى استطاعت أن تكشف الحقيقة فيلوح لها ان هؤلاء هم اخوة يوسف .

أما شخصية اخوته فلا زالت شخصية مطمورة فيها صدأ ، حتى لم تر الحق حقا ، ومن ثمّ لم تتعرف على شخصية يوسف ولم تفطن الى أنه هو الشخص الذى كادوا له كيدا حتى دبّروا له الحيلة وصنعوا به ما صنعوا .

ثم اللباقة وحسن الذوق والأدب والحصافة التي تدل على ذكاء نادر حينما ثبت ظاهريا بأن بنيامين هو السارق حيث وجد صواع الملك في وعائه ، قال اخوة يوسف ((قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل))(٣) مع بيان أن اخوة يوسف لا زالت نفوسهم تبغض يوسف وتكرهه ، حتى افتاتوا عليه فرموه بالسرقة ، الا أن يوسف لم يجابههم بالحقيقة ، ولم يعاملهم بالمثل ، ولم يخبرهم بدسائسهم وحيلهم التي صنعوها قبل ذلك ، حيث

---

(١) سورة يوسف - آية : ٥٩ .

(٢) سورة يوسف - آية : ٥٨ .

(٣) سورة يوسف - آية : ٧٧ .

ألقوه في البئر ، ولكنه أخفى هذه العبارة في نفسها ولم يظهرها لأخوته تلطفا منه حتى يصل الى ما يريد أن يصل اليه ، ولكنه قال في نفسه ((أنتم شر مكانا))[١] ، على معنى أنهم بسرقتهم لأخيهم هم شر الناس منزلة قال ذلك في نفسه ولم يبدها لهم .

كما يظهر يوسف في تسامحه وهو ما يسمى بالعفو عند المقدرة وذلك حينما تعرفت عليه اخوته فقد كان بمكنته أن يوقع بهم وهم الذين أساءوا اليه ، ولكن يوسف الصديق لا يفعلها لأن كرم عنصره ، وشرف نجاره يأبى عليه أن ينزلق هذا المنزلق فضلا عن أنه قد أصدر قراره بالعفو العام عنهم بدلا من أن يثار منهم ويطلب مجازاتهم فقال ((لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين))[٢] .

وأما في قوله ((يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربي حقا))[٣] . فتتأكد شخصية يوسف المكينة في تعبير الرؤيا حينما ربط بين سجود أبيه وأمه وأخوته حينما دخلوا عليه وسجودهم من باب التحية والاكرام لا من باب العبودية .

حينئذ اك ربط يوسف بين هذا الصنيع الذى صدر من أبويه واخوته بالرؤيا التي رآها سلفا قبل أن يكيد له اخوته ((اني رأيت

---

(١) سورة يوسف - آية : ٧٧ .

(٢) سورة يوسف - آية : ٩٢ .

(٣) سورة يوسف - آية : ١٠٠ .

أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين))[١] ربط بين تلك الرؤيا وبين سجود أبيه واخوته حينما دخلوا عليه ((قال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل))[٢] .

انها شخصية مؤمنة قانتة ، لقد صهرتها الأحداث ، وهزتها النوائب ، من قذف في البئر ، واتهام هو منه برآء ، والسجن ظلما ، والبعد عن الأبوين والأقارب . لقد صمد على هذا كله وهو ثابت العقيدة ، متلالي الايمان جبينه مشرق باليقين ، حتى اذا ما انقشعت الغمامة ، وزال الكرب ، واجتمع مع الأحباب في مكان طيب خصب ((وقد أحسن بي اذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي))[٣] .

وهنا تتجلى شخصية يوسف وقد طفت بالحياء والخجل بعد أن تاب الله على اخوته أبى كل الاباء أن يذكر عبارة تجرح شعورهم ، أو تؤلم مشاعرهم بعد أن ندموا وتابوا فهو يشكر الله على خروجه من السجن ولم يذكر حديث الجب والرمي في البئر ، وهذا هو حياء المؤمن ، وحصافة أهل الفطنة والذكاء ، فالموقف يتطلب الرقة والتسامح وعدم ذكر الأسى وما يجلب البغض والكراهية ، ومن ثمّ ربط هذه الدسائس كلها بفضل

---

(١) سورة يوسف ـ آية : ٤ .

(٢) سورة يوسف ـ آية : ١٠٠ .

(٣) سورة يوسف ـ آية : ١٠٠ .

الشيطان فقال ((من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي ان ربي لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم))[١] .

لقد استمر يوسف في شكره لله حيث انه في محنته قد أعطاه الله الملك وعلمه علما واسعا به عبّر الرؤى ، ومن ثمّ فهو يشيد بعظمة الله وقدرته ويمد يده الى السماء ويأمل من ربه أن يجزيه الحسنى في الدار الآخرة كما جزاه بالحسنى في الدنيا ((رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين))[٢] .

وشخصية يعقوب تمتاز بالثقة بالله ، فحينما قدم عليه أبناؤه مدعين أن الذئب قد أكل يوسف ((وجاءوا على قميصه بدم كذب))[٣] فحينذاك علم أن ولده قد فقد ، وقد كان مقربا الى نفسه ، ولكنه لم يجزع جزع المريب والشاك في قضاء الله وقدره ، فقال عبارته الدالة على ايمانه المتقد واعتماده على ربه الذى لا راد لقضائه ((قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون))[٤] .

وفي المرة الثانية حينما طلبوا منه ولده بنيامين بعد ما قدّموا اليه من الحيل وقد ساوره الشك فيهم حتى قال ((هل آمنكم عليه الا كما

---

(١) سورة يوسف ـ آية : ١٠٠ .

(٢) سورة يوسف ـ آية : ١٠١ .

(٣) سورة يوسف ـ آية : ١٨ .

(٤) سورة يوسف ـ آية : ١٨ .

أمنتكم على أخيه من قبل)) .

ولكنه وقد قدّم الولد لهم حتى يأتوا اليه بالميرة ، فلا يكون سببا في هلاكهم من الجوع ، يربط ذلك كله بقدرة الله عز وجل فيقول ((فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين (١))) .

وهو اذ يرسل الولد معهم يذكرهم بعهد الله وميثاقه ، وفي ذلك لون رائع من ألوان الايثار ، ودليل قوى على فطنة يعقوب وذكائه حيث انه تردد في البداية ، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، ولكن ذلك كله في سبيل لقمة العيش ، واحياء النفوس المجهدة ((قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به الا أن يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل (٢))) .

وحينما عادوا الى أبيهم من غير بنيامين فأخبروه بما حدث حتى احتجز جزاء فعلته ، نرى يعقوب للمرة الثانية لا يتزعزع عن عقيدته ، ولا تلين شوكته ، ولا تضعف ارادته ، ولا تخمد ثقته بالله حتى قال ((قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا انه هو العليم الحكيم (٣))) .

---

(١) سورة يوسف - آية : ٦٤ .

(٢) سورة يوسف - آية : ٦٦ .

(٣) سورة يوسف - آية : ٨٣ .

وهو اذ يحدث عن هذا الحدث وقد ذكره بحدث يوسف ((وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم))(١) .

حتى ليم على ذكره الدائم ليوسف ، والتفجع عليه ((قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين))(٢) على معنى انك لا تزال تذكره وتتحسر عليه ، وضياعه ، حتى تهلك أسى وحسرة ، وتموت ، ولكنه أعرب عن قصده الدال على قوة ايمانه فقال ((انما أشكو بثي وحزني الى الله))(٣) .

ومع فقده لولده الأول يوسف ، وقد طال شيء من الوقت ، الا أنه لم ييأس ولم يقنط من رحمة الله عز وجل في أن يعود اليه بنيامين صاحبا لأخيه الأكبر يوسف ، فيتحقق الفرح كاملا ، وفي ذلك يقول ((يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون))(٤) .

نعم لقد طال الوقت على يعقوب ، ولم يحظ برؤية يوسف ، اذ أن يوسف طلب من اخوته عند المكيال أن يحضروا له أخاهم بنيامين ولم يطلب أن يحضروا أباه ((ائتوني بأخ لكم من أبيكم))(٥) ، والمولى بهذا يريد أن

---

(١) سورة يوسف - آية : ٨٤ .
(٢) سورة يوسف - آية : ٨٥ .
(٣) سورة يوسف - آية : ٨٦ .
(٤) سورة يوسف - آية : ٨٧ .
(٥) سورة يوسف - آية : ٥٩ .

يضاعف الأجر ليعقوب ، لأن عظم البلاء من عظم الجزاء ، وأن الله اذا أحب قوما ابتلاهم .

وتتجلى في شخصية يعقوب عاطفة الأبوة الكاشفة ، فبالرغم من أنه كان ملهما بأن أولاده صنعوا بيوسف ما صنعوا ، وأضمروا له الحقد الدفين ، مما سبّب له هذه المحنة التي فيها فقد ولديه ، الا أنه كان يتمنى لأولاده كل خير ، فيهد و رقيق القلب عليهم ، يحنّ لهم حتى انهم اذا أرادوا أن يدخلوا مصر لا يدخلوها دفعة واحدة حتى لا يتعرضوا لحسد الحساد ، ونظرة العين الطائشة ، فهو يؤمن بالحسد ، ويقر أذى العين ، وان كان ذلك حتى قضاء الله سبحانه وسلطانه ((وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة))(١) ، فهو ان أمرهم بأخذ الحيطة الا أنه يرى أن حكم الله نافذ ((وما أغني عنكم من الله من شيء ، ان الحكم الا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون))(٢) ، أي لا أدفع عنكم بحيلتي شيئا مما قضاه الله ، على معنى أن الحذر لا يدفع القدر ، وهو بذلك كان مؤمنا بربه أشد الايمان ، حيث انه ربط بين القدر والحذر .

ومن ثمّ نرى أن الله عز وجل أثنى عليه كل الثناء فقال معقبا على هذا ((وانه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون))(٣) .

---

(١) سورة يوسف - آية : ٦٧ .

(٢) سورة يوسف - آية : ٦٧ .

(٣) سورة يوسف - آية : ٦٨ .

ولقد كان قوى البصيرة ، ملهم الفؤاد ، حيث ان العير حينما خرجت منطلقة الى الشام لتبشيره بعودة يوسف والعثور عليه قال ((اني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون))(١) أى لولا أن تتهمنوني بالخرف وذهاب العقل ، مما يدل على الهامات المشرقة ، وبصيرته النيرة ، وهكذا نرى أن ملامح شخصية يعقوب اتضحت في قوة ايمانه وذكائه الحقد ، وبعده عن اليأس والقنوط ، واعتماده على الله عز وجل مع الأخذ بالأسباب كما نلمس فيه عاطفة الأبوة التي تفجرت في الحفاظ على أولاده وأحاطتهم بسياج به لا يلحقهم شر العين وأذى الانسان ، كل ذلك في بصيرة مشرقة ، ونفس ملهمة ، لا ريث في ذلك ، فهو نبي من أنبياء الله سبحانه .

وأما شخصية أخوة يوسف ففيها شيء من الغيرة الانسانية ، يتجلى هذا في قوله تعالى ((اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ، ان أبانا لفي ضلال مبين))(٢) .

كما تمتاز بشيء من القدرة على الخداع والمراودة ((مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون * أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون))(٣) وفي قولهم ((لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون))(٤) ، ثم

---

(١) سورة يوسف - آية : ٩٤ .

(٢) سورة يوسف - آية : ٨ .

(٣) سورة يوسف - آية : ١١ - ١٢ .

(٤) سورة يوسف - آية : ١٤ .

مجيئهم أباهم عشاء يبكون ((وجاءوا أباهم عشاء يبكون [١])) ، انها مخادعة واضحة حتى يؤكدوا لأبيهم أن لا ذنب لهم في فقد أخيهم يوسف فادعوا أن الذئب قد أكله ، واستدلوا على ذلك بقميصه الملوث بالدماء الكاذبة ((وجاءوا على قميصه بدم كذب [٢])) على معنى أنهم جاءوا على ثوب بدم كذب .

يذكر ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير الآية : " انهم ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص ، فلما جاءوا يعقوب قال : كذبتم ، لو أكله الذئب لخرق القميص " [٣] .

كما نلمس فيهم شدة الجدل مع قوة الحجة ((قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وانا له لحافظون [٤])) ((قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير [٥])) .

والصاق التهم مع عدم التورع فيها ((ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل [٦])) ، عودة الى المراوغة واستعمال الحيلة ، ولكن على من ، على من عرفها !

---

(١) سورة يوسف - آية : ١٦ .
(٢) سورة يوسف - آية : ١٨ .
(٣) الطبرى - الجزء الثاني عشر : ١٦٤ ، راجع : صفوة التفاسير الجزء السادس : ١٠ .
(٤) سورة يوسف - آية : ٦٣ .
(٥) سورة يوسف - آية : ٦٥ .
(٦) سورة يوسف - آية : ٧٧ .

((يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه[١])) .

فهم يحسنون وسائل الاعتذار والتملق ((انا نراك من المحسنين))

وتظهر قوة الحجة أيضا ، حينما أخذوا يوسف وأخاه ((ان ابنك سرق وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين * واسئل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وانا لصادقون[٢])) .

أخيرا في اعترافهم بذنبهم كوسيلة للاستلطاف والتهيئة ((قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين[٣])) ، ولكن مع هذا كله نرى أنها نزغة شيطان لفهتهم ، ونوازع الهوى قد أصابتهم ، ومع ذلك حينما استبان الحق لهم ، وانبلج نور اليقين ، نراهم قد أحسوا بوخز يساورهم ، وبضمير يؤنبهم ، ومن ثمّ اعترفوا بالخطيئة ، وأحسوا بالذنب ((قالوا تالله لقد آثرك علينا وان كنا لخاطئين)) ، وطلبوا من أبيهم أن يصفح عن زلتهم ، فيطلب من ربه لهم المغفرة ((قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين[٤])).

وهكذا أحسسنا بشخصية هؤلاء ، التي ان تعثرت في زلتها ، وسقطت في مهاوي الضلال ، الا أنها سرعان ما تعود الى ربها وترجع الى خالقها ، فهو جل وعلا غفّار الذنوب ، وقابل التوبة الصادقة

---

(١) سورة يوسف - آية : ٧٨ .

(٢) سورة يوسف - آية : ٨١ - ٨٢ .

(٣) سورة يوسف - آية : ٩١ .

(٤) سورة يوسف - آية : ٩٧ .

((يمحو الله ما يشاء و يثبت وعنـده أم الكتاب[١])) .

و هنا لفتة جميلة بدت من اخوة يوسف حينما طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم بدلا من أن يطلبوا بأنفسهم ، ففي ذلك مرضاة لأبيهم ، وهو الذى وقعت عليه الاساءة ، وعاد اليه الكرب الشديد ، فعاش بسببهم في محنة قاسية لا يقدر عليها الا الصابرون .

ان طلبهم من أبيهم الاستغفار فيه ترضية و تطييب لخاطره ، واعتراف منهم بأنهم نكلوا به ، فلا بد من أن يصفح عنهم أولا ، ويتسامح في صنيعهم حتى يهيء نفسه للدعاء لهم ، فاذا طلب من الله عز وجل أن يتوب عليهم فمعنى ذلك أن نفسه قد استراحت ، وأن روحه قد اشرأبت بحب الخير لهم و هكذا كانت شخصية أخوة يوسف ، شخصية متمكنة لها طابعها المميز لها ، فكان لهم أسلوبهم الخاص ، واتجاهاتهم التي تشف عن طبائعهم ، و مع أننا قد لمسنا منهم الوقوع في المحظور والزلة في المعصية ، رأيناهم وقد رقّوا لأبيهم عند حجز بنيامين ، فكان في عبارتهم ((ان له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه[٢])) ما ينبيء عن تعاطفهم الشديد نحو أبيهم ، وكأنهم في المرة الثانية لم يقصدوا أن يخونوا العهد كما خانوه قبل ذلك مع يوسف وانما الظروف والدوافع هي التي جعلتهم يعودون الى أبيهم وليس في صحبتهم

---

(١) سورة الرعد - آية: ٣٩ .

(٢) سورة يوسف - آية : ٧٨ .

بنيامين ، وسبحان ربي ؟! لقد تنبأ لذلك أبوهم يعقوب بالهام الهي حينما أخذ عليهم العهد في رده الا أن يحاط بهم أى الا أن يكون الأمر خارجا عن ارادتهم ((قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به الا أن يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل))(١) .

وأما شخصية زليخا فهي تصور غريزة المرأة حينما تكون مندفعة في شهوتها ((ولقد همت به وهم بها))(٢) وحينما تفاجأ بأنها قد وقعت في سوء ما دبرت ، تدركها غريزتها فتتنصل من تهمتها وتلصقها بغيرها ((ما جزاء من أراد بأهلك سوءا))(٣) .

وحين تسمع بحديث النسوة تساورها نفسها أن تثبت لهن ضعفهن أمام هذه الشهوة العارمة ، كما ضعفت هي أمامها ((فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت أخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن .... قالت فذلكن الذى لمتنني فيه ....))(٤) .

---

(١) سورة يوسف - آية : ٦٦ .
الا أن يحاط بكم : أى الا أن تغلبوا فلا تقدروا على تخليصه .

(٢) سورة يوسف - آية : ٢٤ .

(٣) سورة يوسف - آية : ٢٥ .

(٤) سورة يوسف - آية : ٣١ - ٣٢ .

ثم هي تسعى بكل ما أوتيت من قوة لتحقيق غرضها الأثيم ، فهي أسيرة شهوتها ، وهي ضعيفة الارادة أمامها ((ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين[١])) .

وأخيرا تغلبها أنوثتها حين ترى الوقائع وهي تكشفها فتقول ((الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين[٢])) .

هذه نماذج لشخصيات قرآنية ، وكما لاحظنا فالشخصية مرتبطة بالحدث ، اذ لابد لكل فعل من فاعل ، وهي تتفاعل مع أحداثها حية في تصرفاتها ، تصور لنا الوقائع كأنها مرآة نشاهدها ونعيشها وننسجم داخل كيانها القصصي في انفعال تام[٣] .

وأما شخصية عزيز مصر كما تشف عنه الآية الكريمة ((يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين[٤])) ، فهي شخصية تميل الى التستر ، فعزيز مصر لما رأى أن يوسف بريء من ادعاء زوجته وأنها هي الطالبة له ، وهو الهارب منها ، كتم الأمر ، بل طلب من يوسف أن يكتم الأمر ولا يذيعه لأحد ((يوسف أعرض عن هذا[٥])) .

---

(١) سورة يوسف ـ آية : ٣٢ .

(٢) سورة يوسف ـ آية : ٥١ .

(٣) راجع القصة في أدب الجاحظ لعبد الله أحمد با قازى : ٩١ ـ الطبعة الأولى .

(٤) سورة يوسف ـ آية : ٢٩ .

(٥) سورة يوسف ـ آية : ٢٩ .

وهذا يدل على أن شخصية العزيز كانت شخصية تميل الى التستر والتحفظ ، وعدم اظهار الفضائح الجنسية ، فانه أمر لا يقبله انسان ، حتى لو عاش في مجتمع جاهلي .

أراد أن يدعم هذا التستر بطلبه من زوجته أن تستغفر وتتوب ((واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين)) .

كما يستفاد من هذا الموقف أيضا ، أن العزيز لم تكن عنده الغيرة القوية حتى يغضب غضبة مضرية ، أو يثور ثورة عارمة ، فينتقم من زوجته التي دنست فراشه بهذا المنكر الفظيع .

وهكذا استبان لنا من خلال عرض شخصية العزيز ، وامرأته ، ويوسف بعضا من ملامح شخصية العزيز ، فهي شخصية كتومة للسر ، لا تذيع ما يستقبح ذكره في الوقت الذى تعرف جرم الحدث وعظم أمره .

كما أنها شخصية فاترة هادئة لا تتحرك لتدنيس عرض ، ولا تهتز اهتزازا ملفتا لخيانة زوجية .

" والنقد الحديث يرى أنه على القاص أن يعرض علينا أشخاصا عاملين نراهم بقوة ، ونفهم أخلاقهم ، ونسايرهم بشعور سار الى آخر القصة ، ومعنى ذلك أن أسلوب القصة يكون أجود كلما تجلت شخصياتها متمايزة ، وتوالت حوادثها وفصولها في أعمال أبطالها وحوارهم "(١) .

---

(١) أصول النقد الأدبي / د . أحمد الشايب - الطبعة الثامنة : ٣٤٠ .

وواضح في قصص كبار الكتّاب أن لكل شخصية آراءها التي تكشف عن سلوكها وحديثها في القصة .

ومن العيب في القصص الحديث أن يتدخل المؤلف تدخلا سافرا بالشرح والتحليل ، وينبغي أن يكون تدخله مستورا ، وفي أضيق الحدود .(١)

ورأوا أن تشابه الشخصيات يرجع الى أن الكاتب كان يصدر في احساسه عن ايمان بالمثال ، والمطلق العام ، لا عن احساس بالتجربة الذاتية وتفردها .

وبهذا نرى(٢) أن النقد الحديث في علاجه للقصة المصرية حاكى شيئا من أسلوب القصة القرآنية ، حيث انه راعى في منهجه النقدى أن في عرض الشخصية عرضا دقيقا من الممكن أن يستشف جوانبها النفسية وأحوالها وعاداتها وما لها من ظلال وقيم ، ولن يكون ذلك الا برسم الشخصية القصصية رسما محكما يعرب عن حقيقتها اعرابا تاما .

فكان القرآن الكريم في عرضه لشخصياته نبراسا يستضيء به كثير من الأدباء وما ذاك لشيء الا لاعجابهم بملامحه التصويرية ، وقوة عرضه المحكم .

---

(١) النقد الأدبي الحديث / د . محمد غنيمي هلال : ٥٥١ .

(٢) تطور الرواية العربية الحديثة في مصر من ١٨٧٠ م الى ١٩٣٨ م للدكتور عبد المحسن طه بدر : ١٩٥ ، طبعة عام ١٩٦٣ م .

على أننا اذا تأملنا القصة المصرية الحديثة ، رأينا أنها كثيرا ما تعني بالتحليل النفسي لبعض الأبطال ، فكان جانب التحليل النفسي كما يرى بعض الباحثين (١) يطغى على بقية عناصر الرواية .

الا أن هذا التحليل النفسي كثيرا ما رأيناه يقوم على تجسيد كثير من المعاني التي عكست نفسية البطل ، وما كان يعانيه من صراع مما لاحظناه عند بعض القاصين من مثل نجيب محفوظ الذى كان يعتمد كثيرا في توضيح معالم الشخصية بكثير من الأخيلة والأوصاف التي لها ايحاءات ورموز (٢) .

ولكن القصّ القرآني الكريم مع استشفافنا لملامح شخصياته بكل يسر وسهولة ، الا أنه لم يعتمد في عرضه على جانب توضيحي خيالي ايحائي رمزى ، كما هو صنيع كثير من كتّاب البشر الذين أعجزتهم الحيل عن أن يصوروا نفسية أبطال الرواية الا بالجنوح الى هذه التوهمات التي قد تجلي في نظرهم شيئا مما أرادوه ، ولكننا قد أثبتنا غير مرة أن القرآن الكريم عندما يجلي لنا بطل القصة ، بل وجميع أشخاصها ، نستطيع أن نحلل النفسيات ، ونقف على معالم الأشخاص من غير أن يعطينا القرآن الكريم

---

(١) الأدب القصصي والمسرحي في مصر من أعقاب ثورة ١٩١٩ م الى قيام الحرب الكبرى الثانية - للدكتور أحمد هيكل : ١١٢ - ١١٥ الطبعة الثالثة .

(٢) راجع : القصة وتطورها في الأدب العربي للدكتور مصطفى عمر ٣٠٠ - ٣٠١ - الطبعة الأولى .

شيئا من الأساليب الابتكارية ، والصور المطلية بالعبارات التوضيحيـــــة الخيالية ، فحينما غضب موسى حينما رأى قومه عبدوا العجل ، ولام أخـــاه هارون في تركه لهم ، نرى القرآن الكريم يعرب لنا عن نفسية موسى حينـذاك وصنيعه تجاه قومه وأخيـه هارون ، من غير أن يجنح الى رمز أو خيـــــال فيقول الحق عز وجـــل ((قال يا هارون ما منعك اذ رأيتهم ضـــــلوا * ألا تتبعن أفعصيت أمرى * قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأســـــي اني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي))(١) .

وقد لاح لنا في توضيح شخصية مريم ، ونوح ، ويوسف ، ويعقـــوب وما الى ذلك من الأمثلة السابقة ان ملامح الشخصية في كل ذلك جاء عـــلى غير عادة الكتّاب المصريين الذين اعتمدوا على اللوحة المطلية التي تجسـد الكثير من المعاني لكي تعكس ما كان عليه الأشخاص من عادات ، ومثـــل ، وطباع ، وما الى ذلك ، وما قصدت بهذا أن أعقد شيئا من الموازنـــــة فشتان بين رب عـــليم حكيم يتقن ويدبر ويحكم ، وهو قادر قوى ، وبين بشر عاجز ضعيف ، ولكنني أردت بذلك أن أثبت لمحة من لمحات الاعجاز قـــــي القصة القرآنية ، فان حاول أحد أن يتمثل به ويتخذه سبيلا ، فسرعـــــان ما يحس بالعجز المطلق ، والضعف المؤكد ، ومن ثمّ يحس بنبضات القـــلب وهمسات الفؤاد ، وهي تشيد ببيان القرآن الذى ضلت العقول فيه ، وحارت

---

(١) سورة طـه - آية : ٩٢ - ٩٤ .

في قوة جماله ، وسحر معانيه ، وألفاظـــه .

ان الروائيين في عصرنا الحديث ان حاولوا أن يقتبسوا شيئا مـــن منهجه ، وطريقة سرده ، لا بقصد المحاكاة أو المعارضة ، وانما بقصـــد الاعجاب المطلق ، والاشادة بهذا المعرض القصصي الذى يفيض عذوبـــة ومعنى رائقا ، وتصويرا بلغ المدى ، أحسوا بأن القرآن الكريم فوق الطاقـة البشرية ، ونسقه فوق كل بيان .

* * *

* *

*

ارتباط الشخصيات وتفاعلها :

كل شخصية من شخصيات القصة القرآنية لها دورها البارز في القصة وهي تتفاعل تفاعلا تاما مع سائر الشخصيات الأخرى ، بحيث تحس بأن هناك سلكا منتظما يجمع هذه الشخصيات ذات الأواصر القوية ، والتماسك المتين ، بمعنى أن الشخصية الأولى في القصة ، وهو الذى يعرف ببطل القصة يرتبط بجميع الشخصيات ارتباطا وثيقا .

خذ قصة آدم مثلا ، فآدم هو المحور في القصة فهو بطلها والشخصيات في قصته هم حواء زوجته وشريكته في سكنى الجنة ((وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما))(١) .

والملائكة أمروا بالسجود له ((فسجد الملائكة كلهم أجمعون))(٢) .

وابليس امتنع عن السجود وكان مصدر غواية وتضليل له ((الا ابليس لم يكن من الساجدين))(٣) . ((فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين))(٤) .

وهكذا تحس بالارتباط الوثيق بين بطل القصة وجميع الشخصيات بحيث لا تحس بأن هناك شخصية معطلة أو منعزلة عن أحداث القصة

---

(١) سورة البقرة ـ آية : ٣٥ .

(٢) سورة الحجر ـ آية : ٣٠ .

(٣) سورة الأعراف ـ آية : ١١ .

(٤) سورة الأعراف ـ آية : ٢٠ .

فهي كالحلقات يكمل بعضها بعضا في سلك منتظم متين .

كما تحس بأن كل شخصية من شخصيات القصة تؤدي دورها كاملا في حركة متصلة ، فابليس في قصة آدم له أدوار خطيرة ، حيث انه أغرى آدم وحواء وحاول ما استطاع أن يصرفهما عن طاعة الله حتى نجح في مقصده ، ووصل الى هدفه .

((فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين))(١) .

وفي قصة موسى عليه السلام ، نجد أن موسى يرتبط بشخصيات قصته ، فارتباطه بفرعون من حيث انه ربي في بيته ((فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا))(٢) ((ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين))(٣) ؟

وارتباطه بهؤلاء السحرة الذين حاولوا دحض حجته ((قالوا يا موسى اما أن تلقي واما أن نكون أول من ألقى))(٤) ((قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون * فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون * فألقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون))(٥) .

---

(١) سورة البقرة - آية : ٣٦ .

(٢) سورة القصص - آية : ٨ .

(٣) سورة الشعراء - آية : ١٨ .

(٤) سورة طه : آية : ٦٥ .

(٥) سورة الشعراء - آية : ٤٣ - ٤٥ .

وفي بنات شعيب لأنه سقى لهما ثم تولى الى الظل ، ولأنـــــه تزوج احدهـن ((قال اني أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين (١))) .

وهكذا تحس أن بطل القصة يرتبط بكل الشخصيات ارتباطا وثيقـا .

وفي قصة موسى نرى أن شخصية فرعون لم تكن ساكنة خامدة ، وانما أدت دورها ببراعة ، وكما ينبغي أن تؤديه ، حيث انه حاج موسى حينمـــا وجهه الى عبادة الله ((قال فمن ربكما يا موسى (٢)))

فأجابه موسى ((ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (٣))) .

ولكن فرعون ظل يطارحه فقال ((فما بال القرون الأولى ...)) الخ .

وفي قصة نوح ، نرى أن قومه ذكروا في القصة ، وبدت عليهم الحركة الدائبة ، والتفاعلات المتعددة ، فلقد أبرز الله عز وجل سخريتهـــــم واستهزائهم برسالتـه .

((ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منـــا فانا نسخر منكم كما تسخرون (٤))) .

ومن الواضح في شخصيات القصة القرآنية أنها شخصية لا ترد فـــي القصة على نمط واحد لا يتمثل فيها عنصر التطور والتدرج والتغيير .

---

(١) سورة القصص - آية : ٢٧ .

(٢) سورة طـــه - آية : ٤٩ .

(٣) سورة طـــه - آية : ٥٠ .

(٤) سورة هـــود - آية : ٣٨ .

بل على العكس من ذلك ، نرى الشخصية القصصية ، ويتغير موقفها ، وتتعدد اتجاهاتها ، وتختلف حياتها ، كما ظهر لنا كثيرا في أثناء عرضنا لكثير من القصص القرآنية ، وعلى سبيل المثال نرى أن شخصية نوح تتجلى فيها عاطفة الأبوة الكاملة وقت أن طلب من ربه ما طلب في سبيل نجاة ابنه ((فقال رب ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين))(١) .

ولكنه سرعان ما تغيرت شخصيته تجاه ولده بعد أن قال الحق عز وجل له ((انه ليس من أهلك)) فقال نوح عليه السلام ((رب اني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين))(٢) .

وسحرة فرعون بعد أن بدت شخصيتهم المحبة للمال ، التوّاقة للحصول على أجر سحرهم ، المستجيبة لأوامر فرعون ((قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين * قال نعم وانكم اذا لمن المقربين))(٣) بعد أن بدت شخصيتهم بسمة الخنوع والخضوع والحرص على الحياة ، نرى أن شخصيتهم قد انقلبت ، وعقائدهم قد تغيرت ، وذلك بعد أن رأوا عظمة سحر موسى حتى انهم لم يؤثر فيهم التهديد الفرعوني ، ومن ثمّ

---

(١) سورة هود - آية : ٤٥ .

(٢) سورة هود - آية : ٤٧ .

(٣) سورة الشعراء - آية : ٤١ - ٤٢ .

نراهم يخرون للأذقان سجدا لله رب العالمين ((فألقي السحـــــــــرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون))[١] .

((قال آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين))[٢] .

لم يأبهوا بهذا التهديد ((قالوا لا ضير)) أى لا ضرر يلحقنـــا وصلبك يا فرعون لأننا سنلقى الله عز وجل فيغفر لنا ما وقعنا فيه من ظـــلم ((انا الى ربنا منقلبون * انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنـــا أول المؤمنين))[٣] .

وهكذا في كثير من الشخصيات القرآنية ، نلمح أنها لا تقف عنـــد اتجاه معين ، بل يتمثل فيها كثيرا عنصر التطور والاستجابة لما حولهـــا من ملابسات ، ولا شك أن تطور الشخصية بهذا المفهوم يكسبها جمـــالا ويولد فيها الحركة والحيوية حتى تثمر ثمرتها ، وتعطي العبرة والعظـــة كاملة ، على عكس عرض القصص ذات الشخصيات الجامدة التي لا نحس فيها بتقدم ولا بتأخر أو نمو أو نقص ، فعلى ما فيها من جلب النفور للســـامع والقارىء ، فليس حولها مغزى كبير يمكن أن يستفاد منها .

---

(١) سورة الشعراء - آية : ٤٦ - ٤٨ .

(٢) سورة الشعراء - آيـــة : ٤٩ .

(٣) سورة الشعراء - آية : ٥٠ - ٥١ .

وفي رأيي ان بعض نقاد القصة المصرية وضعوا نصب أعينهم هذا القصّ القرآني ، بما له من شخصيات حية متحركة ، حتى عابوا بعض الروايات التي تكون شخصيتها مستوية بشكل عام ، لا يتمثل فيها عنصر النمو والتطور والاستجابة للمؤثرات العامة أو الخاصة ، وما ينبغي أن تقدم الشخصية في صورتها النفسية الثابتة من البداية الى النهاية.(١)

---

(١) الواقعية في الرواية العربية - د . محمد حسن عبد الله : ٤٧٥ .

الفصل الثالث

أحداث القصة القرآنية من حيث

ترابطها وواقعيتها

وأما الحديث عن أحداث القصة القرآنية ، فانها تدل على أنها مترابطة متسلسلة ، وهي كلها في سلك واحد منتظم ، لا غناء عن عنصر من عناصر الأحداث ، فكل عنصر له دوره في ابراز مقاصد القصة ، وما تجليها من عظة وعبرة .

ففي قصة موسى عليه السلام نرى أن من أحداثها على سبيل المثال :

١ - قتله النفس .

٢ - اقامته في مدين .

٣ - بعثته .

فنرى أن هذه الأحداث يكمل بعضها بعضا ، وأن الحدث الثاني لاحق للأول ، وكالنتيجة له ، فقتل موسى للقبطي أدى الى حدوث الذعر والاضطراب في نفس موسى عليه السلام حتى أوجس في نفسه خيفة موسى فأراد الله عزوجل أن يزيل عنه ستار هذا الخوف ، ويبدد عنه هذا الذعر الذى لحقه ، ولن يكون ذلك الا بمغادرته مصر الى مدين ، واقامتها في عش الزوجية بعد أن تزوج باحدى بنات مدين .

فاذا ما جاء الموعد المحدد لبعثته كانت نهاية خدمته التي قدرها شيخ مدين صداقا لزواج ابنته من موسى .

وهـكذا نجد تتابع أحداث القصـة ، ونرى أن جزئياتها يكمـل بعضها بعضا .

وقصة آدم عليه السلام تتكون مجمـل أحداثها من :

١) سجود الملائكـة لآدم .

٢) امتناع ابليس عن السجـود .

٣) طلبه النظـرة الى يوم الديـن .

٤) سكنى آدم الجنـة وزوجـه .

٥) أكلـه من الشجـرة .

٦) هبوطهم الـى الأرض .

وهكذا نجد الترابط بين أحداثها ، فعصيان ابليس مرتب على امتناعـه عن السجود حينما أمر اللـه الملائكـة بالسجود لآدم ، فلو لم يأمر رب العزة والجلال الملائكة بالسجود ، لما امتنع ابليس عن السجود ، وامتناعـه أدى به الى اللعـن والطرد ، وهذا أدى به الى عداوة آدم وذريتـه من الوسوسة لآدم في الخروج من الجنـة ، ولو لم يعص آدم ربـه بأكـله من الشجرة لما بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنـة وأهبطوا الى الأرض .

وهكذا نجد أن كل حدث مرتبط بسابقـه ، ولا يمكن أن يستغني عنـه في جو القصـة ، وهي في نفس الوقت أحداث واقعية ، ومتكامـلة ، ومتناسقة ، نتائج ومقدمات .

وفي حديث ابراهيم مع ضيفه ، الحدث التمهيدى واضح فيها اذ أن رسل الله من الملائكة حينما بشروه بما بشروا به ، جاءوا اليه بطريقة تدريجية ، فهم على هيئة بشر ، ومن ثمّ استحقوا الضيافة ، فلما رأى ابراهيم أنهم لا يقبلون على طعامه علم أنهم ليسوا من البشر المألوف ، ذات الطابع الخاص ، فأوجس منهم خيفة .

وحينئذ اك كانت الفرصة السانحة بعد هذا التهيؤ ، بأن يعلمه الملك بحقيقة الأمر ، وهي البشرى من الله ، فالأحداث الأولى عملية تمهيدية حتى تتم البشرى بروح مقبولة .

وهذه الصورة التمهيدية من قبل الملائكة وردت مع داود عليه السلام ، حينما تسور الملكان عليه المحراب ، لاعلامه بأنه حاد عن الجادة ، كان مثل هذا المنظر غير مألوف ، ولم يألفه البشر ، ولم يتعودوا عليه ، فهو يثير النفوس ، ويجعل المرء في دهشة وذهول ، فما أشد على بني الانسان أن يلحظ أمرا ليس من واقع حياته .

ومن ثمّ أراد الملكان أن يخففا من هول ما شاهد داود ، ويقللا من ذعره ، فحاولا أن يطمئنا نفسه ، ويطيبا خاطره ، حتى يتم الائتناس بينهما وبينه ، فقالا خصمان بغى بعضنا على بعض ، وحينئذ اك نرى أن داود قد اطمأنت نفسه لهذين الرجلين ، وسكنت خواطره ، لأنه أيقن أنهما رجلان دخلا في النزاع والمشاجرة ، وما أحوجهما الى داود ، وقد عرف بالفصل في المنطق ، ولذلك حكم عليهما من قولهما فقال ((لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه)) .

والطبيعة البشرية ، والنفس الانسانية ، حينما ترى ظلما صارخا لا يتناسب مع منطق العدل ، ولا يتواءم مع المحبة والألفة والرباط الأخوى تشمئز منه ، وتحس بغضاضة ، ومن ثمّ يكون التبرم والسخط ، وعلى هذا صدر حكمه ، ولكن هواتف قلبه ، واحساسه الداخلي ، وهواجسه المكهوتة ، ربما انها ربطت بين هذا الحدث ، وما وقع منه ، حيث انه كان له تسع وتسعون امرأة ، وطلب امرأة شخص ليس له غيرها وتزوجها ودخل بها .

وقد ذكر المفسرون عنا قصة أكثرها مأخوذة من الاسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه (١) .

وهنا أدرك داود أن هذا الأمر انما هو أمر الهي ، وانه اختبار من الله سبحانه له ، وان ما أمامه ليسا متنازعين على الحقيقة وانما هي صورة مجسمة تشير الى معنى ارادة الله عز وجل ، حتى يحس داود بوخز يؤنبه ، وضمير يعاقبه ، ومن ثمّ تدارك هذا الوحي الالهي فقال : ((وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب * ففغرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب (٢))) .

---

(١) تفسير الجلالين : ٦٠١ .

(٢) سورة ص - آية : ٢٤ - ٢٥ .

ودليل هذه الالتفاتـــة :

١ - التشابـه في الأمـــر .

٢ - قـوّى هذا التشابه أنه لمس أن هذين الشخصين ليسا عاديـــين بدليل أنهما جاءا بطريقة غير عادية ، لأنهما لم يأتيا من الأبـواب باستئذان ، وانما تسلقا السور .

٣ - ورجح هذا كله ما ذكره صاحب الكشاف أن داود بعد ما حـــكم لصاحب النعجة نظر فلم ير أحدا ، فعرف ما وقع فيه (١) .

وفي قصة مريم حينما جاءها الملك من عند الله عز وجل ، رأينا أن أحـــداث القصة كانت متسلسلة ، حيث ان الملك جاء في صورة البشر ، حتى لا تنزعـج مريم ، فترى شيئا غير مألوف ، ومما يدل على أنه أتاها في صورة بشـــر أنها استعاذت بالله منه .

الأمر الثاني أنها ربطت كلامها بتقواه ، وذلك كله يدل على أنهـا عرفت أنه بشر عادى ، وعلى ذلك تم شيء من الاستئناس .

ولكنها حينما ترى هذا الطلب الذى فيه هتك للعرض ، وضياع للشـــرف ومقت للفضيلة ، كان لابد أن يصارحها بأنه ملك من عند الله ، جاء ليهـب لها غلاما زكيا ، فحينئـذ تحولت بشريته ، فأصبح ملكا بمرأى عينهـــا وظنها ، ولكن العجب يحيط بها ، فكيف يهب لها غلام ولم يمسسهـــا بشر ؟! ومن ثم فما أحوجها الى اقتناع من هذا الملك بأن ذلك شيء فـــي

---

(١) الكشاف للزمخشرى - المجلد الثالث : ٣٧٠ .

الا مكان ، وليس مستحيلا ، معللا ذلك بقوله ((ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا))[١] .

وعلى هذا اذا تم الحمل ، ونفذ أمر الله ، لا تعيش مريم في دهشتها التي كانت متوقعة ، فلا تحس بحيرة واضطراب ، لأنها علمت أن الأمر من الله ، وأن الحكم حكم الله ((فحملته فانتبذت به مكانا قصيا))[٢] وهي وان كانت آمنت بحكم الله ، وصدقت رسول الله ، وأيقنت بقضاء الله وقدره ، ولكنها تحسب حساب مجتمعها ، فتخاف سطوة لسانه ، وتخشى من تهكمه وايذاءه ، حتى قالت ((يا ليتني مت قبل هذا))[٣] .

ولكن صاحب الأمر ((كن فيكون)) لابد أن يخفف عنها هذا العناء ، ويقلل من هذا السلاح الاجتماعي الرهيب ، حتى كلمها طفلها فهدأ من نفسها ، وأزال شيئا من خوفها قائلا ((ألا تحزني)) .

ثم بعد ذلك تكلم وهو طفل صغير فقال ((اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا))[٤] ، فحينما تكلم من تحتها ليثبت أمه ، ويزيل عنها شيئا من القلق .

وحينما تكلم في المرة الثانية ، ليدفع عنها أذى قومها ، لأنهم اذا رأوا طفلا صغيرا يتكلم ، فمعنى ذلك أن الأمر كله أمر غير عادي ، وعلى

---

(١) سورة مريم - آية : ٢١ .
(٢) " " - " : ٢٢ .
(٣) " " - " : ٢٣ .
(٤) " " - " : ٣٠ .

هذا فان مريم في نقائها وصفائها وطهرها وشرفها ، وهي بريئة من كل ريبة وبعيدة من كل فريبة ، فهي من عنصر شريف ((ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا))[١] .

وقصة سليمان مع الهدهد ، نرى أن هذه القصة تحتوى على أحداث متعددة منها :

الحدث الأول : حدث غياب الهدهد .

الحدث الثاني : اتيان عرش بلقيس .

الحدث الثالث : دخولها الصرح .

والحدث الأول مرتبط بالقصة تمام الارتباط ، حيث ان الهدهد كان دليلا قويا على أن معجزة سليمان الخالدة أنه كان يفهم لغة الطير ويسخرها تحت أمره ومشيئته .

وليس أدل على ذلك من أنه عجب أشد العجب حينما طالت غيبة الهدهد عنه ، ومن ثم رأى أنه يستحق العذاب ، أو يقيم عليه العذاب وقد يعفيه من هذين الأمرين اذا كانت غيبته لأمر " ما " ، كأن كان يتلقف نبأ ، أو يأتي بخبر لا يعلمه سليمان ((فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين * لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين))[٢] .

---

(١) سورة مريم - آية : ٢٨ .

(٢) " النمل - آية : ٢٠ - ٢١ .

فهذا دليل قاطع على أن حدث الهدهد يدل على أن طيورا كانت مسخرة لسليمان ، وكان يعرف لغتها ، ويعي دلالتها ، ويدرك اشارتها ، وتلك معجزة من معجزات الله عز وجل ، فقد سخر الله عز وجل له الكثير من خلقه ، سخر له الريح ، والشياطين ، والطيور ، حتى يكون قد استجاب الله عز وجل لدعوته حينما طلب من ربه أن يؤتيه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ((قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى انك أنت الوهاب))(١) .

كما أن حدث الهدهد كان دليلا قاطعا أمام سليمان على أن هناك قوما تركوا عبادة الله ، وانصرفوا الى عبادة الشمس ، فكان ذلك أدعى لسليمان من أن يقوم بتوجيهه السماوى ، فينشر رسالته وهو نبي من أنبياء الله .

فيوجه الدعوة الى عبادة الله ، مع نبذ عبادة الشمس التي فيها الأفول ، والمحق ، والزوال ، أما عبادة الله ففيها الخلود ، والبقاء ، والدوام .

ومن هذا كله يدرك أن حدث الهدهد عنصر أصيل في القصة ، وجوهر مكين في كيانها ، ولا يمكن أن تستقيم أحداث القصة ، وتؤدى مغزاها التي سيقت من أجله الا بهذا الحدث ، الذى هو بمثابة البداية والمقدمة لعرض أحوال بلقيس وقومها .

---

(١) سورة ص - آية : ٣٥ .

أما عن حدث اتيان عرشها فله مدلولات في القصة قوّية ، ومغـــزى يدركه من تأمل فيها ، اذ أن اتيان هذا العرش على ما فيه من تشبيـــت لبلقيس ، وتهيئة نفسها لعبادة الله عز وجل ، وترك عبادة الشمس الـــتي هي خلق من خلق اللـــه .

حيث ان بلقيس قد تظن أنها المخلوق الوحيد التي قد ازدهـــى عرشها ، وجمل ملكها ، وتزين سريرها ، وهذا ربما يكون مبعث غرورهـــا وسرعدم استجابتها ، فاذا ما لاح لناظرها هذا العرش الذى أتى بـــه عفريت من الجن ، قد تهدأ نفسها شيئا "ما" ، ويذوب شيء من كبريائها فليست وحدها التي تملك العروش الزاهية ، ولكن هذه الزخارف المزركشة هي من أعراض الحياة الدنيا وزينتها ، ومن ثمّ يملكها الكثير من النـــاس فليست وقفا على أحد ، ولا خاصة لنوع معين من الناس ، فما بالكـــم وأن هذا العرش هو عرشها ، وهنا يحار العقل كيف نقل هذا العرش مـــن بلد مترامية الأطراف ، بعيدة الأغوار ، تبعد المسافـــة الطويلة بينـــه وبين ملك سليمان ، لا تتأتى قدرة بشرية أن تحمل هذا البنيان الشـــامخ ، وتنقل على عاتقها هذا الطود الأشم ، اللهم الا اذا كانت هناك قـــدرة خفية حملته على عاتق القدرة الالهية ، والعظمة العلوية ، لقد قام الـــذى عنده علم من الكتاب ، وأتى به بعون الله ومدده وسلطانه الـــذى تتلاشى أمامه كل السلطات ، وقدرته التي تضعف أمامها كل قدرة ، فأتـــى بهذا العرش في لحظة وجيزة ، ونظرة خاطفة .

ومن ثمّ شكر سليمان ربه ((فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربي غني كريم)) (١) .

على أن هذا العرش يمثل معجزة من المعجزات التي أعطاها الله سبحانه لسليمان ، وتقرب أموره الخارقة للعادة للمدارك العقلية ، فحمل العرش يتوافق مع تسخير الريح ، ويتوافق مع تسخير الشياطين ، مما يقرب معجزات سليمان عليه السلام .

فكم من شيطان سخر لسليمان ، يغوص ويأتي له بالدرر ، وتكابد فتقيم له ما شيد بناؤه ، وقوّم سنته .

على أننا اذا تأملنا لبلقيس وقد عرض عليها هذا العرش في ملك سليمان نرى أن القرآن الكريم ينقل الينا ما حدث لها عند رؤية هذا المشهد ، فالقرآن الكريم يقول ((أهكذا عرشك)) ؟! فقالت ((كأنه هو)) (٢) .

فهذه الآية الكريمة تدل على أن بلقيس فطنت الى المشابهة التامة بين عرشها الذى تركته في ملكها ، وبين هذا العرش الذى لمحته في ملك سليمان .

---

(١) سورة النمل - آية : ٤٠ .

(٢) سورة النمل - آية : ٤٢ .

العرش : سرير الملك ، وكان مرصعا بالجواهر .

ولكنها تستبعد كل البعد ، وجريا على ما هو مألوف أن ينقل عرش من مكان الى مكان مهما كانت المسافة قصيرة ، فما بالكم والبون شاسع بين ما كان فيه ، وما نقل اليه ، فآثرت التشبيه بكأن ، ولم تؤثر التشبيه بالكاف ، اذ أن التشبيه بكأن يأتي اذا كان المشبه قريبا من المشبه به . أما التشبيه بالكاف فيرى البلغاء أنه يأتي مع البعد بين المشبه والمشبه به .

أما عن هذا الصرح الذى قد شيّده الجن لسليمان ، ففيه العظة والعبرة ، كل العظة والعبرة ، فلو صح ما قيل بأن سليمان كان يرغب في زواجها ، لكان دخولها الصرح الذى يتشكل بشكل الماء دافعا لانصرافه عنها ، حيث انه رأى منها ما لا يحب أن يراه ، وذلك حينما كشفت عن ساقيها ، ظنا منها أنها لا تدخل صرحا ممردا من قوارير ، وانما هي تشق طريقها في المياه ، فرأى منها شعرا على رجلها فانصرف عنها ، وهذا سبب قوى في أن ارادة الله عز وجل هي النافذة .

وكما يقول الله تبارك وتعالى ((وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم)) (٢) .

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ المجلد الأول : ١٣٢ ـ ١٣٣ الطبعة الثانية .

(٢) سورة الأحزاب ـ آية : ٣٦ .

وهكذا نلمح أحداث القصة ، ذات هدف ومغزى ، ومرتبطة تمام الترابط ، وتومئ الى وقائع لو تأمل فيها المدقق لأحس بالعظة والعبرة ففيها القدرة الالهية البالغة ، وفيها الحكم الرائعة ، وفيها تصوير للذكاء البشرى ، والعقلية الانسانية .

أليس أدل على ذلك من أن بلقيس حكمت بنبوة سليمان بعدم قبوله الهدية ((واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون * فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون (١))) .

يقول الدكتور شوقي ضيف : " ومن هنا تأتي صعوبة القصة ، فهي ليست سردا قصصيا كما قد تبدو ، وانما هي خلق وضبط وأحكام ودأب في أن يبث القصاص في قصته ما يجعلها خليقة بالبقاء "(٢) .

---

(١) سورة النمل - آية : ٣٥ - ٣٦ .

(٢) في النقد الأدبي للدكتور شوقي ضيف - الطبعة الرابعة : ٢٢٩ .
ولعل سائل يسأل : ان عدم قبول الهدية لا يكفي دليلا تستدل به بلقيس على نبوة سليمان ؟
والجواب : ان بلقيس حينما وصلها كتاب سليمان الداعي لها للاسلام أرادت أن تجرب هذا الداعية ، هل هو طالب ملك وسلطان أم هو داعية الى حق ، فلما رد هداياها تأكدت حينئذ من صدق دعواه ، فقدمت اليه مذعنة .
والحادثة : عبارة عن سلسلة حوادث في قصة يرتبط بعضها ببعض بروابط السببية في سبيل تكوين حبكة لها بداية وتطوير ونهاية " .
راجع : معجم مصطلحات الأدب / د . مجدى وهبة / مكتبة لبنان : ١٩٧٤ م صفحة : ٥ .

ومع أن هذه الأحداث جاءت في أسلوب حركي يدفعها لكي تصل الى النهاية دون تعثر أو وقوف ، الا أننا نرى أن بعض الأحداث قد تقف أحيانا عند تجاورها بحدث آخر ، حتى قد يظن أن شيئا من التسلسل الحركي قد انقطع ، ولكن في الحقيقة ان هذا التوقف الحدثي المؤقت دعامة أساسية من دعائم بناء القصة القرآنية ، وعنصر هام من عناصر تشويقها ، فتوقف هذا الدفع الحدثي أجلى طبيعة الحبك الفني في القصة القرآنية الشريفة ، وعلى سبيل المثال " حجز بنيامين بعد أن وجد الصواع في وعائه " .

فصير بنيامين أصبح مجهولا حتى يذهب اخوته الى أبيهم ، وقد عرّفوه بالحقيقة التي عرفوها ، فحدث بنيامين قد توقف قليلا ، ولكنه ما توقف الاّ لكي نستمع الى حدث آخر ، وفيه شيء من الارتباط الوثيق بينه وبين هذا الحدث الذى يظن أنه قد توقف كما يفهم من قول يعقوب ((يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون (١))) .

ومن مثل قصة موسى ما ان توقف حدث قتله للقبطي ، وبدت أحداث أخرى تنجلي في القصة القرآنية ، كموقفه من ابنتي شعيب ، وزواجه حتى يعود الحدث الذى اختفى ، بعد أن يرسله الله عز وجل الى فرعون الى غير ذلك من أمثلة ما ينقطع الحدث الا لبناء القصة وحبكها حبكا قويا .

---

(١) سورة يوسف - آية : ٨٧ .

وانني أرى أن تسلسل أحداث القصة القرآنية ودفعها بهذا السحر العجيب ، وما لها من أسلوب حركي بديع ، ربما أنه لفت أنظار بعض النقاد المصريين الذين اهتموا بأدب القصة ، حتى وضعوا معايير فنية لصياغة القصة ، فاشتقوا الكثير من تلك الأحداث القصصية القرآنية ، فيرون " الصياغة الفنية ليست مجرد تشكيل أحداث القصة فحسب ، بل هي كذلك المحرك الذى يحركها ، ويتحرك معها في اطار الحبك الفني ، وما يقتضيه من ترتيب المواقف وتنسيقها تقديما أو تأخيرا اجمالا أو تفصيلا ، مع الربط الوثيق في ترتيب المواقف والأحداث في ترتيب مقنع يقوم على أساس الاقتناع القائم بين القصة وقارئها "(١).

أما من حيث واقعيتها ، فكلمة حق أن الأحداث كلما كانت مأخوذة من واقع الحياة ، صادقة في الكشف عن جوانبها ، جادة في الوصول الى ما حولها ، وما يحيط بها ، كانت القصة التي تذخر بتلك الأحداث قصة لها وقعها النبيل على النفس .

فاننا لو تأملنا القصّ القرآني ، لوجدناه كالمدسة النقية الجلية التي تشف أحوال الأمم ، وتسجل ماضيها مع كثير من الأنبياء والرسل .

---

(١) صور ودراسات في أدب القصة / حسني نصار / ص : ٧٣ ، طبعة عام ١٩٧٧ م .

والقصة القرآنية كثيرا ما أعربت عن دور الرسل في نشر الدعوة والعقيدة السماوية ، وأفصحت عن نوايا النفس ، ومكنون الخواطر بأسلوب بلغ المدى في الفصاحة والبلاغة ، وما ينبغي لأحد أن يصف القصة القرآنية بأنها أسطورة من الأساطير ، اللهم الا اذا كان من أهل الوثنية والشرك ، وأهل الزيغ والضلال .

وصدق الله عز وجل حينما سجل عليهم عنادهم ، وحكى افتراءهم فيقول عز من قائل ((وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما وزورا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا))(١) .

ولقد ردّ الله سبحانه وتعالى على هؤلاء ، لكي يبطل ادعاءاتهم الكاذبة ، فأبان عز وجل عن أن هذا القرآن الكريم كله ، بما فيه هذا القصّ القرآني ، منزل من عند الحق عز وجل ، الذى يعلم السر وأخفى ((قل أنزله الذى يعلم السر في السموات والأرض انه كان غفورا رحيما))(٢) .

ان القرآن الكريم بما فيه هذا القصّ كله حق ، وليس فيه زيغ ولا اختلاق ((بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين))(٣) .

---

(١) سورة الفرقان - آية : ٤ - ٥ .

(٢) سورة الفرقان - آية : ٦ .

(٣) سورة يونس - آية : ٣٩ .

ان القصة القرآنية قصة تمثل أحداثا حقيقـــة ، وجوانبا ملموســـة ، ومشاهدا قد تم وقوعها ، فليست القصة القرآنية جانبا خرافيا ، أو حادثـــا وهميا ، أو أمرا اختلاقيا ، أو عنصرا ما كان الا للتزييف والمبالغات الوهمية ، حبا في الاثارة المصطنعة ، وجمع الأذان التي تطيب لكثير من الأحـــداث التي بنيت على الحدث والتخمين .

اننا لو تأملنا لأحداث القصة القرآنية جزئية جزئية ، لكنا صادقـين في القول بأنها أحداث الوقائع الملموسة التي قد شوهدت في زمن مـــن الأزمنـــة ، وهي بعيدة كل البعد عن أى مبالغة ممقوتة ، والأدلـة عـلى ذلك لا حصر لها .

ففي قصة موسى مثلا حينما ذكر الله عز وجل موقف موسى حينما شاهد فعل السحرة التابعين لفرعون ، وما رآه بعينه من سحرهم ، وقد أصيـب أولا بشيء من الخوف ، يحكي الله عز وجل هذا الحدث ، وينقله للقـارىء والسامع بصورته الملموسة الواقعية ، فيقول عز من قائل ((يخيل اليه مـــن سحرهم أنها تسعى (١))) ، فان حقيقـة الأمر أن سحرة فرعون حينما ألقـوا حبالهم وعصيهم تخيلها موسى من عظمة السحر أنها حيات تتحرك وتسعـى على بطونها ، حتى أحس موسى الخوف في نفسه بمقتضى الطبيعـــة البشرية ، ان القرآن الكريم يقرر الحقيقـة ، ويحكي ما حدث فعـلا بـدون

---

(١) سورة طـه - آية : ٦٦ .

تزييف أو مبالغة ، ولننظر الى ما حدث بعد أن ألقى موسى ما في يمينه فاذا هي تلقف ما يأفكون .

ان القرآن الكريم حكى أثر ذلك في نفوس سحرة فرعون ، حكى ذلك من غير أن يضيف عنصرا يشوق به آذان السامع أو القارىء ، فقال عز من قائل ((فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى))(١) ، انها آية قرآنية واقعية ، وليست تهويلية .

ولننظر الى قصة نبي الله شمعون ، وهو من نسل هارون وطالوت فان الله عز وجل حينما أبان عن نية عملاء القوم ، وأفصح عن عزيمتهم التي تدل على نيتهم الصادقة ، فان كانوا حقا أحبوا الجهاد والقتال في سبيل الله ، فانهم اذا مروا بنهر وهم على حالة العطش الشديد ولم يشربوا منه كما أمرهم بذلك طالوت ، فانهم صادقوا النية ، ولهم قوة الارادة التي تمكنهم من الجهاد في سبيل الله ، يذكر الله عز وجل هذه القصة فيقول ((فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده))(٢) .

فيا ترى ، هل القرآن الكريم حينما أراد أن يصفي أتباع طالوت

---

(١) سورة طه - آية : ٧٠ .

(٢) سورة البقرة - آية : ٢٤٩ .

ليعرف منهم الصادق والكاذب ، هل اختار لهم طريقا يجلي حقيقتهم غير مرورهم على النهر ؟

أم الحقيقة ابتلاهم بذلك النهر فقط ، فمن صبر على عطشه مع اجتياز تلك المياه كان ذلك دليلا على قوة صبره .

ان القرآن الكريم ليست أحداث قصصه خيالية أو وهمية ، بحجة أن القصة القرآنية لها جسما وهيكلا للحكاية ، والجسم والهيكل غير مقصود ، وأما المقصود حقا هو باقي القصة من توجيهات دينية أو خلقية (١) .

لقد زعم بعض الباحثين ، ومنهم الشيخ محمد عبده (٢) ، أن القصص القرآني جاء في القرآن لأجل العظة والاعتبار ، لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين ، وانه ليحكي من عقائدهم الحق والباطل ، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ، ومن عاداتهم النافع والضار ، لأجل العظة والاعتبار .

وقد يأتي في الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكي عنهم ، وان لم تكن صحيحة في نفسها ، مثل ((فلما بلغ مطلع الشمس)) .

---

(١) راجع : الفن القصصي في القرآن لمحمد أحمد خلف الله : ١٩٧ طبعة عام ١٩٥١٢ م .

(٢) المنار لمحمد رشيد رضا - تفسير قصة هاروت وماروت ، الجزء الأول : ٣٩٩ .

وفي الحقيقة ان الشيخ محمد عبده مصيب في قوله بأن القرآن الكريم يحكي في قصصه الحق والباطل ، والصادق والكاذب ، والنافع والضار ، لأجل الموعظة والاعتبار .

وهذا واضح ملموس في كثير من القصّ القرآني ، مثل عبادة العجل فهو أمر باطل ، وعبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، وعقر الناقة ، وتطفيف المكيال والميزان ، وما الى ذلك من أمور باطلة .

أما عن كلامهم الكاذب ، مثل قول الحق عز وجل على لسان فرعون ((قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون))(١) .

أما عن القول الصادق ، فمن مثل قول الله سبحانه وتعالى على لسان سحرة فرعون الذين آمنوا بموسى ((قالوا لا ضير انا الى ربنا منقلبون * انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا أول المؤمنين))(٢) .

فما دامت القصة القرآنية تتحدث عن حياة أمة من الأمم ، فهي تتناول سيرتهم التي تحمل جانبي الخير والشر ، والحق والباطل ، على أن كل رسول اذا بعث في قوم فقد يجد فيهم من يصغى لقوله ، ويستجيب لنداه ، وقد يجد فيهم من تحجر قلبه ، وتبلدت عقليته .

ومن ثمّ كانت القصة القرآنية تمثل هذه الجوانب المتباينة ، وان كنّا نؤمن جميعا بأن القصة القرآنية هدفها الأسمى العظة والاعتبار ، كما

---

(١) سورة الشعراء - آية : ٢٧ .

(٢) سورة الشعراء - آية : ٥٠ - ٥١ .

يفهم من قول الحق عز وجل ((لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)) .

ولكني لا أؤيد ما ذهب اليه الامام محمد عبده من أن القصة القرآنيـــــة ما جاءت للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار .

اذ أن الحق تبارك وتعالى بعد أن بيّن في صدر الآيـــــة أن القصة للعبرة ، نراه يقول ((ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بيـــن يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)) (١) .

فما دامت القصة حقا ، وليس فيها افتراء ، فلزاما علينا أن نعتقد ونصدق كل جزئية من جزئياتها ، وخصوصا اننا في الأمثلة السابقة أثبتنا أن كل جزئية بعيدة عن الزيغ والتهويل ، لأنها تحكي الواقع ، وتسجـــل الأحـــداث كما هـي .

حقا ان الشيخ محمد عبده مصيب في قوله " لأن الحكاية قد تأتـــي بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين ، أو المحكي عنهم ، وان لم تكـــن صحيحة في نفسها ، اذ أن ذلك في رأيي يؤيد ما أقوله بأن القصة القرآنيـة قصة واقعية في كل ملامحها حتى كانت المعاني المألوفة على ألسنة شخصياتها تحكى كما هي ، وان لم تكن قريبـة من الافهام لكي تكون القصة معـــــبرة تماما ، وسجلة المفاهـــيم التي ألفتها الأمم بدون زيادة أو نقصـــان .

---

(١) سـورة يوسـف - آيـة : ١١١ .

لقد فطن النقد الحديث الى أن الأدب الواقعي لن يكون الا اذا كان يقوم على ملاحظة الواقع وتسجيله ، لا على صورة الخيال وتهاويله مما يتعارض مع الأدب الرومانسي .

واذا تأملنا لهذه القصص القرآنية التي تحكي الصفات النفسية الغريزية البشرية المقوتة ، كالحسد ، والتعالي ، والغرور ، والكبرياء ، والتفاعل الاجتماعي غير السليم ، والقصور في التفكير ، والخضوع للبشرية دون الله عز وجل ، والأنانية ، وحب الذات ، وايثار مصلحة الفرد على الجماعة .

اذا تأملنا هذا كله ، أحسسنا بأن القصة القرآنية قصة موضوعية ومن ثمّ ، فهي قصة واقعية ، وهي بهذا المعنى تبعد عن القصة الخيالية الوهمية ، التي لا تشف عن المشاكل الاجتماعية ، والأحداث التي تئن منها المجتمعات ، وتكتظ بها الحياة .

لقد تنبه النقد الحديث الى أن الواقعية انما تكون لا يقاظ وعي الجماهير ودفعها الى حل المشاكل بطريقة أو بأخرى .

والقرآن الكريم كما سنذكر عند الفصل الرابع من الباب الثالث ، كانت قصصه كثيرا ما تهدف الى غرس القيم النبيلة ، ومعالجة النفس البشرية والقصص القرآنية في جملتها تعليم ، وتهذيب ، وتربية ، ومعنى هذا أنها بهذا المفهوم النقدي الحديث توصف تماما بالواقعية ، ومعنى ذلك

---

(١) الواقعية في الرواية العربية / د . محمد حسن عبد الله : ٣٣ طبعة عام ١٩٧١ م .

أن القصة القرآنية في هيكلها وأحداثها العامة ، وجزئياتها المتلاحقة وأهدافها السامية ، واعتمادها تماما على تسجيل الأحداث كما هي قصة واقعية .

واقعية في صدقها ، حيث انها لا تستمد أحداثها من الأساطير الخرافية .

واقعية في نظمها الأحداث كما هي .

واقعية في معالجتها لمشاكل الحياة .

ولعل النقد الحديث (١) حينما رفض أن تكون الرواية الفنية تقليدية ، لعله وضع في حسبانه أن الرواية التي تحكي الوقائع الملموسة تفوق الرواية التي تستقي أحداثها من الأساطير ، وتستمد من التاريخ حتى لو كان خرافيا موضوع قصتها وتسلسل أحداثها .

ان القصة القرآنية قصة واقعية تذكرنا بأحداث الأمم ، وتدعونا الى التأمل في سلوك جيل بعد جيل ، لكي نقف على حقيقتهم ، وما صنعوه تجاه رسلهم ، وفي ذلك دربة للعقول المفكرة ، وفي ذلك فليعتبر المعتبرون .

ان آثار الأسطورة على النفس ان أحدثت هزة ، فسرعان ما يضيع أثرها ، وينمحي بريقها .

أما القصة الواقعية فلن يضيع أثرها على النفس ، ولن تنطفي .

---

(١) راجع : تطور الرواية العربية الحديثة في مصر - للدكتور عبد المحسن طه بدر : ١٩٤ ، طبعة دار المعارف ١٩٦٣ م .

شملتها الموجهة للنفوس الهادية للحائرين ، اذ أن النفوس البشرية تسكن للحقائق ، وتطمئن لكل حدث سرى في الحياة ، لكي تقف على نهايته وتعرف نهاية الصالح ، وعاقبة الطالح .

أما الأحداث الوهمية الخرافية ، فاذا كانت في أصلها أمرا مختلقا وشيئا مصنوعا ، فكيف تشتاق النفوس لمعرفة غايتها ، والوقوف على ثمرتها فالحدس والتخمين والافتراء أمر لا تقبله العقول ، فضلا عن أن يحدث دويّا في نفس القارىء أو السامع .

لله ! ما أحكم القصص القرآني ! وما أعظم صدقه ! وما أجمل وقائعه ! وما أسمى أحداثه التي كانت أمينة في نقل الشاهد ، حتى كانت في قمة الفصاحة والبلاغة وروعة البيان والأداء ، ولا ريب ولا عجب فهي تنزيل من حكيم حميد .

ان واقعية القصة القرآنية كانت مبررا في سرد الأحداث بتفاصيلها حتى كان تأثير القصة القرآنية ليس بمعنى تغيير موقف معين ، أو حدثا بذاته ، كما نشاهده في كثير من القصص التي اصطنعه كتّاب اليوم ، فهم لا يستطيعون - كما لمس ذلك بعض الباحثين ، ومنهم الأستاذ أحمد أمين (١) - لا يستطيعون أن يقصّوا تفاصيل الشيء جميعها ، انما يتخيرون ما يعدونه موضع التأثير .

ومن ثمّ اختلف الفنانون ، فان الأشياء لا تقع في نفوسهم موقعا

---

(١) النقد الأدبي / أحمد أمين / ص : ٦٩ طبعة ١٩٦٧ م .

واحـدا ، بل قد يتأثر كل بناحية غير التي يتأثر بها الآخر ، فيخرجها كل كما تأثر بهـــا ، وبهذا صبغ فنهـم بالكمالية ، حيث انهم لا يخرجون الشيء كما هو في الخارج ، ولكن كما يتصورونه ، ويتخيلونه ، ويتأثرون به .

وما كان لي أن أحدث شيئا من المقارنة بين هذا القصّ البشـــرى وبين هذا القصّ الرباني ، فشتان بين قول المخلوق وقول الخالق .

ولكن قصدى أن أثبت الاعجاز القصصي الرباني ، حيث ان واقعيته ، وسـرد أحداثـه ، لها قوة في التأثير ، وروعة في تحريك المشاعر من غير أن يكـون فيها موقف معين أراده الحق عز وجل ، فان كل سلسلة فيها ، وكـــل جزئية ، قد صورت الواقع ، لها ما لها من سحر خلاب ، وقوة بيان ، وحسن مغزى ، وعلى هذا اتسمت القصة القرآنية بسمات الاعجاز ، ما دامـــت لم تجنح الى الخيال في تأثيرها ، والى التقاط بعض المواقف لكي يكـــون وقعها على النفس أشد ، ورنينها على الأسماع أقوى نغمـــة .

ان واقعية القصة القرآنية ، وتتابع أحداثها ، وتسلسل أفكارهـــا ، وترابط معانيها ، حتى كان كالبنيان يشد بعضه بعضا ، أكسبها رونقـــا وسحرا جذابا ، وأعطاها جمالا لا ينكره أصحاب المواهب الفطرية ، والعقول المستنيرة ، والعواطف المتأججة بحرارة الايمـــان .

ان كان هناك شيء من الخيال في القصة القرآنية ، فانما هو ليـس مقصودا لذاته ، ولا يمثل حلقة من حلقات القصة القرآنية ، وانما أراد بـــه الحق عز وجـــل أن يوضح حدثا ويجليه أمام العرب ، حتى يتمثلوا الوقائع التي حدثت عند الأمم الغابرة ولم يشاهدوها ، كأنها ماثلة أمام أعينهم .

ومن ذلك قوله تعالى ((وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتيـــة * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهـــم أعجاز نخل خاويـــة (١))) .

فالله تبارك وتعالى أراد أن يبين لنا قوة الريح التي أهلكت عـادا وهم قوم هود، فلقد سلطها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعـــة لا تفتر ولا تنقطـع ، فكانت النتيجة أن تركت هؤلاء القوم صرعى أى موتـى لا حركة فيهم ولا حس ، فهذه حقيقة وأحداث تمثل الواقع ، ولكن اللـه سبحانه وتعالى لكي يوضح لنا حال تلك الجثث ، وهيئتها ، جنح الـى التشبيه الذى يقرب الأفهـام ، فقال ((كأنهم أعجاز نخل خاويـة)) أى كأنهم أصول نخل متآكلة الأجواف ، فلقد حـدث المفسـرون (٢) أن الريح كانت تقطع رؤوسهم ، كما تقطع رؤوس النخل ، وتدخل مـن أفواههم وتخرج من أدبارهم حتى تصرعهم ، فيصبحوا كالنخلة الخاويـة الجـوف .

وهكذا كان التشبيه بأعجاز النخل لمسة من لمسات اجلاء الأمـر أمام العرب الذين عرفوا النخيل ، فالخيال هنا القائم على التشبيـه لم يغير مجرى الواقعية في القصة القرآنية ، وانما جاء لنقل المشاهـد

---

(١) سورة الحاقـة - آية : ٦ - ٧ .

(٢) صفوة التفاسير - للشيخ محمد علي الصابوني - الجزء التاسـع والعشرون / ص : ٢٦ - الطبعة الأولى .

غير المرئيـة في صورة المشاهد المرئية ، حتى يكون وقعها على النفـــس أشـــد ، وتكتمل الصورة في عقل القارئ للقصة القرآنيـــة .

وهكذا نحس بأن اجلاء الوقائع بطريـق التشبيه ، أو الاستعـارات لا يخرج القصة القرآنيـة عن واقعيتها ، بل بالعكس يبرز هذه الواقعيـــة في ثوب محسوس ملموس .

وقد نرى مشهدا من مشاهد القصة القرآنية ، وقد يبدو للسطحيين لأول وهلة أنه محض خيال وأسطورة من الأساطير ، وذلك من مثل قول الحق عز وجـــل ((واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خـــذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون (١))) .

فرفع جبل الطور فوق بني اسرائيل حتى أصبح كالظلة التي تظللهـم فخيل اليهم أنه سيقع عليهم فيهلكهم هذا الأمر في نظر السطحيين مـادام لا يقبله العقل ، فما أشبهه بالخرافات ، وقد نسوا أن الذى قد رفـــع الجبل فوق بني اسرائيل ، وأمرهم أن يأخذوا ما أتاهم بقوة بدون تضجـــر أو تذمر ، ويحافظوا على العهود والمواثيق أشد محافظة ، نسوا أن الـذى صنع تلك المعجزة الباهرة هو الحق عز وجـــل .

فقوة الله سبحانه وتعالى التي أهلكت قوم لوط ، وهددت قراهـــم وأغرقت قوم نوح بالطوفان ، وقوم هود بالريح العاتية ، هي التي رفعـــت هذا الجبل على غير العادة البشرية ، فاذا كان التاريخ يؤكد تلك الواقعـة

---

(١) سورة الأعراف ـ آية : ١٧١ .

ولا ينكرها ، فان العقلية المتفتحة ، والقلوب المستنيرة لا تنكر هذا الحدث فهو أمر سهل أمام عظمة الله سبحانه وسلطانه .

وقد ذكر السيد رشيد رضا[١] في تفسير المنار : " ان هذا المعنى من رفع الجبل ، وأمر بني اسرائيل أن يأخذوا ما أتاهم الله من الأحكام بقوة ، وأن يفعلوها دون تذمر أو توقف ، يذكر السيد رشيد رضا في المنار بأن هذا المعنى اعترض عليه بأنه اكراه على الايمان ، والجاء اليه ، وذلك ينافي التكليف " .

ولكننا اذا علمنا أن كثيرا من الأمم السابقة حينما يشتد عنادها ، وتكثر مواقفها الدالة على العلو والطغيان ، كان لابد من عامل تهديدي يردعهم ، وقوة علوية تسيطر عليهم ، لعلهم يرتدعوا ، أو يعودوا الى شيء من رشدهم ، وقد حدث هذا في أكثر من موقف لبني اسرائيل ، ومن ذلك قول المولى تبارك وتعالى ((فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين * ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكثون))[٢] ، فارتفاع الجبل فوق بني اسرائيل لعله من باب

---

(١) قصص الأنبياء - لعبد الوهاب النجار - ص : ٢٢٩ .

(٢) سورة الأعراف - آية : ١٣٣ - ١٣٥ .

الردع والزجر ، وخصوصا انهم كانوا أشد استكبارا وأشد طغيانا ، فما أحوجهم الى مثل هذا .

ولست مع قول من يقول بأن جزءا عظيما من الجبل اقتلع من مكانه أثناء رجفة أو زلزال ، ورأوه بأعينهم أسفل الجبل كأنه ظلة ، وخافوا وقوعه بهم ، وذلك عند أخذ ميثاقهم على العمل بالتوراة على معنى أن يكون هذا العمل وليد الصدفة والتأثيرات الجوية الزلزالية .

ولكنني أؤيد ما ذهب اليه الامام الشيخ محمد عبده من أن رفع الطور كان آية كونية ، على معنى أنه انتزع من الأرض وصار معلقا فوقهم في الهواء ، انها آيات كونية ، ومظاهر خارقة ، تعجز عنها البشرية لتكون أدل على قدرة الله عز وجل .

وما القصة القرآنية في عمومها الا وداعية الى الحق عز وجل وموجهة الى سلطانه الذى لا ينفد ، وقدرته التي لا حد لها .

ان كان هناك مشهد من مشاهد القصة القرآنية فيه شيء من الغرابة التي لا يتأنس بها العقل ، فمعنى أننا نقيس الأمور بمقياس بشرى ولكننا اذا رددنا الأمور الى القدرة الخارقة ، والاعجاز الالهي ، أحسسنا تماما بأنها أمور تقبلها النفس ، وتأنس النفوس المؤمنة .

ان القصة القرآنية ما ينبغي أن نصفها بالقصص الرومانسية البحتة التي هي طيئة بالغرائب والأحداث غير المبررة ، والتي ليست هي من وقائع الحياة ، كما نرى ذلك كثيرا عند بعض الكتاب العصريين من

مثل نداء المجهول لمحمود تيمور (١) ، فهي مليئة بكثير من الأحداث التي تفيض بالغرابة ، وتنقطع تماما عن واقع الحياة .

ان وقائع القصة القرآنية بعيدة كل البعد عن التوهمات الباطلة وكانت جودتها ، وقوة سحرها الفياض ، ليست منبثقة من صنع الخيالات كما يصنع ذلك بعض القصاصين الخرافيين ، وانما قوة سحر القصّ القرآني يفيض من روعة تصويرها الحقيقي ، وجمال أحداثها الواقعية ، والتي لها ما لها من تبرير معقول ، وهذا سر من أسرار الاعجاز القرآني ، اذ كان تأثيره لا من باب التصنع والافتراضات الوهمية ، وانما كان تأثيره لأنه يدور حول حلقات الوقائع ، ويسرى بين كل لمسة من لمسات الحياة فكان قبسا يبدد الظلام ، ويلهمنا الحكمة والرشاد .

* * *

* *

*

---

(١) الأدب القصصي والمسرحي في مصر ـ للدكتور أحمد هيكل : ١٩٥ .

الفصل الرابع

ما تهدف اليه القصة من قيم ومعالجة انسانية

على ما في القصة القرآنية من عظات بالغة ، وذكريات لو تأملها كل عاقل حصيف ، لعاد الى رشده ، واختار لنفسه الطريق الأمثل ، فاستجاب لدعوة الرسل ، ولقول الحق تبارك وتعالى ، كما أشارت الى ذلك كثير من الآيات من مثل قول الله عز وجل ((نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون (١))) ، وكما في الآية الأخيرة من سورة يوسف ((لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثا يفترى)) .

وكما أشرت كثيرا عند حديثي عن التكرار في القصة القرآنية الى أن القصة بعرض أحداثها ، والوصول الى نهايتها ، قد تهدف أول ما تهدف الى أن يأخذ مشركوا مكة ، والمماندون لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أحداث الأمم السالفة ، التأسي والعظة ، كما يقول الشاعر :

واذا فاتك التفات الى الماضي .·. فقد غاب عنك وجه التأسي

لقد اتضح لنا من أحداث القصة ، أنه على الباغي تدور الدوائر ، وأن الظلم عاقبته وخيمة ، فمن طغى وتكبر واستبد بعباد الله ، وانصرف عن العبودية والامتثال للحق ، فسرعان ما يرى العاقبة الوخيمة ، والنهاية المؤسفة .

---

(١) سورة القصص - آية : ٣ .

وقد يتجلى ذلك في عرض كثير من القصص القرآني ، من مثل قول الحق عز وجل ((وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون * وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين * الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون))[١] ، وهكذا تحددت نهاية فرعون وجنوده بعد أن بدأ منهم الصلف والغرور .

وأين فرعون الطاغية ؟ وهو القائل ((أنا ربكم الأعلى))[٢] ، والذى هدّد من آمن من السحرة ((ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشدّ عذابا وأبقى))[٣] .

انه لقي حتفه ومصيره الذى تقشعر منه الأبدان .

وقوم لوط الذين ارتكبوا الفواحش ، وآتوا في ناديهم المنكر ((ولوطا اذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد

---

(١) سورة يونس - آية : ٨٨ - ٩٢ .

(٢) سورة النازعات - آية : ٢٤ .

(٣) سورة طه - آية : ٧١ .

من العالمين * ائنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر ، فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين * قال رب انصرني على القوم المفسدين)) (١) .

ولكن الله تبارك وتعالى أنزل على هؤلاء بسبب فسقهم رجزا من السماء ، وأباد قراهم ، وأهلك من فيها الا من سار على الدرب المستقيم ((ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين * قال ان فيها لوطا ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين * ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين * انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون * ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون)) (٢) .

وقوم شعيب ، وقد ظهر سفههم واحتقارهم لنبيهم ((قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وانا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز)) (٣) .

ناهيك عن قوم نوح ، وهود ، وصالح ، ومواقفهم مع أنبيائهم التي أشرنا اليها في الفصول السابقة من الباب الأول .

---

(١) سورة العنكبوت - آية : ٢٨ - ٣٠ .

(٢) سورة العنكبوت - آية : ٣١ - ٣٥ .

(٣) سورة هود - آية : ٩١ .

على أن ما نريد أن نقرره في هذا الفصل ، هو الاشارة الى أن القصص القرآني يوضح لنا في كثير منه ، أن الأخطار وان أحدقت بالانسان والأهوال وان ألمت به ، الا أنه لا يمكن أن يصيبه منها شيء طالما ان رعاية الله تحيط به ، فالله سبحانه وتعالى اذا شمل المرء بعطفه ، وأمده بعنايته ، فمهما امتدت اليه يد البشرية ، وحلقت به الأخطار من كل جانب ، فانه لن يصاب بسوء ، لأنه في حفظ الله سبحانه وتعالى ويتجلى ذلك في كلمة موسى عليه السلام ((كلا ، ان معي ربي سيهدين)) وذلك حينما قال أصحاب موسى انا لمدركون ((فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون * قال كلا ان معي ربي سيهدين)) (١) .

لقد حفظ الله موسى من يد فرعون وهو طفل صغير ، وحفظه بعد أن قتل القبطي ، وحفظه من سطوة فرعون بعد أن وجه اليه الدعوة الالهية مع أخيه هارون .

ولقد تجلت العناية الالهية في حفظ يوسف الصديق ، فلقد ألقي في البئر ، وزج به في السجن ، واتهم بما اتهم به ، ولكن النهاية كانت نهاية طيبة ، فلقد جمع بين الحسنين ، حيث انه تولى السلطة فكان موزعا للخيرة ، ومن بين هؤلاء الذين كان صاحب السيادة عليهم هم أعداؤه ، أي اخوته الذين كادوا له ، وتربصوا به ، وفي النهاية

---

(١) سورة الشعراء - آية : ٦١ - ٦٢ .

كانت عودته الى أبيه مجبور الخاطر ، يحمل لواء الكرامة والسيادة والوقار حتى اعترف له من كادوا له بالفضل والعظمة ((قالوا تالله لقد آثرك الله علينا)) ((قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين))(١) .

فالقصة القرآنية تعطينا الملامح الواضحة على أن الانسان اذا شملته الرعاية الالهية ، فلا يمكن أن تهزه كارثة ، أو تحطمه نكبة من النكبات ، اذ أن قدرة الله سبحانه وتعالى فوق كل قدرة ، وسلطان الله سبحانه وتعالى تتضاءل أمامه كل الحيل البشرية ، والمكر السيء ، وذلك مما يلوح لنا كثيرا عند عرض كثير من القصص القرآنية ولا شك أن المرء اذا أيقن أن الأمور تجرى بيد الله ، وأن ما يصيب الانسان هو بقضاء الله وقدره ، فذاك أدعى الى ثباته ، وقوة ايمانه .

كما تكون القصة القرآنية عاملا قويا في ترسيخ العقيدة ، وقوة الايمان ، وذلك بالتأمل في عظمة الله ، وقدرته غير المتناهية ، أليس أدل على ذلك من قصة عيسى ابن مريم ، حيث أن قدرة الله تمثلت في وجود عيسى من غير شهوة طبيعية ، مما يقوى تكامل الموجودات البشرية من زواياها الأربع ، الخلقة بدون ذكر وأنثى كآدم ، وبذكر فقط

---

(١) سورة يوسف - آية : ٩٢ .

كحـــواء ، أو بأنثـى فقط كعيسـى ، أو بهما معا كسائر الخلق .

وأيضا في عرض القصة القرآنية شيئا غير مألوف من مثل تسخـــير الجن لسليمان عليه السلام ، ومن مثل فهمه لحديث الحيـــوان الأعجمي ، ومن مثل فهـم الطيور ، وما الى ذلك من المخلوقـات ، كما قال اللـــه تعـــالى ((وحشر لسليمان جنـوده من الجن والانس والطـــير فهم يوزعـــون * حتى اذا أتـوا على وادى النمـل قالت نملة يا أيها النمـــل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنـكم سليمان وجنـوده وهم لا يشعرون * فتبسـم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعـني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عـــلىّ وعلى والـدىّ وأن أعمـل صالحـا ترضاه وأدخلني برحمتـــك فـي عبـادك الصالحـين))(١) .

نلمح العظمـة الربانية ، والقدرة الالهيـة التي أودعها اللـــه في هذا المخلوق الضعيف ، حيث ان سليمان حينمـا تقدم جنـوده فـي قمة العظمـة ، وقد كانت هذه الجيوش طوائف من الجن والانس والطـــير وكانت تجـرى وراءه على شريطة ألا تتقـدمه في السير ، تعظيما وتكريمـا له ، فلما وصل هذا الركب الى واد بالشام عرف بكثرة النمل ، قالت احدى النملات للرفيقـات ، مسدية النصح لهن ، ادخلوا مساكنكم لئلا يحطمنـكم سليمان وجنوده من غير أن يحسون بكم .

---

(١) سورة النمل - آية : ١٧ - ١٩ .

على معنى أن جيوش سليمان كانت تسير على الأقدام ، والنمل من المخلوقات الضعيفة التي قد لا يحس بها أحد ، فمن الممكن عند تحرك هذا الجيش السليماني أن يدوس هذا النمل من غير قصد .

ان الانسان العاقل حينما يتأمل لهذا التفكير الذى فيه عمق وقد صدر من مخلوق ضعيف ، يحس بعظمة الخالق ، وبقدرة المولى عز وجل التي قد أودعها في مثل هذا المخلوق .

وما أروع قول البارئ عز وجل ((وهم لا يشعرون)) ، هذه العبارة التي جاءت على لسان النملة ، وفيها تبرئة لسليمان عليه السلام أى أن هذا التحطيم بالأقدام ان حدث فعلا ، فليس عن قصد ، لأن سليمان نبي من أنبياء الله ، وما كان له أن يعتدى على هذا المخلوق الذى هو من أضعف خلق الله .

وفي ذلك دلالة قاطعة على أن النملة أعطيت من العقل ما يدل على قوته ، وارتفاع شأنه ، فهو عقل ليس واهيا ضعيفا مما يتناسب مع ضآلة الجسم ، فقد يعطي الله عز وجل عقلا كبيرا في جسم صغير .

لقد أعجب سليمان عليه السلام بهذا المنطق حتى تبسم سرورا بما سمع من هذا الثناء .

ان هذه الأشياء كلها تقوى ملكة الايمان في الانسان ، وتشعل اليقين في المشاعر ، لأنها تربط البشر بالحق عز وجل ، فهي تشد

القلوب ، وتأسر النفوس بمعرفة الله .

ان القلوب تثبت على العقيدة الراسخة حينما ترى احياء الموتى يقربه الى النفوس ، خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام حينما طلبه من ربه قال ((رب أرني كيف تحي الموتى))(١) ؟

كما تطمئن النفوس وتسكن حينما ترى عيسى ابن مريم يحي الموتى باذن الله ، فيكون ذلك دليلا على قدرة الله سبحانه وتعالى ، الخارقة وأن النشأة الآخرة يصدقها العقل ، وكما يقول تعالى ((وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم))(٢) .

كما أن القلوب يشتد ايمانها ، وتقوى عقيدتها ، حينما ترى قدرة الله عز وجل التي تمثلت في عقوبة أصحاب الفيل ((ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيرا أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول))(٣) .

قدرة الله في اهلاك قرية ورفعها الى أعلى ، ثم خسفها حتى تدمر كل من فيها من المعاندين المخالفين ، قدرة الله عز وجل في غرقها للنواميس ، فالعصا اذا ألقيت لا تصنع شيئا مثيرا ، ولا تتحول حية

---

(١) سورة البقرة - آية : ٢٦٠ .

(٢) سورة الزخرف - آية : ٦١ .

(٣) سورة الفيل كاملة .

تلقف ما يأفكون ، واليد اذا أخرجها الانسان من جيبه لا يتأثر لونهـــا ، ولا تتسم بشيء يلفت النظر ، لما لها من اشعاع طارىء ، وذلك ما حـــدث لموســـى ((فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين * ونزع يده فاذا هـــي بيضاء للناظريـــن))(١) .

والنار من شأنها أن تلتهـم ما أمامها ، ولكنها بقدرة خارقـــة كانت بردا وسلاما على ابراهيم عليه السلام ((قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهـــيم))(٢) .

وهكذا نلمح أن القصّ القرآني يغرس العقيدة في القلوب بمـــا يعرضه علينا من ملامـــح خارقة ، وأحداث مثيرة ، تنم عـــن قـــدرة الله عز وجـــل .

وفي القصة القرآنيـــة دعوة صريحة الى الأخذ بالأســـباب ، بعـــد أن يعتمد الانسان على ربـــه ، ويستمد العون من خالقـــه سبحانـــه ، ويتجلى ذلك كثيرا في أحداث القصة القرآنية ، فوضع موسى في التابـــوت ، وما حول ذلك من حيل كانت سببا من أسباب نجاتـــه من فرعـــون ، ولولا وضعه في التابوت لما وصل الى فرعون ، وعاش داخل منزله ، ولولا أنه سقى لابنتي شعيب لما تزوج باحداهمـــا ، ولولا أنه حـــدّد يوم الزينـــة للسحرة لما آمن بـــه من آمـــن ، ولولا أن الهدهد غاب عن سليمـــان

---

(١) سورة الشعراء - آية : ٣٢ - ٣٣ .

(٢) سورة الأنبياء - آيـــة : ٦٩ .

عليه السلام لما آتاه بتلك الأنباء التي كانت سرا من أسرار نقل عرش بلقيس ملكة سبأ ، واعلانها الاسلام ((قالت رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)) (١) .

ولولا زج يوسف في السجن لما اشتهر أمره بتفسير الأحلام التي كانت سببا في أن الملك استخلصه لنفسه ، حتى مكنه الله في الأرض ، فجعله على خزائن الأرض مما أدى الى التقائه باخوته .

وذو القرنين وقد مكن الله له في الأرض ، وآتاه من كل شيء سببا ، ولكنه ظل يأخذ بالأسباب ، ويعمل بالحيلة ، حتى وصل الى ما وصل من مشاهد ذكرها القرآن الكريم ، وكثيرا ما يعقب القرآن الكريم على الأحداث بقوله تعالى ((فأتبع سببا)) ((ثم أتبع سببا)) .

وهكذا نرى أن القصة دائما وأبدا توحي بأن لكل شيء سببا فهي تربط السبب بالمسبب ، والعلة بالمعلول ، وكأنها تحفز القارىء والسامع الى أن يهيىء نفسه ، ويأخذ بالأسباب ، ويأساليب الحياة وطرقها المتعددة ، مع اعتماده على الحق عز وجل حتى يصل الى سفينة النجاة .

والقصة القرآنية تعودنا على الصبر والاناة ، وعلى تحمل الشدائد في سبيل الوصول الى الغاية المثلى ، فالرسل عليهم السلام

---

(١) سورة النمل - آية : ٤٤ .

كما صبروا على ايذاء قومهـــــم ، وتحملوا الشدائد في سبيل نشر دعوتهم حتى كانت الغلبة لهم ، كما يفهم من قول البـــارى عز وجل مرشـــــــدا رسوله صلى الله عليه وسلم ((فاصبر كما صـبر أولوا العزم من الرســـــــل ولا تستعجل لهـــم)) (١) .

والقصـة القرآنية طريق من طرق الحياة المستقيمـــة ، فهـــــو منهاج الدعـــوة ، يتجلى فيها الحكمة والموعظـة الحسنة ، فأسلوبهـــــا يمتاز بالمحاورة الهادئـة ، والأسلوب المقنـع ، وهي بذلك تعودنا عـلى المحاورة الجادة ، وأساليب الاقناع التي يجب أن يلتزمها الداعيـــــة ، فجميع الرسل لا تأمر وتنهـى بأسلوب عنيف ، وبعبارة غير مذللة ، وانمـــا تلتزم الأسلوب المنطقي ، والأدلة المكشوفة ، والمقدمات الموصـــــلة الى النتائـج ، ومن ثمّ يكون لكلامهم شيء من الاستجابـــة ، ولدعوتهـــــم آثار عند القلوب المفتوحـــة ، أما من طمس الله على قلبه ، وأعمى بصيرتـه فلن تفيده الحكمة ، ولن تردعه الموعظـــة الحسنة ، حتى يظل فـــــؤاده مغلقا ، وبصيرته مطموسة ، وصدق الله عز وجل حينما حكم على المعاندين من بني اسرائيل وقد لاحت لهم الكثير من الأدلة التي تكشف عن عظمـــــة الخالق ، ولكنهم لم يقتنعوا برسلهم ((ثم قست قلوبكم من بعـــــد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، وانّ من الحجارة لما يتفجر منه الأنهـــــار

---

(١) سورة الأحقاف ـ آيـة : ٣٥ .

وانّ منها لما يشّقّق فيخرج منه الماء ، وانّ منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون)) (١) .

ان القصة القرآنية مع التزامها بالأسلوب الهادى ، والحكمة البالغة ، الا أنها تصور لنا كثيرا من عناد المعاندين ، كما يتضح ذلك جليا من قوله تعالى ((واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين * واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)) (٢) .

ان النفوس البشرية تتباين طبائعها ، وتختلف مشاربها ، فمنها من رقّ قلبه ، وسكنت نفسه ، حتى كان وقع العظة عليها له أثره البالغ في قبولها لهدى الله ، فتزول عنها ما علق بها من أكدار ، حتى تستنير بنور الله سبحانه .

---

(١) سورة البقرة - آية : ٧٤ .

(٢) سورة البقرة - آية : ٦٠ - ٦١ .

أما القلوب المتحجرة ، فانها تظل في نكتتها السوداء ، لأن عظمها شارد ، فالصلف يحدوها ، والكبر يطفيها ، والعناد يحيط بها من كل جانب ، لا هم لها الا أن تتحدى الرسل بكثرة متطلباتها فان أجيبت الى شيء نزعت الى شيء آخر ، ولن يقضى على شرها ، ويمحق ضلالتها الا عذاب الله لها .

وهكذا نرى النفوس المتباينة ، فمن الناس من يستجيب لدعوة الحق ، ومنهم من يعرض عنها .

وهكذا كانت القصة القرآنية ، توجهنا الى هذه الأصناف المتباينة ، فالداعي الى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ما عليه من حرج ان أعرض عنه معرض ، أو انصرف عنه باغ مستكبر ((قل هذه سبيلي أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله ، وما أنا من المشركين))(١) .

ولقد ذهب بعض الباحثين(٢) الى أن القصة القرآنية من أغراضها اثبات الوحي والرسالة ، وهو يقصد بذلك أن محمدا صلى الله عليه وسلم مع كونه أميا ، وقد أتى بهذه الأخبار المغيبة ، كان ذلك دليلا قاطعا على أن ما يقوله وحي يوحى .

---

(١) سورة يوسف - آية : ١٠٨ .

(٢) التصوير الفني في القرآن / لسيد قطب : ١١٨ - ١٢٦ .

والقصة القرآنية ترشدنا تماما الى أن الرسل وان اختلفت أزمانها ، وتعددت أممها ، فدعوتها واحدة ، انها تدعو أول ما تدعو الى عبادة الحق عز وجل ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)) (١) .

كما أن القصة القرآنية فيها تعليم وارشاد ، كما يتضح لنا ذلك في قصة آدم عليه السلام ، فهي تحذر بني آدم من الشيطان الذى استطاع أن يضلل أباهم ((فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى)) (٢) .

وفي القصة القرآنية ما يفيد أن الله عز وجل قد يحجب سر حكمته عن أقرب خلقه ، مما هو واضح في قصة آدم ، حيث حجب حكمة استخلاف آدم عن الملائكة ، لكي يشتاقوا الى معرفة هذا السر الدفين وأن الله تبارك وتعالى اذا وجهت عنايته الى أقل شيء ، استطاع بقدرته البالغة أن يحوله الى شيء عليه الرونق ، والبهاء ، ويضفي عليه من سناء عظمته ما يحول مرآه الى شيء له قدره ، كما يتضح ذلك في خلقه آدم عليه السلام من التراب .

كما يتضح في تلك القصة أن طبيعة الانسان الضعيفة قد تتغلب عليه ، فآدم عليه السلام مع طاعته وامتثاله لربه ، الا أن بشريته

---

(١) سورة النحل - آية : ٣٦ .

(٢) سورة طه - آية : ١٢٠ .

طفت عليه حتى أطاع ابليس ، وأكل من الشجرة التي نهي عن الأكل منها .[١]

والقصة القرآنية ترشدنا الى التسامح المطلق عند الدعوة الى الله ، وعدم مقابلة الاساءة بالاساءة ، والشر بالشر ، مما يتضح جليا في قصة هود عليه السلام ، فان قومه يوجهون اليه تلك العبارة ((انا لنراك في سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين))[٢] ، ولكنه بدلا من أن يرد عليهم ردا عنيفا ، يتماثل مع قولهم ، يكون جوابه لهم ((يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين))[٣] .

ومع رميهم له بالجنون الذى اعتراه به بعض آلهتهم على حسب زعمهم ، لكنه رد عليهم ردا دل على حسن الخلق فقال ((اني أشهد الله واشهدوا أني برىء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون * اني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ، ان ربي على صراط مستقيم))[٤] .

---

(١) قصص الأنبياء / لعبد الوهاب النجار : ٢١ .

(٢) سورة الأعراف - آية : ٦٦ .

(٣) سورة الأعراف - آية : ٦٧ - ٦٨ .

(٤) سورة هود - آية : ٥٤ - ٥٦ .

والقصة القرآنية تغرس فينا حب الخير ، والنزعة الحتد فقة الـــــتي تدعونا دائما لأن نسير في الطريق الذى يجلب النفع الى البشرية ، ويزيـــل عنهـــم الضـــرر .

فان الرسل عليهم السلام ما قصدوا بدعوة الناس ، وارشادهم الـــى عبادة الله ، والعمل بأحكامه ، الا أن يوجهوهـــم الى الخير المطـــــلق ، فيأخذوا بأيديهم من كل هاوية ، ما قصـــدوا بذلك نفعا ماديا ، وكما يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان نوح عليه السلام ((ويا قوم لا أســـــألكم عليه مالا ، ان أجرى الاّ على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا ، انهم ملاقـوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون)) (١) .

---

(١) ســورة هـــود - آيـــة : ٢٩ .

البَابُ الرّابع

الباب الرابع

من روائع التصوير في القصص القرآني

الفصل الأول :

التناسق الفني .

الفصل الثاني :

الاصابة في نقل العواطف .

الفصل الثالث :

قوة الاحكام والربط .

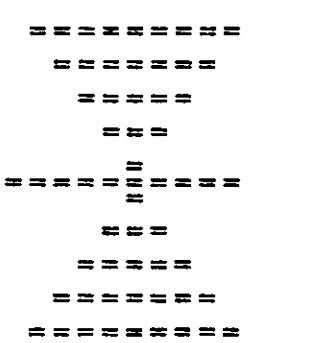

الفصـــــل الأول

التناســـــق الفـــــني

تحدثنا في الباب الثالث عن ملامح القصة القرآنية التي كان لهـــا طابعها الخاص بما له من تصويرات رائعة ، وأحداث جذابة ، حتى بـدت القصة القرآنية وهي واضحة المقاصد ، غنية بكثير من اللوحات الفنيانـــة ، والمناظر المتحركة ، والأحداث المتسلسلة المتماسكة .

ولا شك أن القرآن قد اتسمت بلاغته الى أوج الكمال بما عرضـــه علينا من هذه القصص القرآنية التي مست وجداننا ، وسحرت نفوسنا ، حـتى كم اشتاق القارئ لهـــا .

وخصوصا بعد أن يرى في القصة القرآنية بعض الأحداث الـــتي عرضت علينا بطريقة تثير انتباهنا ، وتدعونا الى التأمل العميق ، والبحـث المتأصل لما يدور حول ما نقرأ وما نسمع من حدث ملفت ، اذ أن النفـــس من شأنها تميل الى الوصول الى الغاية ، ومعرفة العاقبة ، وخاتمـــة المطـــاف .

ولا شك أن القرآن الكريم بهذه الجوانب لا تضاره صفة بشريـة . اذ أن القصة مهما نضجت في عصرنا ، ومهما استكملت مقوماتها ، كما يذكـر بعض الباحثين ، فانها لا يمكن أن تقارن بهذا السمو الالهي ، وهـذه القصص المحكمة التي أبدع صانعها ، وتعالى قائلها .

ولكي تنجلي الحقيقة أكثر ، وتعلو صيحة الحق ، ويتبين لكل قارىء أو سامع لهذا القصّ القرآني ما امتازت به من جمال أخّاذ ، وطابع فريد ، يطيب لي أن أتعرض لما فيها من تناسق وصل الذروة في الاعجاز ، وبلغ الغاية القصوى في الاتقان ، وهذا التناسق له أسرار عديدة وسمات قد لا يحصيها العدّ ، ومن ذلك التناسق الشكلي الذى يتضح في مدى انسجام عبارات القصة القرآنية ، لا أقول من حيث المعنى فحسب ، وانما أقول من حيث موسيقاه ذات النبرة الخاصة ، والنغمة المتناسقة ، التي فيها تآلف وانسجام ، تتقبلها الأذن وتصيها بادىء ذى بدء ، اذ بها تأنس ، ومن صداها تحن الى سماعها والاصغاء اليها ، ولكي أوضح هذه الحقيقة ، أشير الى أن القصّ القرآني له ثلاث طرق :

الطريق الأول : ان تعرض الآية القرآنية وهي مطولة .

الطريق الثاني : أن تعرض الآية القرآنية وهي لا تعدو أن تكون فاصلة أو فاصلتين .

الطريق الثالث: وهي وسط بين اثنين ، فالآية القرآنية فيها فواصل متعددة ، ولكنها لا تصل الى الآيات المطولة التي زادت فواصلها زيادة ملحوظة .

ففي القصة ذات الآية القصيرة ، مثل قصة موسى في سورة الشعراء وقصة موسى في سورة الأعراف ، وقصة ابراهيم والياس ويونس في سورة الصافات ، نرى التوافق الصوتي ، والانسجام الموسيقي يلوح كثيرا بين

الآيات التي تعرض علينا القصة ، وعلى سبيل المثال في سورة الأعراف نرى أن الله تبارك وتعالى حينما عرض علينا قصص الأنبياء في تلك السورة سواء قصة آدم ، أو قصة هود ، أو قصة صالح ، أو قصة لوط ، أو قصة شعيب ، أو قصة موسى . . . الخ ، نرى أن هناك نغمة موسيقية متناسقة متجانسة بين الحروف التي تنتهي بها تلك الآيات القرآنية في تلك السورة .

ويرى النقاد المحدثون " أن الموسيقى صفة أصيلة في اللغة المنطوقة قبل أن تكون خصيصة من خصائص الأدب ، ومن ثمّ لم يقصروا الموسيقى على الشعر وحده ، بل شملت النثر أيضا ، وعلى هذا فهم لا يجردون النقد الفني من الموسيقى "(١) .

فكثيرا ما تنتهي كل آية بحرف النون الذى يكون قبلها حرف لين سواء كان واوا أو ياء ، ومعنى ذلك أن عرض تلك القصص فيه تآلف النغمة ، وتوافق الصوت بين بعضها وبعض .

---

(١) راجع : مقالات في النقد الأدبي / د . محمد مصطفى هدّارة : ٢٠٥ ط . ١٩٦٤ م .

واننا اذا نظرنا لقصة موسى في تلك السورة[١] من قوله تعالى

((ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)) .

نجد أن روى الآية الأولى فيها النون المسبوق بحرف لين وهو الياء ، وكذا الآية الثانية ((وقال موسى يا فرعون اني رسول من رب العالمين)) . فتأتي الآية الثالثة بروى اللام الذى قبله حرف لين أيضا وهو الياء

((حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني اسرائيل)) .

ثم الرابعة ، ومثلها الخامسة والسادسة بالنون المسبوق بحرف لين ، وهو الياء هكذا :

((قال ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين)) .

((فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين)) .

((ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين)) .

والسابعة بحرف الميم المسبوق بحرف لين وهو الياء :

((قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم))

ثم تأتي الثامنة بحرف النون الذى قبله حرف لين وهو الواو هكذا :

((يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون)) .

ثم تأتي التاسعة مسبوقة بحرف النون الذى قبله حرف لين وهو الياء :

((قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين)) .

---

(١) سورة الأعراف ـ آية : ١٠٣ ـ ١١١ .

فيستفاد من هذا أن النغمة الغالبة على فواصل تلك الآيات هي النون المسبوقة بحرف لين وهو الياء ، ولم يترك حرف النون المسبوق بالياء الا في فاصلة جاءت باللام المسبوقة بحرف لين وهو الياء ، وفاصلة أخرى منتهية بحرف ميم مسبوق بحرف لين وهو الياء .

ولعل السر في ذلك أن الحروف التي خرجت عنها الآيات متقاربة في المخرج ، فالنون واللام تخرجان من طرف اللسان مع اتصاله بأصول الثنايا العليا ، والميم تخرج من الشفتين ، وحروف اللين من أول الجوف (١) .

على أن النبرة الصوتية المتلاحقة في جميع الآيات ، والمتفقة اذا تغيرت فجأة على غير عادة ، أحدثت لفتة عند القارئ والسامع وجعلته ينتبه لما يقرأ وما يسمع ، اذ أنه حينما يتعود على سماع شيء متجانس وفجأة يرى فيه شيء من التغيير ، لا كل التغيير ، ثم بعد ذلك تأتي النغمة التي ألفها أولا ، يكون ذلك أدعى للصوق الموسيقي بسمعه والمعنى بنفسه ، وهذا ما يحدث عند سماع تلك الآيات القرآنية .

فعندما نسمع كلمة اسرائيل نحس بأن القصة انما كانت في هؤلاء القوم المعروفين ، وهم بنو اسرائيل ، لا في غيرهم من البشر .

وحينما نسمع كلمة عظيم ، نحس بعظم السحر الذي ادعوه ، فلقد كان

---

(١) قواعد التجويد / للدكتور عبد العزيز عبد الفتاح قارئ : ١٩ - ٢٠ طبعة ١٣٩١ هـ .

سحرا عظيما يهابه من رآه ، وكما يذكر ابن اسحـــاق (١) : صف خمسة عشـــر ألف ساحر ، مع كل ساحر حباله وعصيه ، وفرعون في مجلسه مع أشـــــراف مملكته ، فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون ، ثم أبصـــار الناس بعد ، ثم ألقى رجل منهم ما في يده من العصى والحبال فـــاذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا .

وقصة ابراهيم في سورة الصافـــات (٢) ، قوله تعالى ((وان مـــن شيعته لابراهيم))

نرى أن فواصلها مالت الى الالتزام بهذا الحرف الطـــرى وهو النـــون المسبوق بحرف لين وهو الواو أو الياء هكذا :

((اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون))

((أئفكا آلهة دون الله تريـــدون))

((فما ظنكم برب العالمـــين))

فالذى يغلب على فواصل الآيات هو حرف النون المسبوق بحرف لـــين واوى أو يائي ، حتى توالت النبرات الصوتية المنتهية بكل آية ، متناسقة منسجمة تماما ، ولما كانت القصة القرآنية شخصها وبطلها هو الخليل عليه السلام .

---

(١) راجع : صفوة التفاسير للصابوني ـ الجزء الرابع : ٣٥ .
لطيفة : قال ابن عباس : " كانوا أول النهار سحرة ، وفي آخـــر النهار شهداء بررة " .
صفوة التفاسير ـ الجزء الثامن : ٦٤ .

(٢) سورة الصافات ـ آية : ٨٣ ـ ٨٧

وكما يقول الحق عز وجل ((وان من شيعته لابراهيم)) .

وابراهيم قد تلقته الآذان من مطلع القصة ، فأحست بنبرة ميمه الصوتية ((وان من شيعته لابراهيم)) ناسب أن تتبدل النبرة الصوتية الأساسية في القصة وهي حرف النون المسبوق بحرف لين واوى أو يائي بحرف الميم المسبوق بحرف لين ، واوا أو ياء ، قال تعالى ((فنظر نظرة في النجوم)) ((فقال اني سقيم)) (١)

((فبشرناه بغلام حليم)) (٢) .

وهكذا نرى التآلف والانسجام الصوتي المتشابه في فواصل هذه الآيات ، فما تترك النبرة الصوتية النونية التي سادت كثيرا في القصة الا لتنتقل الى الميم المسبوق بحرف لين يائي أو واوى لتكون متناسقة ومشيرة الى بطل القصة ، وهو خليل الله ابراهيم عليه السلام ، حتى قال الله سبحانه وتعالى في خلال تلك القصة ((وناديناه أن يا ابراهيم))و ((سلام على ابراهيم)) (٣) .

فالانتقال من الفاصلة النونية الى الفاصلة الميمية على ما فيه من تقارب الحرفين والنغمتين الصوتيتين فيه تجانس ملموس لحرف الفاصلة التي بدأت به القصة مما يذكر القارئ كثيرا بصاحب هذه القصة وهو الخليل

---

(١) سورة الصافات ـ آية : ٨٨ - ٨٩ .

(٢) سورة الصافات ـ آية : ١٠١ .

(٣) سورة الصافات ـ آية : ١٠٤ ، ١٠٩ .

عليه السلام . -

وهكذا نرى تلك القصة تنساب نغماتها المتشابهة والمتقاربة في تيار متدفق فيه رقة وعذوبة يأنس لها السامع ، ويحس بروعتها وحلاوتها بالاضافة الى ما فيها من تسلسل فكرى وترابط معنوى ، وتلاحق وتماسك ، وعلة ومعلول ، وسبب ومسبب ، حتى كانت نهاية القصة ((وباركنا عليه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين)) (١) .

وما أجمل التعقيب على صنيع خليل الله بطل الفداء بقوله عز وجل ((كذلك نجزى المحسنين * انه من عبادنا المؤمنين)) (٢) .

فهو تذييل يتناسب تماما ، ويتناسق تناسقا معنويا ، ولفظيا ، وأسلوبيا ، وفكريا ، مع حلقات القصة السابقة ، وما فيها من أحداث ومواقف تنم عن بطولة وخضوع لله عز وجل ، وبذلك التحمت الموسيقى الشكلية بالموسيقى المعنوية .

وما أروع هذا التنسيق بين فواصل تلك الآيات حينما أشار الى قصة لوط اشارة مقتضبة ، فقال عز من قائل ((وان لوطا لمن المرسلين * اذ نجيناه وأهله أجمعين * الا عجوزا في الغابرين * ثم دمرنا الآخرين * وانكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون)) (٣) .

---

(١) سورة الصافات - آية : ١١٣ .

(٢) سورة الصافات - آية : ١١٠ - ١١١ .

(٣) سورة الصافات - آية : ١٣٣ - ١٣٨ .

فمع هذا الايجاز ، الا أن معالم القصة قد اتضحت ، ومغزاها قد انجلى للقارىء والسامع ، فهي تدل على أن قومه قد استحقوا النكال والعذاب ، حيث انهم ارتكبوا من المنكر ما ارتكبوا ، ومن ثمّ أهلكهم الله بصنيعهم وجرمهم ، ولم ينج من تلك العقوبة الصارمة الا لوط وأهله ما عدا زوجته التي وان كانت من أهله ، الا أنها لكفرها ووقوعها في المنكرات لحقت من وقع عليه العذاب والنكال ، وفي ختام تلك القصة القصيرة ((وانكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون)) .

لفتة كريمة تدعو العاقل البصير الى أن يتأمل كل التأمل الى هذا الحدث الالهي حيث ان الله تبارك وتعالى أهلك المكذبين من قوم لوط أشد اهلاك ، وذلك حينما قلب قراهم فجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل مما تفيده تلك اللفظة القرآنية ((دمرنا)) فأهل مكة حينما يمرون على تلك المنازل ولها ما لها من رسوم وآثار وأطلال ، وهم في سفرهم يشاهدون ذلك كله صباحا ومساء ، وليلا ونهارا ، وفي ذلك فليعتبر المعتبرون ، وليتعظ المتعظون .

وكأن الله تبارك وتعالى يقول من حاد عن الطريق المستقيم ، والتوى عن المنهج القويم ، مثل ما صنع قوم لوط ، فان العاقبة وخيمة ، والنهاية أليمة ، مع ما يستفاد من تلك القصة القصيرة من هذه المدلولات .

وكأنها توحي بقصص لوط التي فيها اطناب ، وتوسع في الأحداث كما وردت في سورة هود من قول الله تبارك وتعالى ((ولما جاءت رسلنا

لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب . . .))[١] الخ .

فاننا نرى التناسق الفني في النغمة الصوتية ، والنبرة النونيـــــة التي تنتهي بها فاصلة كل آية من تلك الآيات القصيرة الا وهي حـــــرف النـــون مثـــل :

((وان لوطا لمن المرســـلين))

((اذ نجيناه وأهله أجمعـــين))

((الا عجوزا في الغابريـــن))

((ثم دمرنا الآخـــــرين))

((وانكم لتمرون عليهم مصبحين))[٢] .

فهي نون مسبوقة بحرف لين وهو الياء ، وفيها من التناسق اللفظي ما فيه ، في الوقت الذى توضع فيه كل فاصلة في موضعها ، فالمعنى يطلب كلمـــة المرسلين لتشير الآية بأن لوطا رسولا من رسل الله ، والمعنى يطـــلب كلمة (أجمعين) لتشير الآية بأن المؤمن الصالح هو الذى نجا من شـــر هذا الهلاك والدمار بدون استثناء ، وكلمة (في الغابرين) يطلبهـــا المعنى لتفيد الآية بأن امرأته لم تنفعها العلاقة الزوجية ، ولم يدفع عنهـا أنها من أهل لوط لكفرها وسوء صنيعها ، فهي في الغابرين ، أى فـــي الباقين في العذاب ، وهكذا نرى أن كل كلمة في موضعها ، وكل لفـــظ

---

(١) سورة هـــود - آيـــة : ٧٧ .

(٢) سورة الصافات - آية : ١٣٣ - ١٣٧ .

يطلبه المعنى ، فكان التلاؤم الحق بين الموسيقى اللفظية ، والموسيقى المعنوية ، وهكذا وجدنا الموسيقى النابعة من الألفاظ المتجانسة وهي تخدم المعنى ، وتؤدي الى مدلولات القصة .

وبالتأمل في عرض قصة موسى وموقفه من السحرة في سورة طه من قول الله تبارك وتعالى ((ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى)) ، نرى أن الفواصل وان لم تلتزم بالحرف الأخير ، فانها التزمت بحرف اللين المفتوح ما قبله ، والذي يكون في آخر كل آية من الآيات كثيرا من مثل :

((قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى))

((فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى))

((قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى))

((فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى))

((قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى))

((فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . . .))(١) الخ القصة .

وهكذا نرى أن التجانس جاء نتيجة اشباع الباء والسين والواو والحاء والتاء والراء . . . الخ .

---

(١) سورة طه - آية : ٥٦ - ٦٢ .

ولو تأملنا الآية رقم (٧٠) من سورة طه وهي قوله تعالى ((فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى)) لوجدنا

أن كلمة موسى محكمة متقنة ما جاءت من أجل التوافق اللفظي والتناسق الصوتي ، وانما أكدت المعنى ، ولا ينبغي أن نقول بأن الله عز وجل قدم هارون على موسى في هذه الآية رقم (٧٠) من أجل أن تتوافق النغمة الموسيقية مع سائر الآيات ، حيث ان موسى عليه السلام كان أولى بالتقديم ، اذ هو الأصل في الرسالة ، وكما يقول الحق عز وجل ((فلما آتاها نودي يا موسى (١))) ، فهو الأصل في الرسالة ، ثم بعد هذا طلب من ربه أن يرسل معه الى قوم فرعون معينا وشخصا فصيحا ، يكون أقدر منه على التعبير ، وكما يقول الحق عز وجل ((وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني (٢))) ، فيستفاد من ذلك بأن موسى هو الأصل في الرسالة ، فالمناسب للتعبير أن يقول الحق ((قالوا آمنا برب موسى وهارون)) ، وقد ذكر الله عز وجل موسى قبل هارون في الآية (٤٨) من سورة الشعراء ، فقال ((رب موسى وهارون)) فذكر موسى قبل هارون مع أن الموقف متحد ، وهو أن سحرة فرعون حينما رأوا ما بهرهم من سحر موسى أيقنوا بعظمة الله عز وجل ((فآمنوا)) برب موسى وهارون فقد يقال بأن الآية (٤٨) من سورة الشعراء قدمت موسى على هارون لتوافق الفواصل ، لأن فواصل الآيات في سورة الشعراء هي النون ، فان قبل الآية آنفة الذكر قوله تعالى ((قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون))

---

(١) سورة طه - آية : ١١ .

(٢) سورة القصص - آية : ٣٤ .

((فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون))

((فألقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون))

((فألقي السحرة ساجدين))

((قالوا آمنا برب العالمين))

((رب موسى وهارون)) (١) .

وهكذا نرى الفواصل المتلاحقة كلها النون ، فكان المناسب أن تكون الفاصلة النون ، أما في سورة طه فالمناسب ألف اللين المفتوح ما قبله مثل " أتى ، أعطى " . . . الخ .

قد يظن ظان أن القرآن الكريم يأتي بالفواصل المتجانسة ، ويحرص عليها كالصناعة اللفظية ، وكالاطار الشكلي .

ولكنني أرى أن القرآن الكريم في فواصله المتناسقة جاء عفوا على معنى أن الملابسات ومقتضى الحال ، والمعنى الدقيق هو الذى يطلب هذا التجانس ، أما عن تأخير موسى عن هارون في سورة طه ، وتقديم موسى على هارون في سورة الشعراء ، فليمان الاعجاز القرآني ، والقدرة الالهية في هذا القرآن المحكم ، حيث ان الله عز وجل قد كرر القصة الموسوية ، فاذا كان التكرار متحدا ، وبألفاظ متطابقة ، كان كلام القرآن وحاشا لله ، لغوا ، أما اذا كررها الحق عز وجل بألفاظ مختلفة ، وفواصل ليست متحدة ، وعبارات ليست متجانسة في المنطوق ، كان ذلك

---

(١) سورة الشعراء - آية : ٤٣ - ٤٨ .

أدعى الى الحجة ، وأقوى في الاعجاز ، وأدل على قوة الفصاحة القرآنية ، فلو كانت الآية القرآنية ، تعاد بلفظها ، والفواصل تحكي برويها التطابق لكان التكرار مملا في مثل هذا الموقف حتى تسأم منه النفس ، وتصم له الآذان ، ومن هذا كله نرى أن النغمة الصوتية القرآنية القصصية ما كانت مقصودة لذاتها ، وانما الموقف القرآني يطلبها والملابسات القصصية تؤكدها ، ومن ثم كان الاعجاز القرآني .

أما عن التجانس(١) الناقص من مثل " استملى " آية (٦٤) و " تسعى " الآية (٦٦) و " الأعلى " الآية (٦٨) من سورة طه ، فبالتأمل في هذه الكلمات التي تنتهي بها بعض الفواصل في القصة الموسوية ، نرى أن فيها تشابها لفظيا ، ونبرة صوتية ان لم تكن متفقة فهي متقاربة ، فكان التجانس الصوتي ماثلا في هذه الفواصل التي بها تأنس النفس لما تألفه من الأصوات المتناسقة والمتشابهة ، وخصوصا ان كل لفظة لها موقعها الخاص في الآية الكريمة ، ومدلولها القوى الذى لا يغني عنها غناءها .

ومن ثمّ كان هناك ارتباط الموسيقى اللفظية بالموسيقى المعنوية(٢) على أن تكون الأولى خادمة للثانية ، وشعلة أوارها ، ومذكية مقاصدها .

---

(١) الجناس الناقص : ما اختلف فيه اللفظان في واحد أو أكثر من أربعة نوع الحروف ، عددها ، هيئتها ، ترتيبها ـ مع اختلاف المعنى .

(٢) والموسيقى المعنوية هي ارتباط اللفظ بالمعنى .

ففي قول الله عز وجل ((وقد أفلح اليوم من استعلى)) نرى أن كلمة ((استعلى)) تكمل المعنى المقصود ، ولا غناء للآية عنها ، حيث ان سحرة فرعون يرون أن في الغلبة استعلاء ، وأن من فاز على غيره علا شأنه وارتفعت قيمته ، ومن ثمّ هو جدير بأن يستحق تكريم فرعون له بما أعده من الانعامات العظيمة ، وكما يتضح من الآية الكريمة ((قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين * قال نعم وانكم اذا لمن المقربين))(١) .

وفي قول الله تبارك وتعالى ((يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى))(٢) نرى أن كلمة ((تسعى)) محبوكة تمام الحبك ، ولها دلالتها القوية حيث ان الآية تشير الى عظمة السحر .

ومن ثمّ فزع موسى واضطرب ، ولم يكن السحر في نظر موسى عظيما الا اذا تخيل فعلا أنها حيات تسعى ، أى تتحرك على بطونها ، وبذلك يتم الخوف والرعب لأنها لو كانت حيات خامدة ساكنة لما كان لها أثرها في الوجدان الذى يصل الى أثر الحية المتحركة .

وفي قول الله عز وجل ((قلنا لا تخف انك أنت الأعلى))(٣) نرى أن كلمة الأعلى محكمة ، فعلى ما فيها من التعريض لفرعون كما سبق أن قلنا قبل ذلك ، فان فيها دفع الرعب عن موسى الذى توعده ، وفيها بث

---

(١) سورة الشعراء - آية : ٤١ - ٤٢ .

(٢) سورة طه - آية : ٦٦ .

(٣) سورة طه - آية : ٦٨ .

الطمأنينـــة في نفسه ، على معنى أن الله تعالى يعده بالنصـــــــر فهـــو الغالب المنتصر ان شاء الله .

وهنا نلاحظ أن الله عز وجل لكي يؤكد الطمأنينة في قلب موســـى فيدفع عنه ما ألم به من خوف وتوهم ، أكـــدّ ذلك بمؤكدات كثـيرة ، أكـــدّ بان ، وتأكيد الضمير ، وهو أنت ، وتعريف الخبر ، وصيغة التفضيل ، وكل هذا ليقـوى جنان موسى ، وليثبت على أمره .

ومن التجانس الصوتي الذى يلوح في أثناء العرض القصصـــــــي القرآني قصة مريم في سورة مريـــــم (١) ، فالقصة بدأت بالآيـة الكريمـــة :

((واذكر في الكتاب مريـم)) وفاصلهـــا تنتهي بياء مشددة متبوعـــة بحرف لين وهو الألف ، وهكذا تظل النبرات الصوتية تتوالى في تلك القصـة على هذا التشابه من مثل :

((واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا))

((فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا))

((قالت اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا))

((قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا))

((قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا))

((قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيـــــا))

---

(١) سورة مريـــم - آية : ١٦ - ٢١ .

((فحملته فانتبذت به مكانا قصيا))

((فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا))

((فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا)) الخ القصة . حتى قال الله سبحانه وتعالى مؤذنا بانتهاء القصة ((ذلك عيسى ابن مريم)) .

ومع أننا أثبتنا عند عرضنا لأحداث القصة وشخصياتها مدى ترابط القصة وتماسكها واتصال حلقاتها وانسجام معانيها ، فهي تمثل حلقة البداية التي آلت الى النهاية في قول محكم ، ونسج مكين ، مع هذا الا أننا نلمس هذه النبرات الصوتية المتجانسة التي تنساب في رقة وعذوبة ولكنها - وكما قلت قبل ذلك - ليست وليدة الصنعة المقصودة ، وابراز الأسلوب في اطار شكلي جذاب ، وانما كان هذا التجانس محكما متقنا له مدلوله وغاياته في كل فاصلة من الفواصل ، فلا غناء عن أي لفظة من تلك اللفظات ، ولا يمكن أن تحل كلمة أخرى محلها ، ولا تؤدي عبارة مؤداها ومن ذلك ما استهل به الله عز وجل القصة ((مكانا شرقيا)) ، فنهاية الآية الأولى من القصة هذه اللفظة المحكمة ، لأنها تحكي الحقيقة ، وتبين عن الواقع ، حيث ان مريم عليها السلام وقت أن أرسل الله اليها جبريل عليه السلام ، كانت قد اعتزلت أهلها لتتفرغ لعبادة الله سبحانه وتعالى في مكان شرقي بيت المقدس .

وكلمة ((سويا)) في الآية الثانية تحكي الحقيقة أيضا ، حيث ان جبريل عليه السلام حينما أتاها من قبل الله عز وجل أتاها في صورة البشر السوى أى المستوى الخلقة .

وما ذاك الشيء الا لكي تأنس بكلامه ، ثم ان عفافها وورعها لم يظهر في الحقيقة الا اذا كان الذى أمامها شابا مستوى الخلقة من جنس البشر .

وفي الآية الثالثة ((تقيا)) كلمة يطلبها المقام حيث انها حينما التجأت الى الله سبحانه عز وجل ، واستعاذت مما رأت ، فلن يكون ذلك مجديا الا اذا كان الذى يقبل عليها هو رجل ورع تقي ، يخاف الله ويخشاه ، فكلمة تقي مناسبة تماما .

وهكذا الى آخر القصة نرى أن فواصل الآيات المتجانسة في الياء المشددة المتبوعة بحرف لين وهو الألف ، وان تجانست شكلا ، وتناسقت لفظا ، واتحدت في شيء من النغمة والتآلف الصوتي ، الا أن المعنى يطلبها حتى لا تؤدى معناها أى لفظة أخرى .

وهكذا كانت القصة في الكثير منها تعني بهذا التناسق الصوتي الذى يخدم المعنى ، ويشير الى مرامي القصة ، وما تهدف اليه .

واذا كان ذلك يلوح كثيرا في القصة القرآنية ذات الآيات القصيرة فاننا نلمس تناسقا فنيا ، وجمالا تعبيريا في القصة القرآنية ذات الآيات المطولة ، ومن ذلك قول الحق عز وجل في الآية (١٠٢) من سورة البقرة كما سنشير الى شيء من ترابطها وتماسكها وتناسقها عند حديثنا عن قوة الاحكام والربط .

وبالتأمل في الآية ((واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا))[١] ، نرى أنها على ما فيها من تجانس صوتي لتكرار بعض الألفاظ ، مثل كلمة " الشياطين " و " سليمان " ففيها تكرار بعض الألفاظ التي فيها شيء من التماثل الصوتي كـ " هاروت وماروت " ، " واشتراه وشروا " ، " وضارين وما يضرهم " ، " وما كفروا وكفروا ولا تكفر " ، وهكذا يتمثل في الآية القرآنية الكريمة المطولة التجانس بين الكلمات من حيث تكرارها أو الالتزام بأسلوب المقابلة ، فكان الجناس والمقابلة يلوحان في هذه الآية الكريمة بما لهما من معنى رائق ومدلول يخدم القصة .

ومن هذه الأمثلة في قصة آدم عليه السلام ما نلحظه من طباق في قوله تعالى ((وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون))[٢] ، والالتفات من المتكلم

---

(١) سورة البقرة - آية : ١٠٢ .

(٢) يذكر السكاكي في كتابه مفتاح العلوم : " أن العرب كانوا يستكثرون من الالتفات ، ويرون أن الكلام ان انتقل من أسلوب الى أسلوب أدخل في القلوب عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه وأملا باستدرار صفاته ، وهم أحرياء بذلك " .
راجع : أنوار الربيع في أنواع البديع - تأليف السيد علي صدر الدين بن معصوم ، المتوفى (١١٢٠ هـ) .
حققه شاكر هادي شكر - الجزء الأول - ص : ٣٦٣ - طبعة ١٩٦٨ م - مطبعة النعمان - النجف .

الى الغائب في قصة آدم التي بدأها بقوله تعالى ((واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)) وذلك لاظهار جلال الله وعظمته .

والمبالغة في قوله تعالى ((ولا تقربا هذه الشجرة)) ما قصد بها الا المبالغة في النهي عن الأكل ، اذ المنهي عنه هو الأكل من ثمار الشجرة ، فالنهي عن القرب نهي عن الأكل بطريق المبالغة .

وأما قوله تعالى في وصف ابليس ((أبى واستكبر)) فلا يقال بأن كلمة تغني عن الأخرى ، لأن الاباء معناه مع تمكن الانسان من الفعل ، الا أنه يمتنع ، والاستكبار هو التعالي والتعاظم ، فكل كلمة يطلبها المعنى .

وبالتعليق على قصة نوح في سورة هود ، نلمح السمات البلاغية والألوان البيانية الرائعة ، فمن أمثلة التشبيه ((فعميت عليكم)) فلقد شبه الذى لا يهتدى بالحجة لخفائها عليه بمن سلك مفازة لا يعرف مسالكها وطرقها ، واتبع دليلا أعمى ، وذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية .

وفي قوله تعالى ((ويا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي)) نلمس الطباق بين الأرض والسماء ، والجناس الناقص بين أبلعي وأقلعي .

وفي قوله ((أفلا تذكرون)) استفهام للانكار والتقريع .

وفي قوله ((فأتنا بما تعدنا)) أمر خرج عن معناه للتهكم والسخرية (١) .

وفي قصة هود قوله تعالى ((ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها)) فيه تشبيه الخلق وهم في قبضة الله سبحانه بالمالك الذى يقود

---

(١) صفوة التفاسير للصابوني ـ الجزء الخامس : ٩٨ الطبعة الأولى .

المقدور عليه بناصيته كما يقاد الأسير والفرس بناصيته .

وفي قوله ((ان ربي على صراط مستقيم)) استعارة لطيفة تدل على كمال العدل في ملكه تعالى ، فهو مطّلع على أمور العباد ، لا يفوته ظالم ، ولا يضيع عنده معتصم به .

وفي قوله ((ولما جاء أمرنا)) كناية عن العذاب ((نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ))(١) لبيان أن الأمر شديد عظيم ، لا سهل يسير ، وهو نوع من أنواع الاطناب .

وفي قوله ((اني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون)) نرى أن هودا لم يقل اني أشهد الله وأشهدكم ، لئلا يفيد التشريك بين الشهادتين والتسوية بينهما ، فأين شهادة الله سبحانه وتعالى من شهادة العبد الضعيف .

وفي قوله تعالى ((يرسل السماء عليكم مدرارا)) مجاز مرسل والمقصود المطر ، ولفظ " مدرارا " للمبالغة ، أي كثيرة الدّر والانزال .

وفي قوله ((فكيدوني جميعا)) أمر قصد به التعجيز .

وفي قصة سليمان مع الهدهد ، نرى التأكيد المكرر لتأكيد الأمر وتثبيته ((لأعذبنه أو لأذبحنه ، أو ليأتيني))

ومن أمثلة طباق السلب ((أحطت بما لم تحط به)) ، ((مهتد ، لا يهتدون)) .

---

(١) سورة هود - آية : ٥٨ .

ومن الجناس الناقص ((وجئتك من سبأ بنبأ))[1] .

ومن الطباق اللفظي ((تخفون وتعلنون)) ، ((أأشكر أم أكفر)) .

ومن الطباق المعنوى ((أصدقت أم كنت من الكاذبين)) .

ومن جناس الاشتقاق ((تقوم من مقامك)) .

ومن التشبيه الطريف القائم على الاستعارة ((قبل أن يرتد اليك طرفك)) حيث شبه سرعة مجيئه بالعرش برجوع الطرف للانسان ، وارتداد الطرف معناه التقاء الجفنين ، وهو أبلغ ما يكون في السرعة .

ومثله ((وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب)) فاستعار للسرعة الفائقة ارتداد الطرف .

وفي قصة صالح تضمنت الآيات ألوان طريفة من علم البيان والبديع ففيها الطباق بين ((يفسدون ولا يصلحون))

والتحضيض ((لولا تستغفرون الله)) على معنى " هلا تستغفرون الله " .

وفيها جناس الاشتقاق مثل ((أطيرنا ، وطائركم)) .

---

(١) يذكر ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة : " وخطر لي أن من فائدة الجناس الميل الى الاصغاء اليه ، فان مناسبة الألفاظ تحدث ميلا واصغاء اليها ، ولأن اللفظ المذكور اذا حمل على المعنى ، ثم جاء والمراد به معنى آخر ، كان للنفس تشوق اليه " .

صفحة : ٩٧ من سر الفصاحة .

وفيها المشاكلة مثل ((ومكروا ، ومكرنا))

وفيها الطباق ((لما تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة))[1] .

وفي قصة موسى عليه السلام في سورة القصص ، نرى من وجوه البيان والبديع التأكيد بأن مع المخاطبة بالكاف الذى يناسب المقتضى من مثل قول الله عز وجل ((ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك)) .

ونرى الاستعطاف والترحم مثل ((رب اني لما أنزلت اليّ من خير فقير))

ونرى جناس الاشتقاق ((وقصّ عليه القصص)) .

---

(١) القرآن الكريم في وصف أسلوبه بأطراف البديع ، الا أنها جاءت في موقعها الصائب ، وفي روعة أداء ومعنى ، على خلاف ما ورد عن بعض العرب من الأساليب البديعية التي كانت خلطا ومزيجا بين القبيح والحسن ، فكان القرآن الكريم بهذا الرصف البديعي في قمة الفصاحة والبلاغة ، حيث انه فاق الأساليب العربية كلها كما يفهم من كلام ابن المعتزص : ٢٦٩ من كتاب دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية الى نهاية القرن الثالث ـ للدكتور بدوى طبانة ـ الطبعة الخامسة ـ فابن المعتز وهو أول من ألف في البديع ، الا أنه لم ينظر اليه نظرة المعجب بشيء اعتدى اليه فلم يره حسنا كله ، وانما وجد في بعضه ما وجد من الحسن فأعجب به ، وفي بعضه من القبح ومجاوزة الحد ، فنبّه اليه وحذر منه ، وهذا على خلاف البديع القرآني الذى هو حسن كله .

ونرى التشبيه المجمل الذى حذف فيه وجه الشبه مثل ((تهتز كأنها جان))

ونرى الطباق بين ((يصدقني ، ويكذبون))

ونرى الكناية مثل ((واضمم اليك جناحك)) فكنى بالجناح عن اليد ، لأنها للانسان كالجناح للطائر .

ونرى المجاز المرسل مثل ((سنشد عضدك بأخيك)) من اطلاق السبب وارادة المسبب ، لأن شد العضد يستلزم شد اليدوهوستلزم للقوة .

قال الشهاب : ويمكن أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية شبه حال موسى في تقويته بأخيه بحال اليد في تقويتها بيد شديدة .

وفي قصة طالوت وجالوت ، نرى ألوانا عديدة من البلاغة ، منها الاستفهام الذى أجرى مجرى التعجب من مثل قوله تعالى ((ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم))

والحذف بين ((موتوا ، ثم أحياهم)) أى " فماتوا ثم أحياهم "

وفي قصة خليل الرحمن مع الذى حاجه نرى في قوله((ألم تر)) الرؤيا قلبية ، والاستفهام للتعجب .

ونرى التوافق في التعبير حيث عبّر بلفظ المضارع في قوله ((يحي ويميت)) الذى يفيد التجدد والاستمرار ، وهو تعبير يفيد القصر ، لأن الخبر في قوله تعالى ((ربي الذى يحي ويميت)) اسم موصول ، وبين كلمة ((يحي ويميت)) طباق ، وكذا بين((المشرق ، والمغرب)) .

وفي قوله تعالى ((فبهت الذى كفر)) يشعر بالعلة ، وان سبب الحيرة هو كفره ، ولو قال " فبهت الكافر " لما أفاد ذلك المعنى الدقيق .

وهنا نرى أن القرآن الكريم كان أسلوبه محكما رائعا ، بلغ الغاية في التصوير والروعة البلاغية التي لا يقدر عليها بشر ، اذ أن القصص القرآني وان عرضت معانيه بشيء من الطرق البلاغية التي عرفها القدامى والمحدثون وأطلقوا عليها اصطلاحات مختلفة ، وبما نقرأه في بعض قصص الكتّاب القدامى والمحدثين ، الا أن القصص القرآني بأساليبه المختلفة ، وعرضه الشيق ، وبلاغته المتناهية ، وما بدا على صفحة أسلوبه من طباق (١) ، وجناس (٢) ، والتفات (٣) ، وما الى ذلك من ألوان البديع ، ومن تشبيهات واستعارات وكنايات ، وما الى ذلك من ألوان البديع ، ومراعاته لمقتضى الحال بأسلوب منتظم بعيد عن الخبط والمبالغات المستكرهة ، والمعاني المرذولة ، والكلمات المستنفرة ، والعبارة الوحشية وغير المتناسقة ، بل كان بعيدا كل البعد عن الصنعة المتكلفة ، خارج عن الغريب المستنكر ، يبادر معناه لفظه الى القلب ، ويسابق المغزى منه عبارته الى النفس ، تتناسق ألفاظه وتتلاءم عبارته ، وينسجم أسلوبه ، حتى امتنع مطلبه ، وعسر تناوله ،

---

(١) الطباق : " هو الجمع بين لفظين مقابلين في المعنى " .

(٢) الجناس : " هو تشابه لفظين في النطق ، واختلافهما في المعنى .

(٣) الالتفات : " هو الانتقال من حالة الحاضر الى الغائب أو المتكلم الى المخاطب والعكس .

لا يحاكيه أحد ، ولا يقدر عليه بشر ، فهو بديع التأليف والرصف ، عجيب نظمه ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط .

حيث انه كما لمسنا من الأمثلة العديدة لا يسف الى الرتبة الدنيا ، فهو على حد واحد في حسن نظم ، فاذا تفاوت الكلام على القصّاص عند اعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتا بينا ، واختلف اختلافا كثيرا ، رأينا القرآن الكريم اذا كرر لنا القصة الواحدة رأيناه لا يختلف عما سبق ، بل هو في قمة البلاغة ، وغاية البراعة .

كما أنه استبان لنا أن القرآن الكريم في عرضه أحداث القصة يكون أسلوبه مناسبا للمقام ، موائما للأحداث ، بحيث يأتي اللفظ الملائم للمعنى والعبارة التي تتفق مع مقتضى الحال ، ولهذا كله رأينا كثيرا من الباحثين وهم يشيدون بروعة هذا البيان القرآني ، وما فيه من اعجاز لا من حيث المعنى فحسب ، وانما من حيث نظمه وتأليفه وتركيبه .

فالقصّ القرآني كما لمسنا بديع النظم ، عجيب التأليف ، فيه تصرف بديع ، ومعاني لطيفة ، وتناسب في البلاغة ، وحكم كثيرة ، وتشابه في العبارة ، وقوة لا تتفاوت ولا تتباين ، واذا كان القصّ العادي قد يروقك في أثناء عرضه عبارة تسحرك ، وكلمة تشد سمعك ، فان القصّ القرآني يتمثل فيه الجمال في أسمى معانيه ، فكله واسطة عقد ، وجمال عبارة ، وحسن نظم ، وسحر تفتن به النفوس المؤمنة ، والعقول المفكرة ، فكل عبارة قصصية تطرب لها النفس ، وتتشوف اليها البصائر ، كما ذكرنا قبل ذلك من أمثلة .

ولست مع الباقلاني حينما ذكر في كتابه اعجاز القرآن[1] : " ان وجوه البديع اذا كانت سرا من أسرار اعجاز القرآن ، فانه من الممكن التدريب عليها ، والتمود والتصنع لها ، حتى يمكن التوصل اليها ، وعلى هذا لا تكون ألوان البديع سرا من أسرار الاعجاز القرآني " .

لست مع الباقلاني في نفيه الاعجاز البديعي ما دام يتوصل اليه حيث ان القرآن الكريم انما جاء بلغة العرب ، وبفصاحته المتناهية ، لكي يكون العجز واضحا ، والمعارضة مستحيلة ، فما دام العرب عرفوا ألوان البديع ، لا أقول باصطلاحاتها المعروفة عند البلغاء ، وانما لأن أساليبهم بدا فيها كثير من تلك الألوان البديعية من جناس ، ومقابلة ، وطباق ، والتفات ، ما دامت أساليبهم قد ارتسمت فيها تلك الألوان الزاهية ، فلابد أن القرآن الكريم كان اعجازه مكشوفا ، حينما كان بهذا الأسلوب الذى عرفه العرب ، واتخذوه سبيلا ، فان القرآن الكريم بأسلوبه البديعي ، وطرقه المختلفة في تلك الألوان الجمالية التي أخذت حظها من الحسن والبهجة ، ولها وقعها المؤثر في كلام منتظم على غير وجه التكلف المستبشع ، والتعمل المستثنع ، والجنس المتمايز ، والأسلوب المتخصص ، والجودة المتناهية ، مما لا يقدر عليه العرب الفصحاء .

---

(١) اعجاز القرآن للباقلاني : ١٠٧ .

فنظم القرآن يخالف نظمهم ، وبألوانه البديعية يبدو التفاوت ، حيث انهم لا يقدرون على معارضته ، ولا يتهيئون لأن يأتوا بمثله ، فالألوان البديعية القرآنية وسيلة من وسائل الاعجاز القرآني لأن الاعجاز لن يكون الا لمن عرف قيمة الشيء ، بعد أن استمرأ ظله ، فخاض التجربة ، وأصبحت سجية من سجاياه ، وفطرة من فطره .

فليس من المعقول في شيء أن يكون الأسلوب البديعي القرآني بعيدا عن سمات الاعجاز ، بل بالعكس هو من الأدلة القوية على الاعجاز ، لأن أصحاب الصنعة ، وأرباب الفصاحة ، وقد تمرسوا على تلك الألوان البديعية بالفطرة ، أيقنوا أن السمات القرآنية البديعية اللفظية ليست على غرار ما ألفوه ، واعتادوا عليه ، فأحسوا بأنها ليست من صنع البشر ، وانما هو أمر خارق للعادة .

وفي حديثنا عن التناسق الفني ، وبيان توافق الفواصل في الآية القرآنية من حيث النغمة الصوتية ما قد يفيد بأن الأسلوب القصصي قد جاء وفيه شيء مما يسمى عند البلاغيين بالسجع .

وفي الواقع ان بعض الباحثين قد نفوا السجع كل النفي عن الأسلوب القرآني ، ومنهم الأشاعرة ، وحجتهم في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ذم السجع في حديث الجنين ، وقد فهم كثير من العلماء أن هذا الحديث يفيد التنفير من السجع .

وفي الحقيقة ان النبي صلى الله عليه وسلم في قوله (أسجعا كسجع الجاهلية وكهانتها)[١] لم يقصد بذلك انكار السجع ، وانما أراد بذلك أن العلاء بن مسروح قد اتخذ السجع وسيلة في دفعه حقا فرض عليه ، وذلك على طريقة الكهان في الجاهلية ، كانوا يتشدقون بالعبارات السجعية ، والألفاظ المطلية ، على أنه لا مانع عندى من أن تكون القصة القرآنية وقد توافقت نبرات آياتها ، كما يمكن أن نسميها فواصل من الممكن أيضا أن تكون سجوعة .

وقد بالغ الباقلاني حينما نفى السجع القرآني في كتابه اعجاز القرآن ، معللا ذلك بقوله : " ان السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى فيه السجع "[٢] .

حيث انني في أثناء عرضي لتوافق الفواصل في القصة القرآنية كم أثبت أن فاصلة كل آية صائبة كل الاصابة ، متقنة تمام الاتقان ، بحيث لا يمكن أن تقوم لفظة مقامها ، أو عبارة تؤدى معناها ، وعلى هذا فالفاصلة بنغمتها لم تكن صنعة مقصودة ، وطلاء شكليا ، بعيدا كل البعد عن اجلاء المعنى ، وكشف المقاصد ، وانما استبان لنا بكثير من الأمثلة

---

(١) اعجاز القرآني - لأبي بكر الباقلاني / تحقيق : السيد أحمد صقر - الطبعة الثالثة - ص : ٧٤ من المقدمة .

(٢) المصدر السابق - ص : ٥٧ .

أن المعنى القرآني القصصي كان في تلك اللفظة ، وحول هذا المنطـــوق الذى ختمت به الآيـة الكريمـة .

انني أرى ما رآه بعض الباحثـين من أن ذاك السجع القرآنـــي مما يبين به فضل الكلام ، وانه من الأجناس التي يقع فيها التفاضل فـــي البيان والفصاحة كالتجنيـــس والالتفات وما أشبه ذلك من الوجـــوه الـــتي تعرف بها الفصاحة لو تدبر هذا القول .

على أنني أرى أيضا ، أن العرب ما دامت عرفت هذه الأسجـــاع كما ورد في كثير من كلامهم ، وهم فصحاء بلغاء ، فلابد أن يكون القـــرآن الكريم فيه شيء من تلك اللمحات الخاطفة ، والنبرات المتناسقـة ، الـــتي عرفها العرب حتى يفطنوا الى أن هذا السجع القرآني بما فيه من حبكـــة قوية أصابت المعنى قبل أن تصيب الشكل والجمال الأسلوبي ، وفيه مـــن قوة الأسر ، وروعة التوافق ، ما يجعل العرب الفصحاء يشيدون بروعـــة البيان القرآني ، واعجازه السافر الواضح ، فشتان بين هذا السجع الذى عرفه الكهان واتخذه بعض العرب الفصحاء طريقا لهم في كتاباتهم ، شتان بـــين هذا وبين هذا المنطوق الذى امتاز بصفاء اللفظ وتمكن المعنى .

انني لا أؤيـد ما ذهب اليه بعض الباحثـين (١) ، ومنهم الباقلاني بأن السجع عيب يجب نفيه عن القرآن ، لأنه جاء في الأسلوب البشـــرى العربي ، لأن السجع القرآني قد فاق هذه الصنعة البشرية ، وباين كـــل

---

(١) اعجاز القرآن للباقلاني - ٥٩ .

أسجاع الساجعين ، فجاء في أعلى صور البيان ، فكان ذلك دليلا على أن القرآن لا يقدر عليه أى عبقرى ، ولا يعارضه أى فصيح عربي .

فكيف ينكر بعض الباحثين السجع القرآني ، مع أن السجع لون من ألوان البديع البلاغي ؟! ومن المعلوم بأن من أسرار اعجاز القرآن الكريم هذا النظم البديعي ببلاغته التي جاوزت المدى ، ففاقت جميع البلغاء العرب .

ولقد فطن بعض النقاد المحدثين (١) ، ومنهم الأستاذ العقاد الى أن السجع لا يعاب لذاته ، ولكنه يعاب لأن المتقدمين به يهملون المعنى في سبيل القافية ، أو الفاصلة ، فيعاب عليهم هذا العمال ، أما اذا اتفق السجع والمعنى فهو حسن رائع لا عيب فيه ، لأن الكلام به فيه زيادة وليس فيه نقص ، فيه مزية وليس بعيب ، ومطلب يراد وليس بمأخذ يجتنب .

ويذكر عبد القاهر الجرجاني (٢) في كتابه : " لا تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتى تجده تجنيسا مقبولا لا تبتغي به بدلا ، ولا تجد عنه حولا " .

---

(١) راجع : التيارات المعاصرة في النقد الأدبي للدكتور بدوى طبانة ص : ٢٦٣ الطبعة الثانية .
وبحوث في اللغة والأدب للعقاد ـ ص : ٢٥٥ طبعة ١٩٧٠ م .

(٢) أسرار البلاغة ـ لعبد القاهر الجرجاني : ص ٧ .

ومعنى هذا أن النقاد القدامى والمحدثين أشادوا بكل عبـــارة سجعية كان المعنى فيها هو المسيطر عليها ، ولعلهم بذلك اتخـــذوا القرآن الكريم في سجعه الرصين مثلا أعلى يقوّمون به عباراتهـــم ، وآدابهم ، حيث انهم لاحظوا السجع القرآني فأعجبوا به أيّما اعجاب ، لأنـــه لا غناء لابراز مقاصد الآيات عنه ، فهو سجع حسن كله يفيض سحرا بنفحتـــه التي تتجلى فيها الاشارات الخفية ، والمعاني المقصودة .

واذا كنا قد أوردنا صورا من التناسق الفني من حيث الشـــكل فلا بأس بايراد بعض النماذج من هذا التناسق في الصورة القرآنيـــة القصصية ، فقوله تعالى في سورة يوسف ((أضغاث أحـــلام[1])) ، فمـــن الواضح من الآية الكريمة حينما حدّث الملك انه رأى في منامه سبع بقرات سمان يأكلهـــن سبع بقرات هزيلة ، وسبع سنبلات خضر قد انعقد حبهـــا وسبع سنبلات يابسات قد استحصدت ، وطلب الملك من يفسر له هذه الرؤيا ويعبرها ولكنه لم يجد من أصحابه والمحيطين به من يعبرها له ، ويشـــير الى ما تهدف اليه من معان قد تتحقق حتى أشار عليه الساقي الـــذى عاصر يوسف في السجن ، وعلم من أمره ما علم فقال ((أنا أنبئكم بتأويلـــه[2])) على معنى أن يوسف عليه السلام هو الذى علم بتأويل المنامات ، وخبرة بتفسير الأحـــلام ، فأرسلون اليه لكي آتيكم بالخبر اليقين ، حتى ذهـــب

---

(١) سورة يوســـف ـ آية : ٤٤ .

(٢) سورة يوســـف ـ آية : ٤٥ .

اليه وفسر له الرؤيا ، كما حدّث عن ذلك القرآن الكريم ، فحاشية الملك الذى رأى الرؤيا لم تجد معنى لما رأى ولا مدلولا لما قصّه عليهم ومن ثمّ قالوا بأن ماشاهده الملك في منامه ما هي الاّ أحداث نفسية راودته ، اختلط فيها الخير بالشر ، والأمن بالاضطراب ، وذلك دليل عجزهم وضعفهم عن تفسير الرؤيا ، لكن التعبير القرآني الكريم كانت عبارته الدالة على ذلك فيها روعة التصوير ، وجمال العبارة ، حيث الاستعارة الموائمة والمعبرة عن المعنى المقصود بأروع عبارة ، فقال عز من قائل ((قالوا أضغاث أحلام)) ، حيث انهم شبهوا اختلاط الأحلام وما فيها من طيب ورديء ، ومقبول ومردود ، وحسن وقبيح ، باختلاط الحشيش المجموع من أماكن متعددة ، وألوان مختلفة ، وهذا لا شك مما يقوى المقصود عند حاشية الملك ، وهو أن ما راوده في منامه ما هي الا أحداث متشابكة ومتباينة تمام التباين قد راودته أثناء نومه .

والتعبير بكلمة ((أضغاث)) بما فيه من استعارة متناسقة تمام التناسق ، فيه فنّية آخاذة ، وبراعة أكّدت المعنى المقصود ، وترجمت عن هذه الرؤيا حسبما زعموا - وان كان الواقع خلاف ذلك - حيث ان يوسف عليه السلام قد عبّرها تعبيرا ينم عن خبرته الأكيدة في هذا العلم المناسي وفي التعبير بقوله ((اني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات))(١) .

---

(١) سورة يوسف - آية : ٤٣ .

نرى من ألوان البديع الطباق الأخاذ الذى لا نحس فيه الا بكشف المعنى واتمام المقصود ، فكلمة " سمان " يطابقها " عجاف " وكلمة " خضر " يطابقها " يابسات " ، والألفاظ كلها تخدم المعنى المطلوب ، وتشير الى المقصود ، فهو طباق رائع المعنى ، جميل العبارة تتفتح له النفس .

ومن ثمّ كانت الآية الكريمة قوية الأداء ، رائعة العبارة ، جميلة التصوير ، وهكذا نلمس كثيرا من المحسنات البديعية التي جاءت عفوا ، وظلها المعنى ، وحينما تتلقف نفحتها الأذن تحس فيها بقوة التعبير ، ومن هذا البيان الرائع قوله تعالى ((فعرفهم وهم له منكرون))(١) .

أى أن يوسف عرف اخوته حينما ذهبوا لأخذ الميرة منه وهم لم يعرفوه ، فبين عرف وأنكر طباق ، ولكنه وليد المعنى ، فلم تعط الأية الكريمة مقصودها الا به .

ومن جمال الصورة ما يتضح في حديث موسى مع الخضر ، ففي المرة الأولى يقول الخضر لموسى ((انك لن تستطيع معي صبرا))(٢) ، وذلك حينما طلب منه صاحبته بادئ ذى بدء حتى يعلمه ويبصره وينير له المسالك ، ومعنى هذا ان موسى ربما أنه كان مترددا في موقفه مع الخضر هل يصبر على عناء هذا التعليم أم لا يصبر ؟ وهل يطيق تلك الصاحبة أم لا يطيق ؟

---

(١) سورة يوسف - آية : ٥٨ .

(٢) سورة الكهف - آية : ٦٧ .

ومن ثمّ كان مقتضى الحال أن يجلي الخضر عنه دائرة الشك والتردد في الأمر ، فبين له الحقيقة ، وهو أنه لا يستطيع أن يصبر على هذا التعليم ، وتلك المهمّة ، فاقتضى الأمر أن يؤكد الكلام لموسى بمؤكد وهو " ان " .

ومن المعلوم أن هذا الضرب من أضرب الخبر الذى يسميه البلاغي الطلبي[1] ، بمعنى أن المخاطب يكون موقفه الحيرة ، ويحتاج الى من يزيل عنه التردد ويعطيه اليقين في أحد الأمور ، ورأى البلغاء أن هذا الضرب الخبرى يحتوى على مؤكد واحد كما ورد في الآية الكريمة وبذلك يتم المراد والقصد من الأسلوب الخبرى ، ولكن موسى بعد أن عرف أن حاله قد لا يطيق الصبر أراد أن يطمئن نفسه ، ويثبت فؤاده ، بأنه بعون الله ومشيئته سيتصف بالصبر ، وسيوطن نفسه على تلقي الأمور بيسر وسهولة .

ولما رأى الخضر حال موسى وشغفه بالعلم ، وحرصه على المعرفة استجاب له على شريطة أنه اذا رأى أمرا غير مقبول العلة في نظره ، ولربما أنه لا يتماشى مع العقل والمنطق السليم ، فلا يحاول ربط السبب بالمسبب

---

(١) والطلبي : هو ما كان فيه الشخص متصور للطرفين ، متردد في اسناد أحدهما الى الآخر طالبا له حسن تقويته بمؤكد .
الايضاح للقزويني : ١٨ - الجزء الأول - مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة .

والعلة بالمعلول ، حيث ان الأمر فيه صعب ، وطريقه وعر ، وادراكه يحتاج الى جهد فكرى ، وتحليل ذهني مما لا يقدر عليه موسى وأمثاله ، ولهذا حينما صاحب موسى الخضر ورأى خرق السفينة ، وقد أزعجه وأقلقه فهو أمر لا يتماشى مع العقلية الانسانية ، ولا يتناسب مع التفكير البشرى والادراك الفطرى حتى استنكر ذلك على صاحبه واستعجب أشد العجب من صنيعه هذا الذى قد يهلك قوما ويغرق ركاب السفينة .

ومعنى هذا ان موسى لم ينفذ وعده السابق حيث انه عقد العزم على أن يثبت على ما رأى ويقف عند كل أمر غير مألوف فلا ينزعج ولا يلوم صاحبه ولا يؤنب من رافقه .

ومن ثمّ كان المناسب لمقتضى الحال أن يقول له الخضر ((ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا))[1] ، ففي المرة الأولى ((انك لن تستطيع)) من غير أن يقول ((ألم أقل)) التي فيها اشارة الى الوعد السابق فالخضر عليه السلام في المرة الثانية لما رأى موسى وقع في المحظور ذكره بما سبق الالتزام به ، فكان المناسب أن يقول ((ألم أقل)) فيضيفها على النص السابق ، وهو ((انك لن تستطيع معي صبرا)) .

أما في المرة الثالثة بعد قتل الغلام أضاف كلمة ((لك)) التي فيها شيء من تقريع موسى وتنبيهه الى خطأ وقع فيه وهو استنكاره لقتل الغلام ، والتقريع هنا مناسب لأنه اذا وقع الخطأ لأول مرة ، فقد يكون

---

(١) سورة الكهف ـ آية : ٧٢ .

فيه شيء من الغفران ، أما الوقوع فيه مرة ثانية ، فهو العجب كل العجب .

ولذلك كانت مخاطبة الخضر لموسى في المرة الثالثة باضافة ((لك)) التي تعني مخاطبة موسى ، وكأنه هو المقصود بالذات لأنه تمادى في النكران ، واستمر في التعجب مما دعاه الأمر الى الاستفسار عن أمر لا يعرفه .

فمقتضى الحال في الآية الأولى ((انك لن تستطيع معي صبرا))

وفي الآية الثانية ((ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا))

وفي الآية الثالثة ((ألم أقل لك انك لن تستطيع معي صبرا))[1] .

ولذلك لما علم الخضر من تكرار موسى للسؤال لاستمرار دهشته رأى أنه لا يصلح للصاحبة حتى قال ((هذا فراق بيني وبينك))[2] .

وعلى هذا يكون الخضر صادقا فيما فهمه أولا ، وهو أن موسى لا يقدر على صاحبته ، ولا يصبر على مشاهدة شيء قد يعز عليه فهمه ويصعب عليه مراده .

وفي هذه التعبيرات الثلاثة ما يفيد أدب الأستاذ مع التلميذ ومعاملته بلطف ، حيث ان الأسلوب أو العبارة بعيدة عن الجفوة في التعبير والتأنيب المكشوف ، واللفظ المقذع ، وانما هي عبارات مع اصابتها الهدف وبلوغها المراد ، فيها سمحة رزينة من أدب المعاملة ، ورقة الطبع ، وحسن

---

(١) سورة الكهف - آية : ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٥ .

(٢) سورة الكهف - آية : ٧٨ .

الخلق ، وملاطفة الأستاذ لتلميذه ، فهذه الآيات الثلاث مع قصرها أوحت الى المعاني الشريفة ، ودلت على الغايات المقصودة مع حشمة ووقار وتواضع العلماء ، وتسامح فيّاض ، ومعاملة كريمة ، ومعاشرة أصيلة ، وفيها من نهل الخلق ما فيها ، والتواضع الجم ، وطمأنينة النفس ، ورقة المشاعر .(١)

ومن ثمّ فهي نبراس للمعلمين ، وقدوة للمربين ، وغاية يلتمسها كل قوّام على رعيّة ، وسد النصائح لكل طائفة تسترشد ، وأمة تبغي الحق ، وتطلب الهداية والرشاد .

* * * * *

---

(١) وكما اختلفوا في الرجل الصالح ، اختلفوا في موسى صاحبه فقيل : هو موسى بن منشأ بن يوسف بن يعقوب .
ورجح ابن الأثير أن موسى صاحب الخضر هو موسى بن عمران عليه السلام ، وساق تدليلا على هذا حديث سعيد بن جبير الى ابن عباس أنه سمع أبيّ بن كعب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ان موسى قام في بني اسرائيل خطيبا ، فقيل له أى الناس أعلم ؟ قال : أنا ، فعتب الله عليه حين لم يرد العلم اليه ، فقال يا رب هل عندك أعلم مني ؟ قال عز وجل : عبد لي بمجمع البحرين ، قال : يا رب ، وكيف لي به ؟ . . . وساق قصة الحوت . . . الخ .
راجع : الكامل في التاريخ لابن الأثير - الجزء الأول : ٩٠ الطبعة الثانية .

الفصل الثاني

الاصابة في نقل المواطف

الاصابة في نقل المواطف :

وفي قصة موسى مع السحرة قوله تعالى ((فأوجس في نفسه خيفة موسى (١))) .

وسر جمال التعبير أن الله تبارك وتعالى عبّر بكلمة ((أوجس)) التي تفيد أن موسى وان أحس بالخوف من فعل السحرة الذين هم من قوم فرعون ، الا أنه أضمر ذلك في نفسه ولم يعلنه ، اذ أنه لو أعلنه لأدى ذلك الى حدوث الهلع والفزع في قوم موسى وهم أحق بمن يثبت همتهم ويشحذ عزيمتهم ، فاضمار موسى في نفسه اشفاقا على قومه ، اذ أن القائد اذا أصيب بالخوف ، وملئ وجدانه بالرعب ، كان ذلك مدعاة لأن ينهار جيشه ويتحطم من حوله ، اذ أن قومه في حاجة الى عون روحي ، ومدد معنوى من موسى عليه السلام ، فما بالكم وان موسى في مرأى أعينهم ، وقد خارت قواه ، وضعفت أمانيه ، ان الحكمة الالهية اقتضت التعبير بـ " أوجس " حتى يثبت الجند ، ويأمن السحرة اذا أضيف الى ذلك ، بأن هذا الكتمان من جانب موسى فيه بريق أمل ، ونزعة تفاؤل ، اذ ان موسى عليه السلام يعلم أنه مرسل من قبل ربه ، فان أحس بخوف فسرعان ما يتبدد هذا

---

(١) سورة طه - آية : ٦٧ .

الخوف ، ويزول هذا الرعب ، وقد قال تعالى في مبدأ توجيهه الى فرعون ((لا تخافا انني معكما أسمع وأرى))(١) .

ومن جمال العبارة تقديم الجار والمجرور على الفاعل ليفيد أن هذا الحدث أمر نفسي منبثق في الأغوار ، متعمق في قرارة النفس ، فليس خوفا شكليا أو وهميا ، أو ادعائيا ، بل هو خوف يقيني ، وهذا من شأنه يدل على عقيدة موسى الطاهرة ، وقوة ايمانه بالله عز وجل ، فهو يرى أن نصره على فرعون وقومه من عوامل نشر رسالته ، واحلال العدل وابادة الظلم والطغيان ، فالأمر أكبر من كل شيء ، حتى كان الاحساس رهيبا والمشاعر مرتاعة ، حينما بدت الملامح الظاهرية لقوم فرعون تنبيء بشيء من مهارتهم السحرية ، ومن ثمّ تدارك المولى عز وجل هذا الموقف حتى يتثبت موسى ، وهو القائد الذى ترنوا اليه الأبصار ، وتتجه اليه الأفئدة ، فقال عز من قائل ((قلنا لا تخف انك أنت الأعلى)) والتعبير بلفظ " الأعلى " فيه تعريض بفرعون ، وسخرية من دعواه الباطلة ، اذ أنه كان يعلن أمام قومه أنه هو الأعلى ، وذلك بعد أن دعاهم موسى الى عبادة الله عز وجل ، قال تعالى على لسان فرعون ((فقال أنا ربكم الأعلى))(٢) .

ومعنى هذا أن قول الله عز وجل ((لا تخف انك أنت الأعلى))

---

(١) سورة طه - آية : ٤٦ .

(٢) سورة النازعات - آية : ٢٤ .

مخـــــاطبا لموسى عليه السلام ، تتناسب مع قول فرعون بعد أن دعي الـــى عبادة الله سبحانه فقال ((أنا ربكم الأعلى)) على معنى أن العلو والمكانـــــة الرفيعة ، ليس من جانب أهل الظلم والطغيان ، الذى يمثله فرعون ، وانما هـــو من جانب أهل الهداية والرشاد الذى يمثله موسى عليه السلام ، على أن وصـــف الله عز وجل لموسى بالعلو ، اشارة الى الفرق السافر بين نفسية موسى ونفسيـــة فرعون ، فنفسية فرعون وقد وصفها الله عز وجل بقوله ((ان فرعون علا فـــي الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ، ويستحي نساءهم))(١) ، هي نفسية الطغيان والفساد في الأرض .

ومن ثمّ كان وصفها بالعلو على لسان الحق عز وجل علو في قمة الفســـاد ، وعلو في الطغيان والاستبداد .

أما علو موسى فهو علو الغلبة والنصر ، لا في سبيل تحقيق نزعة الغـــرور والتسلط على العباد ، وانما في سبيل محو الباطل ، وازالة الفتنة ، وصعـــق الجبابرة ، وعلى هذا فمخاطبة الله لموسى بقوله سبحانه ((انك أنت الأعـــلى)) تتناسب مع وصف فرعون لنفسه حين قال ((أنا ربكم الأعلى)) ، وتتناسب أيضا مـــع وصف الله عز وجل لفرعون بقوله ((ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعـــا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين)) . وهذه تشتمل على ست كلمات ، سناؤها ، وضياؤها على ما ترى ، وسلاستهـــــا وماؤها على ما تشاهد ، ورونقها على ما تماين ، وفصاحتها على ما تعـــــرف .

وهي تشتمل على جملة وتفصيل ، وجامعة وتفسير : ذكر العلو فـــي الأرض باستضعاف الخلق ، بذبح الولدان ، وسبي النساء ، واذا تحكم في هذيـــن الأمرين فما ظنك بما دونهمـــا ؟!! ، لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظـــلم

---

(١) سورة القصص - آيـــة : ٤ .

والقلوب لا تقر على هذا الجور ، ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد ، وكفت في التظليم ، وردت آخر الكلام على أوله ، وعطفت عجزه على صدره ، ثم ذكر وعده تخليصهم بقوله ((ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)) وهذا التأليف بين المؤتلف ، والجمع بين المستأنس .(١)

على أن مخاطبة الله سبحانه وتعالى لموسى بقوله ((انك أنت الأعلى))(٢) فيها ما فيها من اطمئنان نفس ، وتثبيت داعية الى الحق ، وتمكين رسول من رسل الله في أن ينهض بدعوته ، ويقوم برسالته .

أما عن قول الله عز وجل على لسان امرأة فرعون ((وقالت امرأة فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا))(٣) ، هو تصوير رائع وتعبير قرآني جميل ، اذ أن هذه العبارة التي صدرت من امرأة فرعون لها مدلولها النفسي الوثيق ، وايحاءاتها التي تمتد الى أغوار المشاعر الانسانية ، اذ أن فرعون قلبه كالصخر الجلمود ، وقسوته وجبروته تجاوزت الحدود ، ومن ثمّ ما أحوجه الى من يرقق مشاعره ، ويخفف أمرا من صلفه وغروره ، وخصوصا انه يرى أن في قتل هذا الطفل الصغير حماية لنفسه ، وأمنا لحياته ، حسبما زعم المنجمون أن هناك من سيقضي على مصيره ، ويغلبه على أمره .

أليس فرعون الذى شأنه كذلك في حاجة ماسة الى من يمنعه عن البطش بموسى ، الطفل الصغير ، ويحجبه عن ذبح من التقطه آل فرعون .

ومن ثمّ كانت كلمة امرأة فرعون بردا وسلاما على قلبه مادام أن هذا الطفل الصغير سيصبح في يوم " ما " تقر به عين فرعون ، وعين زوجته ، وانه سيصير في يوم " ما " عونا ورفيقا بارّا له ، فانه سيصبح ولدا له ، به يهنأ فرعون ، وبالنظرة اليه تهنأ خواطره ، وتسعد عواطفه

---

(١) اعجاز القرآن للباقلاني : ٨٠ من المقدمة .
(٢) سورة طه - آية : ٦٨ .
(٣) سورة القصص - آية : ٩ .

وتستقر حياته ، وبه يقوى ، ومنه يرفل في ثوب السعادة والهناء .

أليس هذا كله كفيلا بأن يثني فرعون عن عزمه ، ويرجع عن قصده ، ويتقهقر عن شره ، فيغيّر قصده ، ويبدل بطشه ، ويحور نقمته فيفسح صدره ، ويبش وجهه ، ويفتح بابه لهذا الرضيع الصغير ، حتى يصم على رعايته ، ويتعهد بتربيته ، ما دام أنه ظل ممدود لحياته وعون له في المستقبل ، ولا شك أن عبارة ((قرت عين لي ولك)) التي فسرتها بما بعدها ، تعطي هذه الجوانب النفسية ، وتوحي بهذا التغير السريع الذى لحق فرعون ، وأضاء وجدانه ، باشعاع الرحمة الفيّاض ، والنور الوهّاج ، الذى كان سببا في حياة موسى ، ونجاته من بطش كيد فرعون الأثيم ، انها صورة مشرقة ، وعبارة أخّاذة ، ولا نقدر سموها ، وندرك آثارها ، الا اذا اعتبرنا القصة الموسوية خالية منها ، بعيدة عن اشارتها ، فاننا حينئذ اك نرى بأعيننا فرعون وقد صبت شرارات البطش من عينه ، ولمعت أمارات الغضب في محياه ، ومن ثمّ فلا مفر من ذبحه لطفل صغير لا حول له ولا قوة .

ان هذه العبارة ((قرت عين لي ولك)) لها مدلولاتها الواسعة ومنبعها السّر ، وفيضها الغزير ، واتجاهاتها الموحية بمعان مستكنة ، وادراكات خفيّة ، انها تشع بخلق فرعون التي آثرت المصلحة الشخصية التي تعود عليه ، والأنانية المتحكمة فيه ، فهو يعمل لنفسه ، ولو على حساب اراقة الدماء البريئة .

ومن ثمّ فهو يرى ذبح الأطفال حلّ ، وجريمة سفك الدماء غير مستنكرة ، اللهم الاّ اذا كان تركها تثبيتا لحياته ، ودعما لقوته ، وقرت عين له ولا مرأته .

ومن ثمّ كان في ترك موسى ، وابقاء حياته ، ما زعمه أنه أمن وطمأنينة " فهو قرت عين له " .

وفي قوله تعالى ((ولما سكت عن موسى الغضب))(١) نجد دقة التصوير في قوله ((سكت)) ، لأن السكوت يدل على أن الغضب وان خمد في جانب موسى في فترة من الفترات ، فانه سيعود مرة ثانية وثالثة ورابعة وهذا على خلاف التعبير بانتهاء الغضب ، لأن الانتهاء يؤذن بأن الغضب قد انمحى ، وعلى هذا لن يعود مرة أخرى ، فكان التعبير بالسكوت أجمل تعبير ، وأروع أداء ، وفيه من الجمال ما فيه .

ومن الصور النفسية قوله تعالى ((اني آنست نارا))(٢) ، نفسية موسى أو شعوره النفسي كان يتطلع الى الدفء حيث انه من الثابت أنه في تلك الآونة كان الجو شاتيا مطيرا(٣) ، ثم انه كان في حاجة الى قبسة نار عله يستضيء بها ، كما أنه كان في حاجة الى أمل يتحقق ، وهداد

---

(١) سورة الأعراف ـ آية : ١٥٤ .
وهنا في سكت استعارة ، حيث شبه الغضب بانسان ، وحذف ورمز له بشيء من لوازمه وهو السكوت ، على سبيل الاستعارة المكنية التبعية .

(٢) سورة طه ـ آية : ١٠ .

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ الجزء الأول ـ ص : ١٠٠ طبعة بيروت ـ الطبعة الثانية .

يهديه ويرشده .

ومن ثمّ حينما رأى النار الموقدة ، وجد أنها بغيته ، وأنها منفذ قوى لاسترضاء نفسه ، ولذلك كان لفظ ((آنست)) مصورا تمام التصوير مشعا عن أضواء نفسه التي أنست بتلك النار ، وابتهجت بهذا اللهيب المتوهج ، حيث انها تشبع رغبته في الدفء ، كما يقول تعالى ((لعلكم تصطلون)) .

كما انها ربما تحقق مطمعه في طلب الهداية والرشاد ، وكما يقول ((لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى)) .

فالأنس فيه بهجة ، وارتياح نفسي ، وعلى هذا كان التعبير القرآني رائعا في مدلوله ، قويا في ألفاظه ، صائبا كل الاصابة في تحقيق كل معنى نبيل ، وجوانب نفسية رفيعة .

وقال تعالى ((وأصبح فؤاد أم موسى فارغا))(١) فان كلمة ((فارغا)) قد أضفت على الآية جمالا أخاذا ، وصورا رائعة ، وذلك أن كلمة فارغا أفادت بأن حدث موسى والقاءه في التابوت ، وتحديد مصيره ، سبب القلق والجزع في نفس أم موسى ، وذلك لأن فؤادها ما انشغل بشيء من خواطر الحياة ، وما تعلق بأى حدث كوني الا بحدث وليدها موسى فحسب ، فأصبحت مشاعرها تنبض به ، ووجدانها يتحرك نحوه ، وخواطرها مشغولة بمصيره ، فأحاسيسها كلها تتجه اليه ، فكان فؤادها فارغا من كل

---

(١) سورة القصص - آية : ١٠ .

هوى ، لأنه لا مكان فيه الا لموسى ، ولا خطرة فيه الا التعلق بحياته

فهذه الكلمة لها ايحاءات تصور عواطف الأمومة الذى بلغ المدى .

ومن ثمّ فهي ملتاعة تعيش في حيرة حتى يأتيها داعي الاطمئنان ، وتصل اليها بشرى الأمان ، ولو أن الكلام في غير القرآن وقيل " وأصبح فؤاد أم موسى ملتاعا به ، شوقا اليه " لأدرك الفرق بين كلمة ((فارغا)) و " ملتاعا " ، اذ أن القلب قد ينشغل بأمر فترة ، ثم يشغله أمر آخر وثالث . . . الخ ، ولكن كلمة ((فارغا)) يلفت أن الانشغال منصب في تيار واحد ، وهو فلذة كبدها ، ومعين حياتها ، وخصوصا هي التي وضعته بيدها في اليم .

ومن ثمّ أراد الله عز وجل اللطف بها فخفف من بأسها ، ولطف من لوعتها ، واتجاهها الكلي نحو الخوف على ولدها ، فثبتها وطمأنها وأودع في قلبها الثقة والأمان ، فكان التعبير القرآني الجميل ((لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين))(١) ، فالايمان بالله يقتضي الثبات والصبر على المكاره ، وتحمل النوائب والشدائد ، ولربما ان هذا الحدث الموسوى قد يغير من طبيعة الأمومة ، فالله سبحانه عز وجل يتداركها بعطفه ، فيمنحها قوة اليقين ، ويعطيها الرضا والاعتماد عليه ، ومن ثمّ تبقى عقيدتها الراسخة ، وايمانها الفيّاض ((لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين)) .

---

(١) سورة القصص - آية : ١٠ .

وفي قوله تعالى ((رب اني لما أنزلت اليّ من خير فقير))(١) جمال لا يفوته جمال ، حيث يصور الكليم حاجته الملحة الى ربه في جميع شئوونه وأنه لا يفتأ متمسكا بحبال الله الذى هيأ له السلامة في جميع أموره واختصه بالكرامات ، ونجاه من يد أعدائه ، فهو يقول رب اني مع ذلك كله فقير الى فضلك ورحمتك ، فالآية تشف عن نفسية موسى الحامدة لربها ، المعترفة بفضل الله عليها ، فكم من منة أسداها ، وكم من فضل غمر به ومع ذلك كله هو يطمع دائما في عون الله ، ويحتاج الى مزيد من نعمائه وفيض من صيب معروفه ، ومن ثمّ فهو فقير الى الله في عوز اليه ، فقد منّ الله عليه بالسلامة في دينه ، ونجاه من فرعون وكيده ، ولكنه في أمسّ الحاجة الى ما يسد به رمقه من لقمة عيش تقيم صلبه ، وتسند أوده .

يذكر ابن كثير عن ابن عباس : " أن الكليم قدم مدين وأن بطنه لاصق بظهره من الجوع ، وأن خضرة البقل لترى من داخل جوفه ! وانه لمحتاج الى شق تمرة "(٢) .

ونحن اذ نقف من هذه الرواية موقف القبول لورودها من رجل عدل ثقة كابن كثير ، الا أننا لا ننسى أن نقف موقف التحفظ منها ، كأى

---

(١) سورة القصص - آية : ٢٤ .

(٢) راجع : تفسير ابن كثير - المجلد الثالث : ٣٨٤ - طبعة بيروت ١٣٨٨ هـ .

حديث من الاسرائيليات ، من غير خوض فيها ، بل تمر كما جاءت ، لأن الأحاديث الاسرائيليات لا تصدق ولا تكذب ، كما نلمح ومضة من ومضات الشعور بالذنب من قبل موسى عليه السلام ، فهو يحس ببعض الجزع من قتل النفس ، ولكنه مفتقر الى عفو ربه ، وفيض غفرانه ، وهو التواب الرحيم .

وفي قوله تعالى ((فجاءته احداهما تمشي على استحياء[1])) ففي كلمة ((استحياء)) ما فيها من جمال التعبير الذى يصور ما كانت عليه هذه الجارية من العفة والطهر ، ويصور النزاهة والعفة التي كان عليها سيدنا موسى عليه السلام ، فان جارية موصوفة بالطهر والنقاء والحياء لا تقدم على ما أقدمت عليه الا وقد عرفت ولمست من خلال تعاملها معه في السقيا انه انسان جليل القدر ، عفيف ، شريف ، نظيف .

من هنا كان رد فعلها أن عادت لتدعوه الى مقابلة أبيها حينما طلب منها استدعاءه ، ولم تر في ذلك أى تشويه لسمعتها أو اخلال بما هي عليه من حياء .

وانظر الى جمال التعبير القرآني الذى صوّر ما هي عليه هذه الجارية من عفاف ، فقد جاءته على استحياء ، وكان الحياء قد أصبح يحيط بها احاطة السوار بالمعصم ، فأصبح كلا فيها ، ولذا لما طلب

---

(١) سورة القصص - آية : ٢٥ .

أبوها من الكليم زواجه مقابل الرعي ، لم يتردد في هذا الزواج ، وكيف يتردد وقد خبر الكنانة وعجم عيدانها وعلم من أمرها ما علم .

يقول ابن عباس : " جاءته معترضة رافعة كمها على وجهها كمشي المذارى ، واضعة يدها على وجهها " ، وهذا من كمال حيائها (١) .

زاد ابن كثير : " فليست بسلفع من النساء ولا جراجة " (٢) .

وقال عز من قائل في فرعون وقومه ((كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين * فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين *)) (٣) .

فقد صورت هذه الآيات موقف قوم فرعون ، وما آل اليه حالهم أشد تصوير ، وأقذعه ، وكأن كل آية سوط من جحيم تقشعر منه الأبدان .

فهي تصور حال أولئك الكفرة الجاحدين ، وما آلوا اليه من مآل نتيجة أعمالهم السيئة ، وأن الانسان اذا أنعم الله عليه بنعمة

---

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : ٣٢٥ - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) ابن كثير - المجلد الثالث : ٣٨٤ .

(٣) سورة الدخان - آية : ٢٥ - ٢٩ .

فلم يؤد حقها جازاه الله بالنقيض ، فسلبه تلك النعمة ، ثم ان العذاب بعد النعمة أنكى وأبلغ وأشد ايلاما ، لأنه يقوم مقام التبكيت والتقريع والسخرية ، فان الأمور حينما تصبح في يد من كان بالأمس مضطهدا مغلوبا على أمره .

فلا شك أن الوضع حينئذ كالصاب بعد العسل ، وهذا ما حدث لفرعون وقومه ، فقد أهلكهم الله وأعقبهم بعد تلك النعم التي كانوا يستمتعون بها ذل الدهر ((النار يعرضون عليها غدوا وعشيا))(١) ، ووصل ما بأيديهم الى قوم موسى عليه السلام ، كما يصل الميراث الى وارثه ، فضلا عن أن فرعون وقومه لم يعبأ بهلاكهم ودمارهم أحد ، فلا السماء جزعت لمصابهم ولا الأرض اكترثت بدمارهم ، لأنهم لم يعملوا عليها صالحا يذكرون به ، والسماء لم يصعد اليها عمل صالح فتبكي عليهم به ، فكانوا عديمي الجدوى ان لم يكونوا شرا مستطيرا .

وفي قوله تعالى ((قال هي عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى))(٢) ، كان يمكن أن يقول هي عصاى ولا يتعرض لما لها من منافع كثيرة واستخدامات متعددة ، ولكنه تلذذا أشد التلذذ بهذا اللقاء الرباني ، والمخاطبة الالهية ، حتى كان اطنابه في الاجابة دليلا على ارتياحه النفسي وشعوره الفياض بتلذذ الخطاب ، مما

---

(١) سورة غافر - آية : ٤٦ .

(٢) سورة طه - آية : ١٨ .

يدل على المواطف المحبة لله سبحانه وتعالى .

والتعبير بقوله ((خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى))(١)

حينما ألقى عصاه فاذا هي حية تسعى ، وذلك يدل على أن الله عز وجل يهيئه لأن يتقبل ما يلقى عليه من معجزة السحر فيما بعد ، فحينما يقف أمام قوم فرعون فيلقي عصاه فتتحول الى ثعبان مبين بدلا من أن يذعر موسى أمام أعدائه يكون ثابتا كالطود الأشم ليرى وليتفرغ لصنيع أعدائه حينئذاك ، فالأصل للبشرية أن تنصعق أو تهتز أو ترتجف أو على الأقل تصاب بدهشة حينما ترى أمرا غير مألوف مثل العصا التي تحولت الى ثعبان ، والأصل فيه الشر ، فتهيئة الله لموسى عند مفاجأته حيث ان العصا تحولت الى حية ، هذا يمكنه من أن يتلقى المعجزة برباطة جأش ، وبجنان ثابت ، وبعزيمة قوية ، حتى تكون الغلبة له والهزيمة لأعدائه ، وبذلك تحولت المواطف التي طبعت على الخوف وعلى الدهشة الى عواطف كلها أمن ويقين بالله عز وجل .

لقد اتضحت عواطف موسى المشبوبة بحب الله ، الحريصة على أن يعبد قومه الرحمن ، ويتركوا عبادة ما سواه ، حينما ذهب موسى لميقات ربه ((وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة))(٢) ، فبعد تمام الأربعين ذهب موسى لتلقي الألواح التي تتضمن

---

(١) سورة طه - آية : ٢١ .

(٢) سورة الأعراف - آية : ١٤٢ .

الوصايا التي يلزم بنو اسرائيل أن يعملوا بها حينما ذهب موسى لميقات ربه أمر أخاه هارون أن يكون نائبا عنه فيتولى أمر بني اسرائيل ويحرص على شئونهم أشد الحرص ، ولكن قوم موسى بعد غيابه عنهم تلك الفترة عبدوا العجل الذى أضلهم به السامرى ، بعد أن جمع الحلي الذهبية وصاغها على هيئة العجل بعد أن أخذ حفنة من تراب أثر حافر فرس جبريل فوضعها في فم العجل فصار له خوار ((واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين)) (٢) .

فلما رجع موسى الى قومه ووجد قومه يعبدون هذا العجل الذى أخرجه لهم السامرى ، غضب أشد الغضب ، وتألم أشد التألم ، وثار على أخيه هارون ثورة عارمة ، حتى أخذ برأسه وجذبه جذبا عنيفا ، ولامه على تركه هؤلاء الناس يستسلمون لصنيع السامرى ويعبدون شيئا لا يكلمهم ولا يهديهم ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، ومع أن هارون قد نصحهم في غيبة أخيه موسى ((ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمرى * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى)) (٣) ، مع موقف هارون هذا الا أن موسى

---

(١) صفوة التفاسير ـ الجزء الثامن : ٦٨ ، قال الرازى : قيل انه صار حيا وخار ، وقيل لم تحله الحياة وانما جعل فيه منافذ تدخل فيه الريح فيخرج له صوت يشبه العجل .

(٢) سورة الأعراف ـ آية : ١٤٨ .

(٣) سورة طه ـ آية : ٩٠ ـ ٩١ .

اشتد غيظـــه ولام هارون على هذا ((قال يا هارون ما منعك اذ رأيتهـــم ضـــلوا * ألا تتبعن أفعصيت أمرى * قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيـــــتي ولا برأسي اني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قـــولي))[١] ، وهكذا مع موقف هارون وموقفه تجاه بني اسرائيل ، الا أن موسى اشـــــتد غيظا ، واحتدم الأمر بينه وبين أخيـه هارون ، وما ذاك لشيء الا لشـــدة غيرته وحرصه على نشر دين الله ، فلا عبادة الا للـــه .

ولم يكتف موسى بذلك بل خاطب السامرى مقرعا ومعنفا ((قـــــال فما خطبك يا سامرى))[٢] ؟ أى ما الذى حملك عليه حتى ضلّلت النـــــاس بعبادة العجل ((قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرســـول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي))[٣] .

وهنا اشتد غضب موسى على السامرى حتى عاقبه عقابا صارمـــــا في الدنيا فهو لا يمس أحدا ((قال فاذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس)) ، وقد شدّد الله عليه العقوبة فله عذاب في اليـــوم الآخر ((وان لك موعدا لن تخلفـه)) ، ثم بعد هذا قال موسى للسامـرى ((وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا))[٤] .

---

(١) سورة طـه - آية : ٩٢ - ٩٤ .
(٢) سورة طـه - آيـة : ٩٥ .
(٣) سورة طـه - آيـة : ٩٦ .
(٤) سورة طـه - آيـة : ٩٧ .

ثم بعد هذا طمأن خاطر قومه فقال ((انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شيء علما))(١) .

وهكذا كان حدث العجل مثيرا لنفس موسى محركا لمشاعره ظنا منه أن في عبادة العجل ما قد يفيد أنه قد فشل في أداء رسالته ، وعجز عن الدعوة الى ربه حتى حرك نفوس بني اسرائيل ، ودعاهم الى العودة الى الرشاد ، فقال كما يستفاد من الآية ((واذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم))(٢) .

. . . . .

لقد تلاحمت عاطفة الايمان المتأججة في نفس خليل الله ابراهيم بعاطفة الأبوة وذلك حينما كانت رؤياه المنامية التي هي أمر الهي بذبح ولده ، فكانت استجابته لربه وامتثاله لأمر خالقه أقوى من أى شيء ، حتى قال لولده ((يا بني اني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين))(٣) .

ان عاطفة ابراهيم تنجلي تماما بهذه الآية القرآنية ، فالولد فلذة كبده والحرص عليه أمر جبلي في النفوس ، ولكن حبه لله يطغى على كل ما عداه مما يدل على قوة يقينه ، وخضوعه للحق عز وجل .

---

(١) سورة طه - آية : ٩٨ .

(٢) سورة البقرة - آية : ٥٤ .

(٣) سورة الصافات - آية : ١٠٢ .

وما أروع القرآن الكريم حينما يصور عاطفة الوالد وولده ، فيقول عز وجل ((فلما أسلما وتله للجبين)) أسلم الولد لأبيه ، وأسلم الوالد لربه ((وتله للجبين)) أى وصرعه على جبينه ((وناديناه أن يا ابراهيم * قد صدقت الرؤيا ، انا كذلك نجزى المحسنين)) .

لقد انكشفت خبايا النفوس ، وتجلت الحقائق ساطعة بهذا الابتلاء ((ان هذا لهو البلاء المبين)) حتى فاز خليل الرحمن برضى الله عنه بعد أن نجح في هذا الاختبار الرباني .

((وفديناه بذبح عظيم * وتركنا عليه في الآخرين * سلام على ابراهيم * كذلك نجزى المحسنين * انه من عبادنا المؤمنين * وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين * وباركنا عليه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين *)) (١) .

. . . . .

وما أروع تصوير العواطف النبيلة تجاه يونس عليه السلام ، فاذا كان الحوت قد التقمه وهو ملوم نفسه ، حيث انه قد ترك قومه مغاضبا لهم ، وخرج بغير اذن من ربه ، حتى انه وهو في بطن الحوت ظل يذكر ربه ويسبح بحمده ، وهو دليل على أنه ما ترك قومه استكبارا أو اعراضا عن اتمام الدعوة ولكنه تضجر منهم لعدم استجابتهم لداعي الحق عز وجل .

---

(١) سورة الصافات - آية : ١٠٧ - ١١٣ .

ان يونس عليه السلام رأى ان تركه لقومه ، وعدم صبره على استعلائهم ، جرم ما بعده جرم ، حتى انه اعترف بالخطيئة ، وأيقن بأنه ظلم نفسه ((لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين))(١) .

وهكذا سجلت تلك الآيات الكريمات لمحات عن عواطف يونس المشبوبة بحب الله ، الحريصة على رضا الله ، فلم تزده المحنة التي تمثلت في ابتلاع الحوت الا ايمانا فوق ايمان ، وذكرا لله فوق ذكر ، حتى استجاب لله ، وعفى عن زلته التي هي من باب " حسنات الأبرار سيئات المقربين " ((فلولا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه الى يوم يبعثون))(٢) .

وقصة يونس عليه السلام مع ورودها في سورة الصافات في لمحات سريعة ، وآيات قصار ، بما يمكن أن نسميه بالقصة القصيرة ، الا أنها ليست على شيء مما يصنعه أرباب القصة القصيرة في مجتمعنا العصري ، وكما يتحدث الناقد الأرجنتيني المعاصر " أندرسون أمبرت " عن حكاية قصيرة ما أمكن فيقول : " يضغط القصّاص مادته لكي يعطيها وحدة نغم قوية ، ويضع القصّاص النهاية فجأة ، والكل يترقب حل عقدته بفارغ الصبر "(٣) .

فالقصة القصيرة في القرآن الكريم وهي الاعجاز ، كل الاعجاز ، فوق المستوى البشري ، فهي ان مثلت العواطف المشبوبة بوحدة نغم قوية

---

(١) سورة الأنبياء - آية : ٨٧ .

(٢) سورة الصافات - آية : ١٤٣ - ١٤٤ .

(٣) القصة القصيرة - دراسة ومختارات د . الطاهر أحمد مكي : ٧٣ طبعة عام ١٩٧٨ م .

فليست على حساب تلاشي بعض أحداثها الهامة ، ومادتها التي هي ركن أساسي ، وانما فيها تسلسل وتتابع حتى تأتي النهاية نتيجة لتلك المقدمات .

وفي رأيي ان النقاد المعاصرين حينما وضعوا حدا للقصة القصيرة ومعيارا خاصا بهم ، لعلهم وضعوا نصب أعينهم ما حكاه القرآن من بعض القصص المحدودة الكلمات التي لم يطل أسلوبها ، ولم تكثر أحداثها حيث ان القصة القرآنية بهذا المفهوم اذا تأملناها ووعيناها وجدناها ثلة بالمعاني طيئة بالاشارات الخفية تذخر بالايحاءات الكثيرة ، وطاقتها قادرة على أن تفصح مع قصرها الطموس على كثير من الادراكات ، ومن ثمّ كان لها من الابداعات وقمة الفصاحة والثمرة الموفورة الشيء الكثير .

ان القصة القصيرة القرآنية تعين على فهم أسرار النفوس ، وتعرب عن العواطف المستورة ، وتترجم عن حدث يضفي على صاحبه البهجة أو الألم ، وبذلك كانت مع قصرها معبرة تماما حيث انها تلاشت ما يصنعه المحترفون من القصّاصين من التصنع في العبارة المضغوطة ، والاحتراز من الاسراف في الكلام ، ففرق بين المطبوع والمصنوع .

ان القصة القرآنية القصيرة لم تكن ضعيفة في نقل العواطف ، بل اتسمت بالقوة والتصوير الدقيق ، كما هو الحال في كثير من القصص القرآنية التي فيها شيء من التفصيل ، والتطويل الذى يناسب المقام ويقتضيه الحال .

وبذا كانت القصة القرآنية بجميع ألوانها وأطرافها على نسق واحد

من حيث اصابتها في نقل المواطف ، فلم تفتر في حين ، وتقوى في حين آخر ، وانما على خط واحد من السحر والجمال الأخاذ ، والاصابة التامة .

ولقد أثبت بعض الباحثين[1] أن القصّ القرآني الكريم جمع الكثير من المذاهب الأدبية الأجنبية المختلفة ، والتي يدعي أدباء الغرب أنهم اختلقوها واصطنعوها ، فالقصّ القرآني في حديثه عن الأنبياء والرسل يتناول عظام الشخصيات ، وهذه سمة المدرسة الكلاسيكية[2] .

والقصّ القرآني الكريم - كما تحدثنا في الباب الثالث ، الفصل الثاني - فيه تطور الشخصيات مع تعدد في الأماكن والأزمنة ، ووجدنا في قصة يوسف منظر الدم ، وهذه من خصائص المدرسة الرومانسية[3] .

واذا كان القصّ القرآني يجمع بين عالم الواقع الملموس ، وعالم

---

(١) القصة وتطورها في الأدب العربي للدكتور مصطفى على عمر : ٤٧ الطبعة الأولى .

(٢) الكلاسيكية : صفة تطلق على أى أدب يتميز بالميزات الآتية : الاتزان + الوحدة الفنية + تناسب الأجزاء + الاعتدال البساطة الوقورة ، وهي أصلا التمشي مع أدب قديم لا كلام الحياة اليومية .

(٣) الرومانسية : عبارة عن رد فعل وثورة ضد الكلاسيكية ، فهي نزعة أدبية تصور العاطفة ، وتعالج أحداث التاريخ الضخمة ، وتهين تعاطف القلب معها .

ما وراء الواقع ، فالمدرسة الرمزية (١) من حيث ازدواجية معناها تقترب من هذا المفهوم .

واذا كان الهدف الأساسي من القصّ القرآني توجيه الناس الى الحياة الطيبة الكريمة ، ودفعهم الى ما فيه الطمأنينة والرخاء ، فهو بذلك تقرب منه المدرسة الواقعية (٢) .

حتى كانت القصة القرآنية ينبوعا عذبا للانتاج الفني عند بعض الروائيين من مثل توفيق الحكيم (٣) ، الذى تناول قضية ذهنية ، وهي قضية الصراع بين الانسان والزمان ، ومحاولة الانسان دائما التغلب على عوامل الفناء والاحتفاظ لنفسه بالخلود والبقاء ، وذلك في مسرحية أهل الكهف ، ففي فصله الرابع نعود لنشهد أهل الكهف الثلاثة بداخل كهفهم بعد أن رجعوا اليه يائسين ، ونسمع حوارا خافتا بينهم يتحدثون فيه وقد حارت قواهم .

---

(١) الرمزية : عبارة عن معاني مندرجة تلمح من خلال السطور وثنايا الحديث ترمي الى معان قد تكون أخلاقية أو دينية . . . الخ ، غير المعنى الظاهرى لها .

(٢) الواقعية : عبارة عن كل فن يحاول أن يمثل الأشياء بأقرب صورة لها في العالم الخارجي .
راجع : معجم مصطلحات الأدب / للدكتور مجدى وهبة طبعة لبنان عام ١٩٧٤ م - (٧٠ - ٤٨٩ - ١٠ - ٤٦٧) .

(٣) الأدب القصصي والمسرحي في مصر من أعقاب ثورة ١٩١٩ م الى قيام الحرب الكبرى الثانية / أحمد هيكل : ٣٧٢ طبعة عام ١٩٧٩ م .

ويرى بعض الباحثين (١) أن توفيق الحكيم قد وفق في استغلال هذه القصة الدينية ، لأنها تقدم اليه الفرد الذى يسلم له المقدمات التي سوف يبني عليها قضيته الذهنية ، فهي قضية دينية تقدم معجزة ، وتدعو الى التسليم بها ابتداء ، وتريح المؤلف من عملية الفرض الذهني المجرد الذى لا تسانده معجزة ، والذى يحتاج الى اقناع .

وعلى هذا فالقصة القرآنية ما دامت مصيبة في نقل العواطف كل الاصابة ، والقصة عامة لم تؤد دورها كاملا ، الا اذا بلغت الغاية في ذلك فنقلت العواطف بكل دقة ، كان اعجاب الأدباء بهذا القّص القرآني ، ومن ثمّ اتخذوه مثلا أعلى ، وحاولوا أن يستقوا منه شيئا ، ويأخذوا منه جانبا بما أبدعوه من قصص رومانسية ، ومسرحيات رومانتيكية .

ولكنهم ان حاولوا أن يسيروا على الدرب سرعان ما بدأ اخفاقهم ، فلم يكن نسقهم على درجة واحدة ، وقوة متناهية .

ومن ثمّ كان القّص القرآني مع اشعاعه الفيّاض ، ونبراسه المضيء ، الا أن في محاكاته ما يشق على أهل المراس ، ويصعب على أهل الدربة ، حتى أطنوا العجز ، فأشادوا بسحر القصة القرآنية الخلاب ، وقوتها التي هي فوق الطاقة البشرية .

---

(١) الأدب القصصي والمسرحي في مصر من أعقاب ثورة ١٩١٩ م الى قيام الحرب الكبرى الثانية / أحمد هيكل : ٣٨١ - طبعة عام ١٩٧٩ م .

ولو تأملنا لقصة سليمان في سورة ص في قول الله عز وجل ((ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب * اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد * فقال اني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب * ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والأعناق *))[1] .

لو تأملنا لتلك الآيات الكريمات ، لأحسسنا تماما بمواطف سليمان المشبوبة بحب الله ، الحريصة على الامتثال لأمر الله ، حيث انه توهم أن حب الخيل شغلته عن ذكر الله .

ويذكر بعض المفسرين[2] أنه عرضت عليه آلاف من الخيل تركها له أبوه . فأجريت بين يديه عشيا ، فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها عن ذكر له خاص ، حتى غابت الشمس ، واختفت عن الأنظار ((فقال اني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب)) وحينئذ اك طلب أن ترد عليه تلك الخيول التي شغلته عن ذكر الله ، فشرع يذبحها ويقطع أرجلها تقربا الى الله لتكون طعاما للفقراء ، لأنها شغلته عن ذكر الله .

قال الحسن لما ردت عليه قال : لا والله ، لا تشغليني عن طاعة ربي ، ثم أمر بها فعقرت .

ويذكر أنه ضرب أعناقها بالسيف ونحرها لأنها شغلته عن طاعة

---

(١) سورة ص - آية : ٣٠ - ٣٣ .

(٢) صفوة التفاسير للصابوني - الجزء الرابع عشر : ٣٧ .

الله ، ولذا عوضه الله ما هي خير منها ، وهي الريح التي هي أسرع من الخيل ، انها آيات قرآنية تجلي حقيقة ايمانه ، وتدل دلالة قاطعة على عواطفه التي تخضع لله ، ومن ثمّ تقرّب بتلك الخيول التي ظن أنها صرفته عن ذكر الله .

وفي قول الله عز وجل في قصة أيوب ((وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب (١))) ، ما يمثل عاطفة المرأة الضعيفة ، فاذا اشتد البلاء ، وطال المرض على الزوج قد تفتر همتها ، وتضعف وتقل خدمتها تجاه زوجها ، فان صبرها قد ينفد حينما تراه في حالة ضعفت فيها همته .

فلقد ذكر المفسرون (٢) ان أيوب عليه السلام قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط اذا برئ من مرضه ، وسبب ذلك أنها كانت تخدمه في حال مرضه ، فلما اشتد البلاء ، جاءت الى أيوب وفي نفسها الضجر ، فقالت له : الى متى هذا البلاء ؟ فغضب من هذا الكلام وحلف ان شفاه الله أن يضربها مائة سوط ، فأمره الله أن يأخذ حزمة من قضبان خفيفة فيها مائة عود ، ويضربها بها مرة واحدة ، ويبر في يمينه .

---

(١) سورة ص - آية : ٤٤ .

(٢) صفوة التفاسير للصابوني - الجزء الرابع عشر : ٣٩ .

ان تلك الآية الكريمة تمثل حال أيوب مع زوجه ، وتكشف عن المرض الذى طال مداه ، ولكنه صبر على قضاء الله ، حتى كشف الله عنه الغمة ، وأزال عنه الكرب ، فأثنى عليه عز وجل ((نعم العبد انه أواب)) .

. . . .

وفي قصة هود في سورة الأحقاف ما يفيد أن هناك بعض النفوس المتحجرة ، لأن عواطفها جامدة لا تلين ، وعقولها مغلقة لا تستجيب ، فلقد أنذر هود قومه وهم مقيمون بالأحقاف ، التي هي تلال عظيمة من الرمل في بلاد اليمن (١) ، ودعاهم الى عبادة الله حتى لا يلحقهم عذاب يوم عظيم ، فبدلا من أن يستجيبوا له ، ظنوا أنه ما جاء الا ليصرفهم عن عبادة الأصنام ، وطلبوا منه أن يأتي بالعذاب الذى يتوعدهم به ان كان صادقا في قوله ، ولكن نبي الله أفهمهم أن وقوع العذاب بتقدير الله ، وظل هؤلاء القوم مصرين على عبادة الأوثان ولم يستجيبوا لنداء الحق عز وجل حتى عجل الله لهم العقوبة حسبما طلبوا تعجيلها ((فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا (٢))) ، ظنوا أن السحاب الذى فوقهم ما كان الا ليمطرهم

---

(١) راجع : صفوة التفاسير للصابوني : ١٢ من الجزء السادس عشر .

(٢) سورة الأحقاف ـ آية : ٢٤ .

وقد قحطـوا مدة طويلة من الزمن ، ففرحوا بـه واستبشروا ، ولكن اللـه عز وجـل بيكتهم ، وبين لهم أن الأمـر ليس كما زعموا بأنه مطر وبشـارة خير ، بل هو ريح عاصفـة مدمـرة ، حتى أصبحوا بها هلكى ، لا تـرى الا مساكنهم ، لأن الريح لم تبـق منهم الا آثارهم وديارهم خاويـة ((واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديـه ومن خلفه ألا تعبـدوا الا اللـه ، اني أخاف عليكم عذاب يوم عظـيم * قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ، فأتنا بما تعدنا ان كنت مـن الصادقين * قال انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت بـه ، ولكـني أراكم قوما تجهلون * فلما رأوه عارضـا مستقبل أوديتهم قالـوا هـذا عارض ممطـرنا ، بل هو ما استعجلتم بـه ، ريح فيها عذاب ألـيم * تدمر كل شـيء بأمر ربهـا ، فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم ، كـذلك نجزى القوم المجرمين))(١) .

بقراءة تلك الآيات الكريمات ، يستبين لنا مدى تحمـل هـود في سبيل نشر دعوتـه ، وكيف أنه كان حريصا على أن قومه يستجيبون له ولكن قومـه كانت عواطفهم خامـدة ، وقلوبهـم لا تلين لذكر اللـه ولا تستجيب لنداء الحـق ، حـتى ان الدعـوة لا تؤثـر فيهم ، والحكمة لا تنفعهـم .

---

(١) سورة الأحقاف ـ آية : ٢١ ـ ٢٥ .

ومن ثمّ كانت نهايتهم الهلاك والدمار ، فلو رقت قلوبهم واهتزت مشاعرهم ، فاقتنعوا بكلام هود نبي الله عليه السلام لما حدثت فيهم تلك الريح التي عذبوا بها ، حتى أبادتهم ، فكان ذلك جزاء موفورا ، وكما يقول العزيز الجبار ((كذلك نجزى القوم المجرمين)) .

وفي الحقيقة ، انني أرى ما يراه النقد[1] الحديث ، بأن القصة ذات العواطف القوية التي تتمثل في شخصياتها الروائية تكون قصة رائعة ممتعة ، تجلي الحقائق كاملة .

وهذا ما نلمسه في نقل عواطف القصة القرآنية ، فهي تكشف عن الجوانب الانسانية ، وتنقل الأحاسيس الداخلية بكل دقة واحكام ، كما أبنّا عن ذلك كثيرا عند حديثنا عن الشخصيات في القصة القرآنية .

ومن الاعجاز الواضح في القصة القرآنية ، أنها في جميع عواطفها تمتاز بالروعة ، وقوة التعبير عن الخلجات ، فلا فرق بين تصوير العواطف الأليمة ، كعاطفة فرعون عند غرقه ، وبين العواطف التي تنبيء عن نفس متبرمة ، أو تحس بضيق وعدم ارتياح نفسي ، كما حدث لموسى عند رجوعه الى قومه ، فوجدهم قد عبدوا العجل ومثل العواطف الدالة على الارتياح النفسي ، والوصول الى الغاية

---

(١) أصول النقد الأدبي - أحمد الشايب : ١٨١ - طبعة عام ١٣٧٣ هـ .

النبيلة التي هي الأمنية ، فجميع جوانب القصة القرآنية تسير على وتيرة واحدة ، لا فرق بين اثارة عاطفة وعاطفة ، وتصوير مشاعر نفس ومشاعر أخرى .

فالقصة القرآنية تسير في جودتها المحكمة ، وطولها الذى لا يطاول ، واعجازها الذى لا يدانى ، على نسق واحد .

* * *

* *

*

الفصل الثالث

قوة الاحكام والربط

وفي قصة الملكين هاروت وماروت يقول تعالى ((وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر))(١) ، وفي هذه الآية نرى أن نهايتها ترتبط تماما بالمقصود من آية السحر كلها ، وذلك لأن السحر وان حدث وصار أمرا واقعيا ، الا أنه بلاء ما بعده بلاء ، واستعلاء قد يخدع المرء ويحيله الى حياة البطش والطغيان على عباد الله .

ومن ثمّ فالملكان وهما هاروت وماروت بمملكة بابل بأرض الكوفة اللذان قد أنزلهما الله اختبارا للناس لا يعلمان أحدا من البشرية السحر حتى يوجهاه الى الخير ، ويقدما له النصائح السديدة .

فأنت أيها الانسان اذا تعلمت منّا السحر ، فنوصيك بعدم الغرور والطغيان والافتراء والاستكبار والايذاء ، فلا تضر بسحرك أحدا ، ولا تؤذ بما تعلمته مخلوقا ، ولا يكن هذا السحر سببا في انصرافك عن عبادة الله عز وجل .

فالتعبير القرآني نرى فيه الارتباط التام ، والاحكام الصائب ، فان ظن قوم أن السحر وان حدث على عهد سليمان عليه السلام فهو أمر

---

(١) سورة البقرة ـ آية : ١٠٢ .

جائـز ، ولكل انسان أن يستعمله ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فجـاءت الآيـة الكريمة تقصّ علينا نبأ السحر ، وكيف ان الشياطين خرجوا عـن المألـوف في عهد سليمان ، فكفروا ، وما كان سليمان ساحرا كافـرا بتعلمه السحر ، لأن سحره لم يكن تلبيسا ولا خلطا ولا افتراء ، عـلى نقيض الشياطين الذين خلطوا وأوهموا وألبسوا وأضافوا وادعوا وحـاولوا أن يعلموا الناس حتى يشوهوا دينهم ويشيعوا الخرافات بين مجتمعاتهـم ونسوا أن سحرهم هذا ، وقد علّموه الناس ، ضلالة ما بعدها ضلالـة ، وفتنـة ما بعدها فتنـة .

. . . . .

وفي قصـة سليمان مع بلقيس ((فلما جاءت قيل أهكذا عرشـك قالت كأنـه هو (١))) ، نرى أن التعبير بهكذا عرشك تعبير محكم ، حيـث لم يقل أهـذا عرشك ؟ .

لأنه لو قال هذا عرشك كأنه يلقنها القول ، ويدعوها الى الاقـرار بأنه عرشها ، أو على الأقل يشعرها بأنه يرى أن هذا عرشها ، وان خالفت هذا الـرأى .

ولكن التعبير بقوله ((أهكذا عرشك)) ؟ تعبير فيه تجـرد وكأنه يحطها على الفكر المستقل ، والتأمل الثاقب في هذا العرش الـذى أمامها حتى تمعن النظر فيكون قولها الفصـل .

---

(١) سورة النمل ـ آية : ٤٢ .

وفي قصة هـود مع قومه ، وهو يدعوهم ويجادلهم ، قال تعـالى ((ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونـه شيئا))[١] ، من الأساليب الخبرية التي تفيد الوعيد لهؤلاء المكذبين ، حيث انهم لما لم يؤمنوا بالرسـالة ، ويكفوا عن ايذائهـم ، سيهلكهم الله عز وجل كما أهلك غيرهم .

كما أن هذا الأسلوب الخبرى يمثل قدرة الله عز وجل البالغـة وعظمته الخالدة ، فهم ان أهلكوا فمن السهل عليه أن ينشـأ جيـلا جديدا ، وطائفـة سمت نفوسها ، وتهذبت طبائعها ، وارتقت فـي تفكيرها ، فلقد لاذت الى الفكر السامي ، واعتقدت بالخالق الصـانع فصدقت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وآمنت برسالته ، واعتقـدت أن ما يلّقيـه هو من عند الله سبحانه وتعالى .

ومن هذا فمن يطع الرسول لن يزيـد العدد كثرة ، طالمـا أن الله قادر على أن يخلق مثله ، ويوجد قوما وصلوا الى العدد الغفـير الذى وصلوا اليه ، كما ان طاعتهم لا تنفع الحق عز وجل ، ولا تضـره ، فهم ان عصـوه ، ولم ينصاعوا لرسـوله ، لم يكتسب منهم جلب منفعـة ، كما قد يظن ، حيث يقول ((ولا تضرونـه شيئا)) .

أو كما يقول الحق ((ان تكفروا فان الله غـني عنكم ولا يرضـى لعباده الكفر وان تشكروا يرضـه لكم))[٢] .

---

(١) سورة هـود ـ آيـة : ٥٧ .

(٢) سورة الزمـر ـ آيـة : ٧ .

أما عن التذييل بقوله ((ان ربي على كل شيء حفيظ))[١] فلقد قوى هذا الوعيد ، وأبان عن مكرهم ، وسوء طويتهم ((ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين))[٢] ، فما يبيتون به من ايذاء الرسل ومقتهم وتكذيبهم ، ونيتهم السيئة ، واتجاهاتهم الزائفة ، وحجتهم الواهية وما يخيلونه من سراب خدّاع ، ومظهر برّاق ، وفتن مدمرة ، وآراء فاسدة أحاط الله عز وجل بكل وقائعها ، حتى علم خفاياها ، صغيرها وكبيرها ، ومن ثمّ فتكون نهايتهم المخزية ، وعاقبتهم الوخيمة ، ففي النهاية يحفظ الله عز وجل هودا من شرك قومه ، وسوء مكرهم .

. . . . .

وفي قصة صالح مع قومه ثمود ((قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، هو أنشأكم من الأرض))[٣] ، تفيد أن الأرض كانت خرابا يبابا من بني الانسان قبل أن يوجد الله عز وجل فيها آدم عليه السلام ، وبعد أن أوجد الله عز وجل آدم وذريته ، عمّروا ذلك الخراب ، وأزالوا تلك الوحشة ، وهذا من شأنه أن يدعو الانسان الى عبادة الله ، والرجوع اليه ، فما كان هذا العمار في الأرض ، والخلقة الانسانية الا لتعبد الله ، وتخلص له الدين ، وتنصاع لأوامره ،

---

(١) سورة هود - آية : ٥٧ .

(٢) سورة الأنفال - آية : ٣٠ .

(٣) سورة هود - آية : ٦١ .

وتستجيب لشرعه الحنيف ((وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون))

ومعنى ذلك أن تلك العبارة تتوافق تماما مع الأسلوب الذى وجهه صالح الى قومه ، ولربما ان ذلك كان أدعى الى استجابتهم وأقرب طريق يوصلهم الى الله ، حيث انهم اذا لمحوا سر الخليقة استجابوا لموجد الخليقة ، ومودع السر فيها ، وبذلك يتركوا عبادة الأصنام التي لم تخلق انسانا من التراب ، ولم توجده من العدم .

وقوله تعالى ((ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب))(١)

وكلمة " مسّ " أدخل في الاصابة ، لأنها تفيد المباشرة الفعلية ، تلك المباشرة الفعلية التي تتناسب مع ما صنعوه مع الناقة ، حيث انهم أصابوها اصابة فعلية ، وذلك بعقرهم لها .

وعلى هذا فالنهي عن المسّ بالسوء كان صائبا كل الاصابة حيث انه يدل على أن هؤلاء الكفرة صموا على عقرها ومسها بهذا السوء ، ولو قيل في غير القرآن " ولا تعتدوا عليها " لما أفادت هذا المعنى ، فالاعتداء كلمة عامة تشمل المسّ وعدم المسّ والمباشرة الحسية وعدم المباشرة الحسية ، وعلى هذا لا تفيد المعنى المقصود في الآية

---

(١) سورة هود - آية : ٦٤ .

وهو المباشرة الفعلية الذى حدث عن طريق العقر ، وخصوصا ان المسّ المعنوى لا يتأتى مع الحيوان الأعجمي كالناقة ، وانما يتأتى مع الحيوان الناطق فحسب ، فقد يمس الانسان بأمر معنوى فيلحق به السوء ، ولكن هذا الحيوان الأعجمي لا يمكن أن يمس بأمر معنوى وعلى هذا لا يكون المسّ في جانبه الا مسّا حسيّا ملموسا ، فكانت اللفظة القرآنية معبرة تمام التعبير ، مصيبة تمام الاصابة ، موحية بكل قصد ، مشيرة الى مقاصد الآية الكريمة .

أما تذييل الآية فيدلّ على الوعيد الشديد ، هذا الوعيد الشديد الذى كان مبعثه مخالفة الأمر الالهي ، فاذا نهو عن مسّ الناقة ، فانهم سيمسونها ، وانما كان الوعيد قويا ، لأن العذاب لن يبطيء ، والعقوبة لن تمهل ، وانما يأتيهم العذاب بغتة ، وتفاجأهم العقوبة عن قرب ، فلن يطول انتظارهم ، ولن يتمهل جزاءهم ، وهذا كله يدل على عظم المخالفة ، وشدة الجرم الذى ارتكبوه ، فقد يمهل الله الظالم ، ولم يتعجل عقوبته ، لعله ان يتوب عن غيّه ، فيرجع الى رشده ، ولكن الذين خالفوا أمر الله سبحانه وتعالى ، فمسّوا الناقة بسوء لن يمهلهم الله سبحانه وتعالى ، ولن يسكت على صنيعهم ، كما هو الحال مع غيرهم ، وانما يباغتهم بالجزاء ، ويقضي عليهم بالعقوبة ، مما يدل على عظم المخالفة ، وقوة الجرم ، وتمادي بهم في العلو والاستكبار ، وقد تحقق وعد الله ((فعقروها فأصبحوا نادمين *

فأخذهم العذاب ، ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١) .

وفي قول الله عز وجل ((هذه ناقة الله لكم آية (٢))) ، نرى نسبة الناقة الى الله سبحانه وتعالى ، ولا شك أن هذه النسبة التي دلت عليها الاضافة متناسقة تماما مع المعنى المطلوب .

فهذه النسبة دلت على عظيم شأن الناقة ، وأن لها من المزايا ما ليس لغيرها من النياق ، ولا شك أن هذا تصوير للواقع ، حيث ان هذه الناقة خلقها الله عز وجل على خلاف المألوف في خلق سائر الابل ولم نسمع أن هناك ناقة تختص يوما بالشرب ، وأصحاب ذلك الماء يختصون بيوم آخر ، حتى ان هذه الناقة كانت تعرف اليوم الخاص بها على غير عادة الحيوان الأعجمي ، ومن ثمّ هي لا تقرب الماء في غير يومها وهذا هو المفهوم من قول الحق عز وجل ((ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر (٣))) ، هذه ناقة لها شرب ، ولكم شرب يوم معلوم فاضافة الناقة الى الحق عز وجل اضافة تدل على ما لها من مزايا اختصت بها دون غيرها .

---

(١) سورة الشعراء - آية : ١٥٧ - ١٥٨ .

(٢) سورة هود - آية : ٦٤ .

(٣) سورة القمر - آية : ٢٨ .

ومن الاحكام الواضح في القصص القرآني ، أن محاجة ابراهيم عليه السلام لقومه ، فيها تدرج للوصول الى الحقيقة الثابتة ، فقد ألزمهم الحجة بقوله ((أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم * أف لكم ولما تعبدون))(١) ، ولكنه انتقل معهم في محجته من مرأى الى مرأى ، ومن مشهد الى مشهد ، وذلك واضح فيما نراه من الآيات التي تصور محاجة ابراهيم عليه السلام .

على أن ابراهيم عليه السلام حينما وصل الى الحقيقة الثابتة ، وشهد للمولى عز وجل ، أراه الله من آياته ما به يرى أنه لا وجهة الا للذى فطر السموات والأرض ، فكان الوصول الى هذا وصولا فيه مشاهدات عينية وانتقالات كونية ، كما يتضح من قول الحق عز وجل ((وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الأفلين * فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون))(٢) ، فهو حين التفت الى النظر في المعبودات التي كان عليها أهل الشرك لم تعجبه الأصنام ، فخيّل اليه أن النجم هو الاله ، فلما رآه يغيب لم يقتنع به ، فلما شهد القمر

---

(١) سورة الأنبياء - آية : ٦٦ - ٦٧ .

(٢) سورة الأنعام - آية : ٧٥ - ٧٨ .

ساطعا نظر اليه ، فلما غاب عنه تركه وانتقل الى نور الشمس ، فلما أفلت برىء من عبادة هذا كله فقال ((اني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين))(١) .

وأى احكام أشد من قصة ابراهيم التي ارتبطت تماما بأحداث قوم لوط !

يقول الحق تبارك وتعالى ((ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى))(٢) هؤلاء الرسل وان جاءوا ببشارة ابراهيم ، فانهم سيذهبون الى قوم لوط لكي ينكلوا بهم أشد تنكيل ، فلما علم ابراهيم هذا النبأ جادل الرسل في قوم لوط ، فكان الجواب ((يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك ، وانهم آتيهم عذاب غير مردود))(٣) .

لقد جاءت الرسل تبشر ابراهيم عليه السلام باسحاق ويعقوب ، فلما اطمأنت نفسه اليهم ((قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين * لنرسل عليهم حجارة من طين * مسومة عند ربك للمسرفين *))(٤) ، وقد كان لوط ابن أخي ابراهيم .

فالملائكة ان أخبروه بالانتقام من قوم لوط ، خاف ابراهيم أن يمس نبيهم لوط بشيء من الأذى ، حتى جادلهم في ذلك ، ولكن

---

(١) سورة الأنعام - آية : ٧٩ .

(٢) سورة هود - آية : ٦٩ .

(٣) سورة هود - آية : ٧٦ .

(٤) سورة الذاريات - آية : ٣١ - ٣٤ .

وعد الله لا بد من نفاذه .

((ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب)) (١) .

وهنا تظهر قوة الاحكام والربط ، فان هؤلاء رسل الله الثلاثة على ما يقال ، وهم من الملائكة الذين ذهبوا الى لوط لكي ينتقموا من قومه الذين آتوا في ناديهم المنكر ، وابتدعوا المنكرات ما لم يصنعه أحد من عباد الله ، حتى أتوا الذكران من العالمين ، وتركوا النساء يعملون ذلك بدون خفاء ، ومع أن لوطا نصحهم ودفعهم عن ذلك كله الا أنهم لم يرتدعوا ، بل هددوه بالرجم والاخراج من بينهم .

ذهبت رسل الله وهم الملائكة الى هؤلاء القوم في صورة غلمان حسان ، وبدلا من أن يرجعوا بهؤلاء الضيوف طلبوا من لوط أن يقدم اليهم هؤلاء الضيوف ليفعلوا بهم ما اعتادوا عليه من فاحشة منكرة ، وقد حاول لوط أن يقنعهم ويردعهم عن غيهم حتى قدّم اليهم بناته على أن يتركوا هؤلاء الضيوف الذين هم في حاجة الى تمجيد وتكريم ، ولكنه لم يفلح ، فقال لوط ملتفتا الى رسل الله ((لو أن لي بكم قوة أو آوى الى ركن شديد)) (٢) ، على معنى لو كنت أستطيع أن أوقع بهم العقوبة لأوقعت بهم ، ولن يكون ذلك الا اذا استعنت بكم أو التجأت الى ركن

---

(١) سورة هود - آية : ٧٧ .

(٢) سورة هود - آية : ٨٠ .

قـوى شديد ، وكان لوط حينئذ اك لا يعلم أنهم ملائكـة جاءوا رسـلا من عند الله ، ولكن ملائكة الله الذين أخبروا ابراهيم بالبشـارة أولا ، وأخبروه بأنهم أرسلوا الى قوم مجرمين ، لكي ينكلوا بهم ثانيا ، كشفوا عـن حقيقة أمرهم ، وأعلنوا أنهم ملائكة الله سبحانه وتعالى جاءوا للتنكيـل بقوم لوط ((ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هـذا يوم عصيب * وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيئـات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكـم فاتقوا الله ولا تخـزون فـي ضيفي أليس منكم رجل رشيـد * قالوا لقد علمت ما لنا في بناتـك من حـق وانك لتعلم ما نريـد * قال لو أن لي بكم قوة أو آوي الـى ركن شديد * قالوا يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك فأسر بأهـلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك انه مصيبها ما أصابهـم ان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليهـا سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هـي من الظالمين ببعيـد))(١) .

وهكذا لسنا الاحكام والربط بين الرسل التي جاءت ببشـارة ابراهيم عليه السلام ، وبين محـق قوم لوط وامطارهم بالحجارة التي هـي من سجيل منضـود ، وقراهـم التي جعل الله سبحانه وتعالى عاليهـا سافلها ((فنجيناه وأهله أجمعين * الا عجـوزا في الغابريـن *

---

(١) سورة هـود - آية : ٧٧ - ٨٣ .

ثم دمرنا الآخرين * وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين *))[1] .

ثم ان طلب قوم لوط هؤلاء الرسل الثلاثة الذين هم كالغلمان المرد ، ومحاولة الاعتداء عليهم ، جعل القصة القرآنية في هذا المجال تشعر باستحقاقهم العذاب ، وكأن الله تبارك وتعالى وضّح لنا أنهم ما استحقوا هذا النكال الا بسبب حرصهم على الفاحشة باتيانهم الذكور ، حتى ان ملائكة الله سبحانه وتعالى ، الذين أرسلوا لعذابهم ما سلموا من شرهم ، فلقد حاولوا أن ينالوهم بسوء وهم في صورة البشر ، وعلى هيئة الغلمان ، فكان عذابهم عدلا ، والتنكيل بهم شيء يستحقونه .

. . . . .

والتعبير القرآني في قصة يوسف عليه السلام ((ولقد همّت به وهمّ بها))[2] ما يفيد أن امرأة العزيز همّت بيوسف ، لا يصرفها عنه صارف ، ولا يمنعها عنه دافع ، والتعبير بقوله ((وهمّ بها)) ما يفيد أنه بحكم طبيعته البشرية ربما أنه مال اليها ، وهنا يظهر السؤال اذا كانت في هذا الموقف المريب ، ويوسف الصديق له طبيعة بشرية قد أصلت عليه أن يسير في هذا الركب الزائف ، فكيف ينصرف عنها ، فتأتي اللفظة القرآنية ((لولا أن رأى برهان ربه)) لتفيد

---

(١) سورة الشعراء - آية : ١٧٠ - ١٧٣ .

(٢) سورة يوسف - آية : ٢٤ .

بأن همّ يوسف الذى هو بداية الأمر ظللته رعاية الله عز وجل ، حيث انه لمح الأمارات القاطعة ، والدلائل الناصعة ، فكان خوف الله حافظا ومانعا له من أى تسلط شرير ، فان همّت نفسه بسوء استطاع بقوة الايمان ، وبالعقيدة الراسخة ، أن يكبح زمام نفسه ، ويقيد هواه ، فلا انزلاق لشيطان ما دام الله سبحانه وتعالى أمام ناظريه ، وما دامت رعاية الله تحيط به ، فالتعبير القرآني بقوله ((لولا أن رأى برهان ربه))(١) بعد الهمّ ، فيه قوة احكام ، والاّ لحارت النفوس ، وكثرت التساؤلات ، وحارت العقول في فهم هذه الآيات والمعاني الكريمة .

---

(١) برهان ربه : مراقبة الله تعالى ، وتجليه عليه بالعصمة .

وقال أبو السعود : ان همّه بها بمعنى ميله اليها بمقتضى الطبيعة البشرية . هذا من باب المشاكلة ، وهي : الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ، فالهمّ منها كان همّ عزم وقصد ، والهمّ منه كان حديث نفس .

راجع : صفوة التفاسير ـ الجزء السادس : ١٣ .

وقيل : همّت به جلبا ، وهمّ بها دفعا .

وفي قصة يوسف ((واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر [1])) محكمة تمام الاحكام ، لأنها أوصلت الى براءة يوسف أمام العزيز ، وكأن هذا المنطوق الالهي بمثابة مقدمة لنتيجة هامة ، قد ترتب عليها وضع الأمر في نصابه ، واحقاق الحق ، ومن ثمّ استبان كذب امرأة العزيز وادّعائها الباطل ، وصدق يوسف الأمين .

فمن الثابت أن يوسف وامرأة العزيز قد تسابقا نحو باب القصر يوسف هاربا من الوقوع في الاثم ، وامرأة العزيز ما تسابقت الا لكي تطلبه وتضه الى صدرها ، وتوغر صدره ، حتى يستجيب لطلبها ، ولكن يوسف الصديق عليه السلام أسرع في مشيته ، فلم تستطع أن تلحقه ، حتى شقت ثوبه من خلف ، فكانت المفاجأة ان كان زوجها العزيز عند باب القصر ، وبدلا من أن تحكي حالها ، وتصف عواها على الحقيقة ألصقت التهمة الكاملة في يوسف الصديق ، فقالت لزوجها ((ما جزاء من أراد بأهلك سوءا الا أن يسجن أو عذاب أليم)) ، مع أن يوسف الصديق نطق كلمة الحق ، وأبان عن الواقع فقال ((هي راودتني عن نفسي [2])) ، الا أن الأمر لم ينكشف تماما أمام العزيز الا اذا كانت هناك حجة بعيدة عن اقرار الجاني والجني عليه ، فالخصم والحكم في آن واحد شيء لا يقبله العقل ، ومن ثمّ شهد شاهد من أهل

---

(١) سورة يوسف - آية : ٢٥ .

(٢) سورة يوسف - آية : ٢٦ .

امرأة العزيز ، وكان طفلا صغيرا أنطقه الله لكي يظهر الحقيقة فيكون أوثق لبراءة يوسف لكونه من أهلها ، وعلى ما يقال ابن خالها (١) لقد وضع ميزانا هو الفيصل في الأمر ، والحجة البالغة في اظهار الحق ، فان كان ثوب يوسف قد شق من أمام فهو كاذب في قوله وهي صادقة في دعواها ، حيث ان شق القميص من الأمام دليل على أنه هو المقبل عليها ، فهي تدافع عن نفسها بذلك ، وان كان الثوب قد مزق من الخلف فهو صادق في قوله وهي كاذبة في دعواها وذلك لأن الجذب من الخلف يدل على أنها هي الطالبة له ، وهو المعرض عنها .

وعلى هذا فمقدمة الآية الكريمة ((واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر)) كانت صائبة تمام الاصابة ، مرتبطة بالمعنى تمام الارتباط .

ومن ثمّ لما رأى العزيز أن قميص يوسف قد قدّ من دبر أيقن تماما أن ذلك من صنع النساء فقال ((انه من كيدكن ان كيدكن عظيم (٢))) .

---

(١) صفوة التفاسير للصابوني - الجزء السادس : ١٤ ، طبعة دار القرآن / بيروت .

(٢) سورة يوسف - آية : ٢٨ .

وفي قصة يوسف ((وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حبا ، انا لنراها في ضلال مبين [1])) ، نرى أن موقف النسوة من امرأة العزيز من حيث التشنيع عليها ، لأن حبها ليوسف مسّ شغاف قلبها ، فهن يرونها في ضلال مبين ، نرى أن هذا المنطوق القرآني الذى يفيد شماتة النسوة وحرصهن على اشاعة السوء ، يناسبه تماما أن يتحدث القرآن الكريم عن شعور تلك النسوة وموقفهن حينما يقمن في شيء مما وقعت فيه امرأة العزيز من مراودة يوسف ، ومشاهدة جماله الأخاذ ، وخلقته التي تجذب الأفئدة ، لكي يثبت القرآن أن فتنة امرأة العزيز انما هي فتنة فوق الطاقة ، حيث ان من لا موها شهدن بما ليوسف من طلعة هي فتنة للناظرين ، فهو فوق المألوف من البشر ((فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم [2])) ، ففي الآية الكريمة ((أعتدت لهن متكئا)) ما يفيد أنهن جلسن جلسة فيها طمأنينة ، وكون امرأة تعطي كل واحدة منهن سكينا لكي تقطع بها ما قدم لهن من ألوان الطعام اللائي تقدم للضيوف .

---

(١) سورة يوسف - آية : ٣٠ .

(٢) سورة يوسف - آية : ٣١ .

ثم بعد ذلك يخرج يوسف عليهن ، وبدلا من أن يقطعن أنواع الفاكهة ليأكلنها ، قطعن أيديهن ، كل هذا يدل على أنهن قد بهتن من جماله ، وذهلن من اشراقة وجهه ، وطلعته التي فاقت البشرية جمعاء .

ومن ثمّ بينما هن يجلسن في أمن وطمأنينة على المتكأ اذ تصرفن تصرفا فيه وحشية ، مما يدل على سلب عقولهن ، وضياع تفكيرهن فكانت الآية الكريمة بتذييلها الذى قد يوحي برجوعهن عن بدأ التشنيع ولوم امرأة العزيز ((وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم)) .

حتى ردت امرأة العزيز أنفاسها ، وتعالت صيحتها ، فقالت قولتها ((فذلكن الذى لمتنني فيه))(١) .

وهكذا نرى احكام الربط ، واحكام العبارة المكينة ، والاتصال الوثيق ، فهو قول متصل الحلقات ، مترابط البنيان ، متآزر المعاني يشد بعضه بعضا .

وأما قوله ((ذلكما مما علمني ربي)) فيه دفع التباس ، وازالة شك ، حتى لا يتهم نبي من أنبياء الله بما حرمته الأديان السماوية فقال ((ذلكما مما علمني ربي))(٢) ، على معنى أن ما برع فيه من

---

(١) سورة يوسف - آية : ٣٢ .

(٢) سورة يوسف - آية : ٣٧ .

تفسير الأحـــلام حينما كان في السجن ، وقد تحقق بتفسيره ، وصدق تعبيره ، ليس من باب الكهانة أو الاطلاع على الأمور الغيبيـة أو التنجيم أو الخرافات ، وانما هي من الفيوضات الالهيـة ، والنورانيات الربانيـة الشرقة ، فان الله تبارك وتعالى يوحي اليه بهذه المعاني ، ويلهمـه بهـذه التفسيرات المنامية ، وعلى هذا فلا يتهم بريبـة ، لأنه وقع فـي محظور محرم ، وقد يصرف عن نفسه شبهة أخرى ، وهو أنه وحده الملهـم ووحـده الذى يفيض الله عليه باشراقاته ، ووحده الذى ينبغ في تفسـير الأحـلام ، يدفع عن نفسه هذه الريبات كلها فيرى أن الله ما يخـص أحدا من خلقه بفضل ويعطيه نعما ، فيفتح عليه من ملكه وملكوتـه الا بعد أن يذل نفسه لله ولا يخضع لأحد الا له ، ومن ثمّ يعقب على ذلك فيقول ((اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون *))(١)

ثم يزداد يوسف في خضوعه لله ، فتكون نصيحته لصاحبيه في السجن ، وتوجيهه لهما ((يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله

---

(١) سورة يوسف - آية : ٣٧ - ٣٨ .

أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١))) .

وهكذا استعرض حججه الدالة على وجود الله سبحانه وتعالى ، وسلطانه وقوته ، حتى يشعر وعظه ، وهكذا نرى قوة الاحكام والربط في هذه الآيات .

وأما قوله ((يوسف أيها الصديق (٢))) ، فالذى نجا من السجن مع يوسف وهو الساقي ، لكي يعبر له رؤيا الملك ، نرى أنه قبل أن يطلب منه تعبير الرؤيا قدم الثناء على يوسف بقوله ((أيها الصديق)) قبل أن يسأله ، ولا شك أن ذلك فيه تطييب لخاطر يوسف ، وتهيئة نبيلة ، حتى يجيبه على سهل ، ويعطيه التفسير الصحيح بنفس راضية ، وروح طيبة ، وليس معنى ذلك أنه خلع عليه الثناء جزافا ، طمعا في أن يكسب نواله ، أو يحصل على معروفه ، وانما خلع عليه هذه الخلعة فسماه صدّيقا ، لأنه لمس ذلك يوم جرّب صدقه في تعبير المنام الذى رآه في السجن .

فكلمة الصديق محكمة تمام الاحكام ، مرتبطة تمام الترابط لها مدلولها واشارتها ، ومن ثمّ اطمأنت نفس يوسف ، فعبر له الرؤيا وأفاده بما زعم أنه أضغاث أحلام .

---

(١) سورة يوسف - آية : ٣٩ - ٤٠ .

(٢) سورة يوسف - آية : ٤٦ .

وأما قوله ((معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده [1])) حينما احتجز يوسف بنيامين ، تألم اخوته أشد التألم ((وقالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه ، انا نراك من المحسنين)) فرد يوسف ((معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده)) .

فالتعبير بقوله ((وجدنا متاعنا عنده)) محكم تمام الاحكام حيث ان بنيامين لم يسرق الصوّاع ، فكان التعبير بقوله ((وجدنا متاعنا عنده)) أجمل وأصدق من أن نأخذ الا من سرق في غير القرآن حتى يتحرز يوسف عن الكذب ، وفي الوقت ذاته تنفع الحيلة التي صنعها والأسلوب الذى اتخذه حيال اخوته .

ونرى أنه حينما اجتمع الشمل ، وصادف أخوة يوسف يوسف وتم اللقاء ، وجاء البشير الى يعقوب ، فارتد بصيرا ، وحينذاك أحسّ أخوة يوسف بضمير يؤنبهم ((قالو يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين [2])) ، فبدلا من أن يمد يعقوب يده الى السماء ، ويطلب لهم العفو والصفح عقب طلبهم الاستغفار ، أجّل ذلك الى حين حتى قال ((سوف أستغفر لكم ربي انه هو الغفور الرحيم [3])) .

---

(١) سورة يوسف - آية : ٧٩ .

(٢) سورة يوسف - آية : ٩٧ .

(٣) سورة يوسف - آية : ٩٨ .

وانني أرى ان تأخير الاستغفار يدل على أمرين :

أولا : يدل على أن يعقوب راغب في الصفح عنهم .

ثانيا : يدل على عظم ما صنعوه مع يوسف .

فانه لو طلب لهم الاستغفار فورا ، ربما ظن اخوة يوسف أن يعقوب قد تغاضى كلية عن فعلهم ، ونسى على الاطلاق صنيعهم ولكن ارجاء الاستغفار ، وتمهله يدل على أن نفسية يعقوب لا زال فيها شيء ، فهو يهيء نفسه ، ويمهدها حتى يمحي ما فيها ويضيع أثر هذه الأفعال التي ارتكبها أخوة يوسف ، فاذا برق البرق ، وانكشفت غياهب الظلمات ، كان لا مفر من أن يحنّ يعقوب الى أولاده فيطلب العفو والغفران لهم .

فالتعبير القرآني ((سوف أستغفر لكم ربي)) محكم مرتبط تماما بوقائع القصة ، ومدلولاتها ، وهول أحداثها ، وفظاعة وقائعها .

. . . . .

وبالتأمل في قول الله عز وجل ((فألقي السحرة ساجدين [1])) نرى أن القرآن الكريم عبّر عن خرور سحرة فرعون بالالقاء ، لأنه ذكر مع الالقاءات ، فكان الكلام عن طريق المشاكلة [2] .

---

(١) سورة الشعراء - آية : ٤٦ .

(٢) المشاكلة : هي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى .

ففي الآيتين السابقتين يقول الحق عز وجل ((فألقوا حبالهم)) ويقول ((فألقى موسى عصاه)) ، ولا مانع أن يكون اللفظ على حقيقته على معنى انهم حين رأوا ما رأوا من عظمة سحر موسى لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم الى الأرض ساجدين ، كأنهم أخذوا فطرحوا طرحا .

وقال أحمد (١) : " وفي تكرير لفظ الالقاء ، والعدول عن مثل فسجد السحرة ايقاظ السامع لألطاف الله في نقله عباده من غاية الكفر والعناد ، الى نهاية الايمان والسداد ، وهذا الايقاظ لا يحصل على الوجه الى هذا القصد الا بتكرير لفظ واحد على معنيين متناقضين " .

وبالتأمل في سورة طه في قول المولى تبارك في علاه ((ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى (٢))) . وذلك في معرض تهديد فرعون للسحرة حين آمنوا برب موسى ، نرى أن تلك العبارة تفيد أن فرعون يريد بتهديده أن يكون الصلوب من السحرة متمكنا في الجذع أشد تمكن .

---

(١) الانصاف في ما تضمنه الكشاف من الاعتزال - الجزء الثاني .
وراجع : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري - الجزء الثالث : ١١٣ .

(٢) سورة طه - آية : ٧١ .

ومن ثمّ كانت روعة التشبيه تجلي المعنى أشد جلاء ، فلقد شبه تمكن الصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه ، فلذلك قيل في جذوع النخل .

وبذلك اتضح قصد فرعون ، وأنه يريد أن ينكل بالسحرة الذين آمنوا أشد تنكيل ، حتى كانت العقوبة تمكنه منهم أشد تمكن .

وهكذا نرى قوة الاحكام القرآني ، والربط الدقيق بين معانيه وكذا بين اللفظ ومدلوله .

. . . . .

وعصا موسى جاءت مرة حية ، وأخرى جان ، وثالثة ثعبان قال تعالى ((وما تلك بيمينك يا موسى * قال هي عصاى أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى * قال ألقها يا موسى * فألقاها فاذا هي حية تسعى))(١) .

وقال تعالى ((قال لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين * قال أو لو جئتك بشيء مبين * قال فأت به ان كنت من الصادقين * فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين *))(٢) .

وقال تعالى ((وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، يا موسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين))(٣) .

---

(١) طه - آية : ١٧ - ٢٠ .
(٢) الشعراء - آية : ٢٩ - ٣٢ .
(٣) القصص - آية : ٣١ .

فالعصا قد ترددت ما بين حية ، وجان ، وثعبان ، والواقع أن تغير صورة العصا على هذه الألوان الثلاثة لم يكن يخلو من فائدة اذ المقام يقتضي هذا ونحن نعلم بأن من سمات النص القرآني التي امتاز بها مراعاته لمقتضى الحال ، من هنا جاء التعبير هكذا .

ففي سورة طه لما كان موسى بمقام الحضرة الالهية ، وهي مقام يشيع العظمة والرهبة والطمأنينة ، قال تعالى ((ألقها يا موسى * فألقاها فاذا هي حية تسعى)) ، من هنا ناسب أن تكون العصا حية ، لأن الحية مجرد مخلوق من خشاش الأرض ، يتحرك حركته المعروفة ، ويتعرض لمن واجهه .

ولا ننسى بأن جو السورة كله تسري فيه الطمأنينة ، وبعث الثقة ، والتسرية وازالة ما في النفوس ، ولذا جاء في مطلعها ((طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى)) (١) .

أما في سورة الشعراء ، فان موسى في مواجهة فرعون وملائه وهو في مقام طلب حجة ، واثبات بينة ، من هنا ناسب أن يأتي القرآن الكريم بذكر الثعبان ، وهي العظيم من الحيات ذو القوائم ، وفم كبير ، وشكل هائل مزعج ، ليسهل به الاقناع ، وتحصل المعجزة .

---

(١) سورة طه - آية : ١ - ٢ .

وأما في سورة القصص فالمقام أيضا مقام حضرة الهية ، وهو أيضا يشيع العظمة ، ويبعث على الطمأنينة ، ولكن الموقف يقتضي هذا ، فان موسى بصدد المواجهة الآن ، من هنا جاء ذكر الجان ، وهي الدقيقة من الحيات في سرعة .

على أنه لا مانع لدى من أن تكون الصورة واحدة ، والمشاهد مختلفة ، فالحية أول حالها ، والجان مآلها ، وكل هذا في مقام واحد ، وكل هذا كالتهيئة لموسى حتى يزول ما يجده في نفسه من الخوف والذعر حين المواجهة ، والموقف يتحمل هذا ، بدليل ان موسى عليه السلام كان في الحضرة الالهية يتحدث مع رب العزة والجلال ، ويتلقى منه الأوامر والعصا تتلون من حال الى حال ، فلما ألقاها أول وهلة وهي على البراءة الأصلية ، صارت حية فلم يذعر منها موسى عليه السلام ، لأن روعة الموقف شغلته عن هذا الذعر خلال هذا صارت جانا فولى موسى هاربا مدبرا منها فقال له البارىء عز وجل ((أقبل ولا تخف انك من الآمنين)) . والمقام يحتمل ويتسع لكل هذا ، بدليل أن موسى عليه السلام طلب من ربه أن يتجلى له قائلا ((رب أرني أنظر اليك))(١) .

وبعد أن حصلت التهيئة والحصانة ، فلا مانع من تكرار الصورة مرة أخرى ، فالمناعة موجودة ، وهو ما حدث لموسى مع فرعون ، كما قال تعالى ((قال أولو جئتك بشيء مبين * قال فأت به ان كنت من

---

(١) سورة الأعراف ـ آية : ١٤٣ .

الصادقين * فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين *))[١] .

الى غير ذلك من قوة الاحكام والربط التي بدأت كما وضحنا قبل ذلك عند أحداث القصة ، وما لها من قوة الترابط والتماسك وقوة الاحكام والربط .

وليست قوة الاحكام بادية في تسلسل الأحداث وترابطها فحسب ولكنها جاءت كثيرا في أسلوب القصة المنتظم ، وتركيبها المتناسق ، وذلك بوضع الكلمة في مكانها ، وذلك يتضح في ايثار القرآن الكريم تقديم لفظ على لفظ ، وتأخير لفظ على آخر ، وذلك طبق خواطر النفس مما يراه النقاد القدامى والمحدثون لازمة من لوازم التعبير الذى يصور خلجات النفس حيث ان مواقع الكلمات لها أهدافها السامية في الجملة مما يستفاد من كلام عبد القاهر : " ان العبارة التي يروقك مسمعها ربما ان قدم فيها شيء وحول اللفظ من مكان الى مكان ، فبناء العبارة كما يرى بعض الباحثين بناء خواطر ومشاعر واختلاجات قبل أن تكون هندسة ألفاظ ، وتصميم قوالب ، وطريق التقديم في العبارة النظر فيه يتناول مواقع الكلمات وجريانها طبق خواطر النفس وألوان الحس[٢] .

يقول الله تبارك وتعالى في قصة موسى عليه السلام ((وجاء

---

(١) سورة الشعراء - آية : ٣٠ - ٣٢ .

(٢) دلالات التراكيب - دراسة وبلاغة / د . محمد أبو موسى : ١٧٤ طبعة عام ١٩٧٩ م .

رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين (١) .

نرى أن الله عز وجل قدّم كلمة ((رجل)) على كلمة ((من أقصا المدينة)) لتفيد الآية الكريمة أن ذاك الرجل هو موضع النظر ، وهو الذى تشهد له النفوس بقوة ايمانه ، وعظيم فضله ، بصرف النظر عن اقامته في أقصا المدينة ، وسكناه في مكان ناء .

فان الملأ الذين تآمروا على قتل موسى وصمموا على التخلص منه أخبر به ذاك الرجل ، فهو يستحق كل تقدير ، لأنه خلص موسى من شر تلك الفتنة ، وأعانه على الهروب ، فخرج منها خائفا يترقب ، ملتجئا الى الله عز وجل ((قال رب نجني من القوم الظالمين (٢))) وهم فرعون وملائه الذين تآمروا على قتله ، فكلمة رجل وقد جاءت منكّرة ، ووضعت في وضعها الطبيعي لتفيد أن ذاك الرجل كان رجلا عظيما لصنيعه حيث أخبر موسى بما أخبر ، فنجاه من شر الطغاة ، ولقد تحدثت عنه آية أخرى فوصفته بالايمان وموقفه الدفاعي تجاه موسى عليه السلام فقال عز وجل ((وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، ان الله

---

(١) سورة القصص ـ آية : ٢٠ .

(٢) سورة القصص ـ آية : ٢١ .

لا يهدى من هو مسرف كذاب))[١] ، فهذا الرجل له شأنه وقدره ، لا في اخباره موسى بتلك المؤامرة فحسب ، وانما في دفاعه عنه حين صم الطغاة على قتله ، وفي الوقت ذاته كان رجلا محنكا ، على دراية واسعة بأسلوب الحكمة حتى خاطبهم بطريق النصح والملاطفة حتى قال ((أتقتلون رجلا)) من غير أن يذكر اسم موسى عليه السلام ليوهمهم أنه لا يعرفه فضلا عن أن يعتنق دينه ، وفي تقديه الكذب على الصدق في قوله ((وان يك كاذبا فعليه كذبه))[٢] لكي يتماشى مع رأيهم ويوافق هواهم ، وفي قوله ((وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم)) ما يدفع أنه متعصب لهم ، حيث انه لم يقل كل الذى يعدكم .

وفي قوله ((ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب)) مع أن فيه تعريضا منه بفرعون ، حيث انه يستحق هذين الوصفين لادعائه الألوهية والربوبية والكذب على الله ، مع هذا التعريض بفرعون الا أنه قد يفهم من ظاهر العبارة أن ذاك الرجل ليس بصدق بموسى .

وفي قوله ((يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا))[٣] ، تفيد أن ذاك الرجل عنده فراسة

---

(١) سورة غافر - آية : ٢٨ .

(٢) " " - " : ٢٨ .

(٣) " " - " : ٢٩ .

ما بعدها فراسة ، حيث انه يتلطف مع هؤلاء الطغاة بقوله أنتم الآن غالبون على بني اسرائيل ، فمن ينقذنا من عذاب الله ان قتلتم رسوله .

ويذكر الرازي (١) أنه قال ينصرنا وجاءنا لكي يظهر لهم أنه منهم ، فهو يقدم لهم النصيحة .

وبذلك يكون دفاعه عن موسى أجدى وأنفع .

وهكذا يتميز ذلك الرجل الذى أخبر موسى بمؤامرة فرعون وقومه برجاحة العقل ، وقوة الحجة في الوقت الذى امتلأ قلبه حبا لموسى وايمانا بالاله الأعلى ، وهو الله عز وجل .

ومن هنا كان تقديم الرجل في قوله ((وجاء رجل من أقصا المدينة)) تقديم يمثل خلجات المشاعر ، ويصور ما تكنه النفس لذاك الرجل المشهود له بقوة الايمان ، وروعة البيان ، وكمال الفراسة والذكاء .

واذا تأملنا لما ورد في سورة يس في قول الله عز وجل ((وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين)) (٢) .

نرى أن منطوق الآية قدمت من أقصا المدينة على رجل ، على عكس ما ورد في قصة موسى ، وذلك لأن المقام هنا يقتضي بيان أن (حبيبا النجار) وهو ذلك الرجل كان منزله عند أقصا أبواب المدينة ، وكان

---

(١) راجع : صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني - الجزء الرابع عشر : ٧٩ .

(٢) سورة يس - آية : ٢٠ .

يعكف على عبادة الأصنام سبعين[1] سنة ، وكان يدعوهم لعلهم يرحمونه ويكشفون ضره ، لأنه كان مصابا بمرض الجذام ، ولكن تلك الأصنام لم تستجب له ، فلما أبصر الرسل الذين أرسلوا الى أصحاب القرية ، وهي أنطاكية هؤلاء الرسل وهم صادق ، ومصدوق ، وشمعون ، ولكن أهلها لم يستجيبوا لهم ((فقالوا انا اليكم مرسلون * قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا *[2])) .

فلما أبصر حبيب هؤلاء الرسل ، ودعوه الى الله قال هل من آية ؟ قالوا نعم ، نحن ندعو ربنا القادر فيفرج عنك ما بك من جذام ، فتعجب قائلا : اني أدعو هذه الآلهة سبعين سنة لتفرج عني فلم تستطع ، فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة ، قالوا : نعم ، ربنا على كل شيء قدير ، فلما آمن حبيب النجار دعوا الرسل ربهم فكشف ما به .

فلما همّ قومه بقتل الرسل جاءهم مسرعا ((قال يا قوم اتبعوا المرسلين[3])) .

فالموقف هنا يقتضي تقديم من أقصا المدينة ، لبيان أن ذاك الرجل كان بعيدا في مكانه ، معتكفا على عبادة أوثانه ، فارا من الناس لما أصابه من مرض الجذام ، فجاء من هذا المكان النائي ، لكي يدافع عن رسل الله وقطع تلك المسافات الشاسعة ، يسعى على قدميه من أجل أن ينصرهم

---

(١) صفوة التفاسير للصابوني - الجزء الثالث عشر : ٤٨ .

(٢) سورة يس - آية : ١٤ - ١٥ .

(٣) سورة يس - آية : ٢٠ .

وقد علم أن الله قد أيدهم من فضله ، وأعطاهم من آياته ، فلقد تم بـــرؤه فذهب جذامـــه بعد أن طلبوا من الله عز وجل أن يكشف عنه ما بـــــه فتقديم من أقصا المدينة لبيان أن ذاك الرجل لا بد من أن يبذل جهـــده حتى يهون على نفسه كل مشقة فـــأتى من أطراف المدينة جادا مسرعـــا مستسهلا الصعاب ، اعترافابفضل هـؤلاء الرسل ، وقد أزالوا عنه كربـــه ومحوا عنه مرضـــه ، فالموقف في تلك الآية يقتضي تأخير الفاعـــل ، لأن ذاك الرجل ما دافع عن الرسل ونصرهم الا بعد عطفهم الشامل نحـــوه على عكس الرجل في قصة موسى الذى ان دافع عن موسى وحماه من بطـــش الجبابرة فانما لأن احساسه الداخلي يتدفق بقوة اليقين ، فهو يحـــس بأن موسى رسول من رسل الله ، وانه ما جاء الا لينذر فرعون وملائـــه .

كان ذاك الرجل الذى يكتم ايمانـــه ، يحس بهذا كله من غير أن يقدم له موسى معروفا خاصا ، أو يسدى اليه صنيعا كما هو صنيع الرســـل مع حبيب النجار الذين طلبوا من ربهم أن يفرج كربه ، فالمقام يقتضـــي تقديم الرجل في قصة موســـى ، وتأخير الرجل في قصة رسل أصحـــــاب القريـــــة .

وهكذا نلمس قوة الاحكام ، ووضع اللفظة في مكانها المناسب .

فالقرآن الكريم لا يقدم لفظا ، ولا يؤخر آخر الا اذا كان المعنى يطلبه تماما ، فمواقع الكلمات القرآنية تكون طبق خواطر النفس ، وخلجـــات المشاعر قبل أن تكون هندسة ألفاظ ، وتصميم قوالب .

وقد يبدو لأول وهلة أن بعض الآيات القصصية قد تضاربت في منطوقها واختلفت في عبارتها ، مما قد يظن أصحاب العقول السطحية والمفترين ، أن القصص القرآني شابه الاضطراب ، وفاته قوة الاحكام .

ولكن الحقيقة غير هذا ((ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا))(١) ، ومن ذلك على سبيل المثال في قصة موسى نرى في سورة طه يقول الحق عز وجل ((اذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى * فلما أتاها نودي يا موسى * اني أنا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري))(٢) .

وفي سورة النمل الآيات (٧ ، ٨ ، ٩) :

((اذ قال موسى لأهله اني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون * فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين * يا موسى انه أنا الله العزيز الحكيم *)) .

وفي سورة القصص الآيتان (٢٩ ، ٣٠) :

((فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار

---

(١) سورة النساء - آية : ٨٢ .

(٢) سورة طه - آية : ١٠ - ١٤ .

لعلكم تصطلون * فلما أتاها نودى من شاطيء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى اني أنا الله رب العالمين)) .

فبالتأمل في تلك الصور الثلاث ، نلمح أن هناك اختلافا ظاهريا في بعض العبارات :

في سورة طه ((لعلي آتيكم منها بقبس))

وفي سورة القصص ((لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون))

وفي سورة النمل ((سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون)) .

وفي المناداة الالهية ((اني أنا ربك فاخلع نعليك)) في سورة طه .

وفي سورة النمل ((يا موسى انه أنا الله العزيز الحكيم)) .

وفي سورة القصص ((أن يا موسى اني أنا الله رب العالمين)) .

وهكذا نرى اختلاف القصة في السور الثلاث من حيث بعض العبارات التي وردت على لسان الحق عز وجل ، أو على لسان الكليم موسى عليه السلام .

وانني أرى أن هذا لا يعد اختلافا في القص ولا تباينا في الألفاظ التي تؤدى الى تضارب المعاني اذ انه مع هذا الاختلاف اللفظي الذى قد يحدث أحيانا في خلال القصص المكررة ، الا أن ما تهدف

اليه العبارة ، وما تشير ، متفق تماما وليس فيه شيء من التعارض الذى يجعل سياق القصة غير متناسق مع القصص التي تحكى في صور أخرى .

فموسى عليه السلام رأى نارا ، ومع ذلك هو يأتي منها بقبس أو بخبر ، أو بجذوة ، أو يجد عليها هدى ، والله عز وجل ناداه سواء بقوله ((اني أنا ربك)) ، أو بقوله ((أنا الله العزيز الحكيم)) ، أو بقوله ((اني أنا الله رب العالمين)) ، كلها معان مؤداها واحد ، ومغزاها متفق تماما .

ومن المعلوم أن الله عز وجل لم يخاطب موسى بتلك اللغة العربية ، كما أن موسى لم يحدث أهله بتلك اللغة والعبارة ذاتها .

وعلى هذا فلا مانع من أن الله عز وجل يقرب هذه المعاني والعبارات الى أفهام العرب ، وما اصطلحوا عليه من ألفاظ ، وعلى هذا فالعبارات الواردة في السور الثلاث ما كانت الا لتعبر تماما عن مفاهيم الألفاظ العربية ، ولتترجم عن المعاني التي ألفها الناس حينئذ اك .

على أن القصة القرآنية ليس هدفها أن تحكي عبارة بعينها أو لفظا كما هو ، وانما هدفها الأساسي هو التعبير عن مشاعر الرسل والأمم الذين قد بعثوا ، ولن يكون التعبير كاملا بالألفاظ فحسب ، وانما يكون بالأحداث التي انبثقت من حياتهم ، فتحركت بها مشاعرهم ، ونهضت بها وجدانهم .

فالقصص القرآنية تترجم عن المشاعر والسلوك النفسي والعملي قبل أن تترجم عن نبرة صوتية ، أو محاكاة لفظية .

على أن في اختلاف هذه التعبيرات اللفظية مع الاتفاق في الغاية القصصية ، والأحداث المعنوية ، دليل قوى على روعة القصص القرآنـــي وبرهان ساطع على اعجـازه ، فمع تكرار القصة الواحدة بأساليب مختـــلفة فان مغزاها واحد ، وأحداثها متفقـة ، وكل قصة تكمل الأخرى ، فهـــي كالبنيان يشد بعضه بعضا ، على أن هذا الاختلاف اللفظي قد يكـــون سمته الاطناب والايجاز ، كما هو واضح في سورة طـه ، الآيات (١٧ ، ١٨ ، ١٩) ((وما تلك بيمينك يا موسـى * قال هي عصاى أتوكـؤا عليها وأهش بهـا على غنمي ولي فيها مآرب أخرى * قال ألقها يا موسى)) .

وفي سورة القصص ، الآية (٣١) : ((وأن ألق عصاك)) .

وفي سورة النمل ، الآية (١٠) : ((وألـق عصـاك)) .

فنرى في سورة طـه حديث مطول عن عصا موسى ، فالله يسأله وهو يجيـب ليبين فائدة عصاه ، ثم بعد ذلك يطلب منه الحق عز وجل أن يلقي عصاه .

أما في سورة النمل وسورة القصص فلم نر شيئا من التفصيل عـــن عصا موسى ، ولم نر السؤال والجواب الذى لمسناه في سورة طـه ، وانمـا رأينا الأمر الالهي لموسى بأن يلقي عصـاه .

اذن فليس هناك تضارب في هذه القصة الموسوية حينما تكـــررت في ثلاث سور ، وانما هو الايجاز والاطناب الذى ربما قد أحدث شيئـــا من الاختلاف في سرد القصة ، وبالتأمل في سورة طه نرى أن العصا حينما ألقاها موسى اذا هي حية تسعى .

وفي سورة القصص كانت جانا ، وفي سورة النمل كان جان أيضا وسبق أن قلت انه ليس هناك تضارب بين هذا وذاك ، فالحية أول حالها والجان مآلها ، فهو يتحدث عن البداية والنهاية ، وعلى كل فان أثر القاء العصا على نفس موسى هو الذعر والخوف في الصور الثلاث ، وان اختلفت العبارة الدالة على ذلك .

ففي سورة طه ((قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى))

وفي سورة النمل ((فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف))

وفي سورة القصص ((أقبل ولا تخف انك من الآمنين)) .

اذن فالصور الثلاث تتفق تماما في أثر القاء العصا على نفس موسى وان اختلفت في شيء من شكلها لتبرهن على أن العصا حينما ألقاها موسى فانقلبت الى شيء مخيف لم تثبت على حالة واحدة ، وهكذا نلمس قوة القرآن الكريم في احكامه وربطه وعدم تضاربه .

ولست أؤيد من ذهب الى أن هذا الاختلاف اللفظي يمثله اختلاف الموقف القصصي ، فما دامت القصة قد وردت لغرض ومقصد كالتسلية والتسرية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فلابد أن تتناول في كل موقف شكلا معينا ربما قد يغاير الشكل الآخر الذى تحكيه سورة أخرى ، على معنى أن كل سورة قد تحكي قصة ، فهذه قصة وتلك قصة .

وعلى ذلك لا تكون هناك مشكلة قائمة على هذا الاختلاف ، لأننا لم نربط بين القصتين حتى يقوم التعارض والاختلاف[١] ، فانني أرى أن السور القرآنية المتعددة وان تحدثت عن قصة واحدة ، فانما تكرر حدثا واحدا ، وقصة دارت بين قوم وليس من المعقول أن كل سورة من القرآن تتناول قصة على غير القصة التي وردت في سورة أخرى .

ان السور القرآنية تحكي قصة واحدة ، ولكنها تعرضها بأساليب مختلفة ، مما يتناسب مع لغة العرب ، ويتلاءم مع أفهام الناس سواء في شيء من الايجاز ، أو في شيء من التفصيل ، وليس من المعقول في شيء أن يكون هدف القصة القرآنية هو الكشف عن موضع العبرة ، وموطن العظة دون قصد الى تقرير خبر بعينه ، فان العبرة والعظة - على ما أرى - لن تنكشف على حقيقتها الا حينما نلمس حدثا معينا ، وموقفا خاصا ، وبذلك يكون تقرير الخبر بعينه من العوامل الهامة في روعة القصة ، والاتعاظ بها ، فتكون كما قال الحق عز وجل((عبرة لأولي الألباب)) .

أما من زعم أن في قول الله تعالى في قصة فرعون ((ما علمت لكم من اله غيري))[٢] ، وقوله تعالى ((وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك))[٣] .

---

(١) من كتاب الفن القصصي في القرآن / لمحمد أحمد خلف الله : ٢٢٠ طبعة عام ١٩٥١ م .

(٢) سورة القصص - آية : ٣٨ .

(٣) سورة الأعراف - آية : ١٢٧ .

ففي الآيـة الأولى ظهر فرعـون بمظهر المعبـود .

وفي الآية الثانية ظهر فرعـون بمظهـر العابـد .

مما يدل - في نظر السطحيين - على شيء من التضارب ، وعدم قوة الاحكام والربط .

وانني أرى أنه لا تضارب بين الآيتين ، حيث ان الآية الأولى على لسان فرعون ، بدليل قول الله عز وجل ((وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيري)) ، والآية الثانية ليست على لسان فرعون وانما على لسان الملأ من قومه ، بدليل قول الله سبحانه ((وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك)) .

ففرق بين كلام فرعون ، وكلام قومه ، ومن ثمّ لا تضارب بين الآيتين ولا تعارض .

ثبت المراجع والمصادر

مصادر البحث ومراجعـــه

أولا : القـرآن الكريـــم :

ثانيا : كتب التفســـــير :

٢ تفسـير القـرآن العظـــيم

للامام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء اسماعيـــل ابن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ .

٣ تفسير تنوير المقباس لجد الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عبـــاس ابن عبد المطلب الهاشمي رضي الله عنهما .

مطبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

٤ تفســير الجلالـــين :

لجلال الدين المحلي ، وجلال الدين السيوطي - رحمهما اللـــــه .

مكتبة العلوم الدينية - بيروت - لبنان .

٥ تفسير صفوة التفاسير الجامع بين المأثور والمعقول :

للشيخ محمد بن علي الصابوني .

طباعة دار القرآن الكريم - بيروت - ١٤٠١ هـ .

٦ تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير :

للقاضي الحافظ محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ

الناشر محفوظ العلي - بيروت .

٧ تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :

لجار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، المتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

٨ تفسير مختصر تفسير ابن كثير :

للشيخ محمد بن علي الصابوني .

الطبعة السابعة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

٩ تفسير المنار :

لمحمد رشيد رضا .

ثالثا : كتب التاريخ :

١٠ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم :

لأبي محمد عبد الملك بن هشام

شرح الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد

مطبعة دار الفكر - بيروت .

١١ السيرة النبوية :

للدكتور مصطفى السباعي

الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ .

١٢ الكامل في التاريـــخ :

للامام العلامة ، عمدة المؤرخين أبي الحسن علي بـــــــن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعـــروف بابن الأثـير ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ .

الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ - دار الكتاب العربي - بيروت .

رابعا : في القصص القرآنيـــة :

١٣ الفن القصصي في القـرآن :

لمحمد أحمد خلف اللـه - طبعة ١٩٥١ م .

١٤ القرآن والقصة الحديثـــة :

لمحمد كامل حسن - الطبعة الأولى .

١٥ قصص الانبيـــــاء :

لعبد الوهاب النجار - الطبعة الثالثة .

١٦ قصص القرآن :

لمحمد أحمد جاد المولى - طبعة ١٣٩٨ هـ .

١٧ قصص النبيـــين :

لأبي الحسن الندوى - الطبعة التاسعة عشـــرة .

خامسا : في المعاجـــم :

١٨ القاموس المحيـــط :

لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ

الطبعة الثانية ١٣٧١ هـ - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصـر .

١٩ لسان العرب - :

لابن منظـور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى ، المتوفى سـنة ٧١١ هـ .

الدار المصرية للتأليف والنشـر .

٢٠ معجم مصطلحات الأدب :

للدكتور مجدى وهبـة - طبعة ١٩٧٤ م .

٢١ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن :

لمحمد فؤاد عبد الباقي .

دار الفكر - بيروت .

٢٢ المعجم الوســـيط .

سادسا : في الأدب والنقد والبلاغـة :

(في الأدب)

٢٣ الأدب القصصي والمسرحي في مصر من أعقاب ثورة ١٩١٩ م الى قيـام الحرب الكبرى الثانية :

للدكتور أحمد هيكل - الطبعة الثالثـة .

٢٤ بحوث في اللغة والأدب :

للأستاذ عباس محمود العقاد - ١٩٧٠ م .

٢٥ تذوق الأدب :

للدكتور محمود ذهني .

طبعة مكتبة الأنجلو المصرية .

٢٦ تطور الرواية العربية الحديثة في مصر :

للدكتور عبد المحسن طه بدر - طبعة ١٩٦٣ م .

٢٧ الجمال والفن :

للدكتور ماهر كامل .

طبعة دار الطباعة الحديثة بمصر - ١٩٥٧ م .

٢٨ صور ودراسات في أدب القصة :

لحسني نصار - طبعة ١٩٧٧ م .

٢٩ القصة في أدب الجاحظ :

لعبد الله أحمد باقازى - الطبعة الأولى .

٣٠ القصة القصيرة - دراسة ومختارات - :

د . الطاهر أحمد مكي - طبعة ١٩٧٨ م .

٣١ القصة وتطورها في الأدب العربي :

للدكتور مصطفى علي عسر - الطبعة الأولى .

٣٢ الواقعية في الرواية العربية :

للدكتور محمد حسن عبد الله - طبعة ١٩٧١ م .

(في النقـــد)

٣٣ أسس النقد الأدبي عند العرب :

للدكتور أحمد بدوى - طبعة دار نهضة مصر .

٣٤ أصول النقد الأدبي :

للدكتور أحمد الشايب - الطبعة الثانية - ١٩٧٣ م .

٣٥ التيارات المعاصرة في النقد الأدبي :

للدكتور بدوى طبانة - الطبعة الثانيـة .

٣٦ دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية الى نهاية القرن الثالث:

للدكتور بدوى طبانة - الطبعة الخامسة .

٣٧ في النقد الأدبـي :

للدكتور شوقي ضيف - الطبعة الرابعة .

٣٨ مقالات في النقد الأدبي :

للدكتور محمد مصطفى هدّارة - طبعة ١٩٦٤ م .

٣٩ النقـد الأدبـي :

لأحمد أمـين - طبعة ١٩٦٧ م .

٤٠ النقد الأدبي الحديث :

للدكتور محمد غنيمي هـــلال .

(في البلاغـــة)

٤١ أسرار البلاغـة ودلا ئل الا عجـــاز :

لعبد القاهر الجرجانـــي .

٤٢ اعجاز القـرآن :

لأبي بكر الباقلانـــي .

٤٣ أنوار الربيـــع في أنواع البد يع :

تأليف السيد علي صد ر الد ين بن معصـــوم

حققه شاكر هاد ى شـــــكر - طبعة ١٩٦٨ م

مطبعة النعمان بالنجـــف .

٤٤ الا يضاح :

للخطيب القزويني - الطبعة الثانيـة

مطبعة السنة المحمد ية بالقاهـــرة .

٤٥ البرهان في عـلوم القـرآن :

للزركشـــي - الطبعة الثانية - د ار المعرفة - بيروت .

٤٦ التصـوير الفني في القـــرآن :

للشهيد سيد قطب - الطبعة السادسة .

٤٧ التعبير الفـني في القـــرآن :

للد كتور بكرى شيخ أمـــين .

٤٨ جواهـــر البلاغـة :

لأحمد الهاشمي - نشر دار احياء التراث العربي - بيروت .

٤٩ دلالات التراكيب - دراسة وبلاغـة - :

للدكتور محمد أبي موســى - طبعة ١٩٧٩ م .

٥٠ سر الفصاحـــة لابن سنان الخفاجـي :

للدكتور عبد الرازق أبي زيـد - طبعة ١٩٧٦ م .

٥١ سورة الرحمـن - عرض ودراسـة - :

للدكتور شوقي ضيف - طبعة دار المعارف بمصر .

٥٢ علم البديـــع :

للدكتور عبد الرازق أبي زيـد - طبعة ١٩٧٧ م .

٥٣ فنون البلاغـة بين القرآن وكلام العرب :

للدكتور فتحي عبد القادر - الطبعة الأولى .

٥٤ مباحث في علوم القرآن :

للشيخ مناع القطـــان - الطبعة الثالثـــة .

سابعا : كتب ثقافيـــة :

٥٥ اسلامنـــــا :

لسيد سابق - دار الكتاب العربي - بيروت .

٥٦ علم التجويـــد :

للدكتور عبد العزيز عبد الفتاح القارئ - طبعة ١٣٩١ هـ .

٥٧ مع الايمان في رحاب القـرآن :

للدكتور محمد محمد خليفة ـ الطبعة الأولى .

٥٨ معجـزة القـرآن :

للشيخ محمد متولي الشعـراوى .

٥٩ المقدمـة :

لابن خـلدون ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنـان

١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

٦٠ من قضايـا القـرآن :

لعبد الكريم الخطـيب .

٦١ نظـرات اسلاميـة :

للدكتور محمد معروف الدواليبي ـ طبعة بيروت .

٦٢ اليهـود في القـرآن :

لعفيف عبد الفتاح طبـارة ـ الطبعة الثانيـة .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضـــوعات

الموضـــوع	الصفحـــة
المقدمـــــة	١
الخطـــــة	ل
التمهيـــــد	ح
البـاب الأول / مقاصد القـرآن الكريم	١
الفصل الأول / العقيدة والتشريع وما يتعلق بهما ...	٢
الفصل الثاني / التأسـي والاعتبـار	٩
الباب الثاني / التكرار في القصة القرآنيـة	١٤
الفصل الأول / القصة القرآنية بين التكرار وعـدمه ...	١٥
الفصل الثاني / جزئيات القصة القرآنية الواحدة بيـن التكرار وعـدمه	٣٠
الفصل الثالث / الافادة في تكرار القصة القرآنيـة ...	٤٩
الاطناب والايجاز ...	٤٩
قد تعرض كثير من جزئيات القصة في القرآن الكريم بصورة مختلفة في الأسلوب ولكن المؤدى واحد	٥٥
ومن تنوع الأسلوب مراعاة مقتضى الحال ، وذلك اذا كان الموقف يقتضي اللمحة الخاطفة	٦١
ومن تنوع الأسلوب اضافة معنى جديد	٦٣
ومن تنوع الأسلوب أن القرآن يفسر نفسه من خلال قصصه	٦٧
ومن تنوع الأسلوب اختلاف القصة في عرضها	٧٤

الموضـــــوع	الصفحـــة
البـــاب الثـــالث / ملامـــح القصة القرآنيـــة	٧٨
الفصـــل الأول / عنصـــر التشـــويق	٧٩
كتم السر عن البطل والنظارة	٧٩
كتم السر عن البطل وكشفه للنظارة . . .	٨٠
كشف بعض السر للنظارة وكتمه عن البطل. .	٨٢
أن لا يكون هناك سر بل يفاجأ البطـــــل والنظارة بالموضوع دفعة واحدة من غير ترقب وانتظ وانتظـــــار	٨٣
الفصل الثاني / رسم الشخصية القرآنية وحيويتها . . .	١٠٥
ارتباط الشخصيات وتفاعلهـــــا . . .	١٢٩
الفصل الثالث / أحداث القصة القرآنية من حيث ترابطها وواقعيتهـــا	١٣٥
الفصل الرابع / ما تهدف اليه القصة من قيم ومعالجـــة انسانيـــــة	١٦٤
الباب الرابـــع / من روائع التصوير في القصص القرآني . . .	١٨٠
الفصل الأول / التناسق الفـــني	١٨١
الفصل الثاني / الاصابة في نقل العواطف	٢١٩
الفصل الثالث / قوة الاحكام والربـــط	٢٤٧
مصادر البحث ومراجعه	٢٨٥
فهرس الموضوعـات	٢٩٤

==========

*
* * *
* * * * *

تم بحمد الله وتوفيقه الفراغ من طبع هذه الرسالة

في يوم الاثنين السابع عشر من شهر ربيع الثاني من السنة الثالثة

بعد المائة الرابعة عشرة من هجرة رسول الهدى صلى الله

عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا - الموافق ٣١ يناير ١٩٨٣م

وقام بطبعها العبد الفقير الى رحمة الله تعالى سعيد بن عطية

بسيوني - غفر الله له ولوالديه ولصاحب الرسالة ولمن قرأها واطلع

عليها ، ونفع الله بها الاسلام والمسلمين ، انه سميع قريب مجيب .

* * * * *
* * *
*